مشروع تعاون التوثيق

بين

وزارة الثقافة المغربية

و مركز التوثيق الملكي الأردني الهاشمي
باشراف مدير عام مركز
السيد د. محمد عيسى العدوان

فريق العمل الذي اشرف على المشروع

المشرف أنوار الخياري

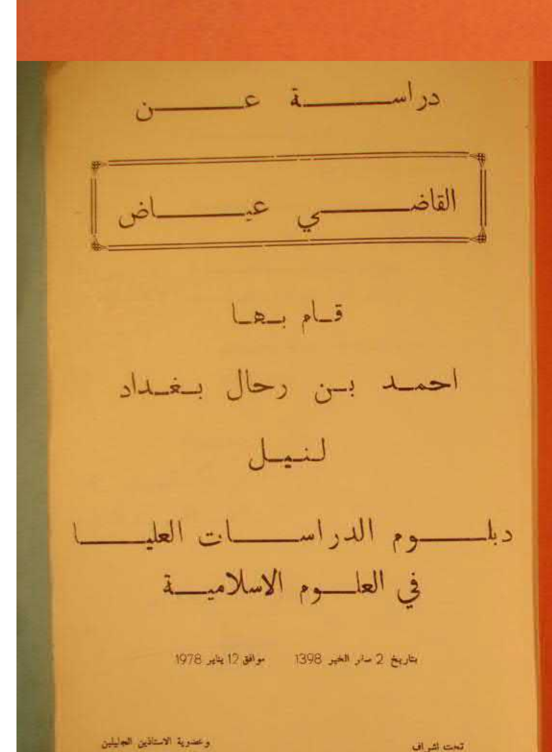
رشيد برنانو

منير دعنون

سلوى فخري

(مشروع خزانة ابن يوسف)
مراكش





دراسة عن

القاضي عياض

قام بها

احمد بن رحال بغداد

لنيل

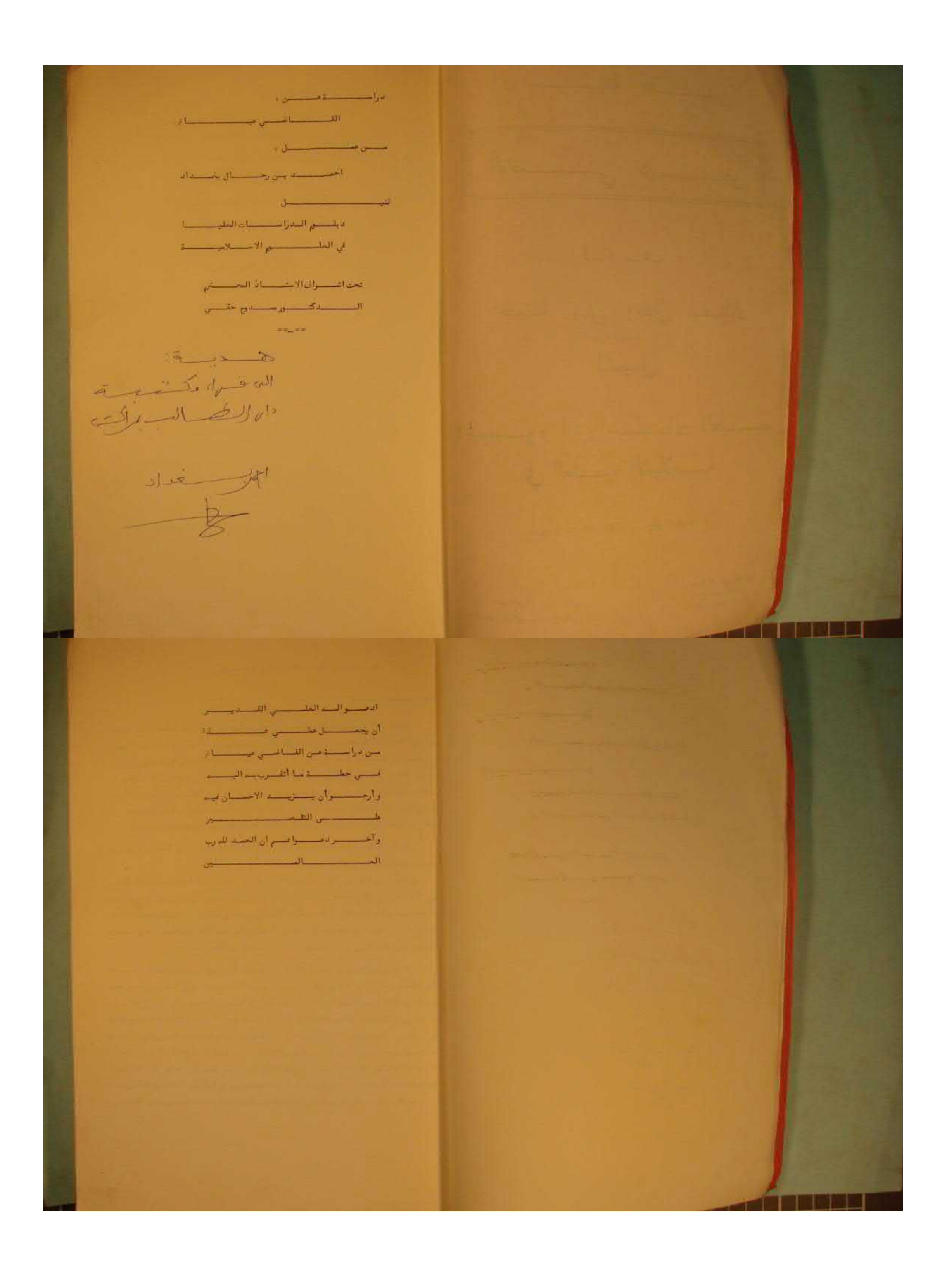
دبلوم الدراسات العليا

في العلوم الاسلامية

بتاريخ 2 صفر الخير 1398 موافق 12 يناير 1978

تحت اشراف
الاستاذ المحترم الدكتور ممدوح حقي

وعضوية الاستاذين الجليلين
الشيخ محمد المنوني
و الدكتور عباس الجراري



دراسة عن :

القاضي عياض

من عمل :

احمد بن رحال بغداد

لنيل

دبلوم الدراسات العليا

في العلوم الاسلامية

تحت اشراف الاستاذ المحترم

الدكتور صدوق حقي

==_==

هدية :

الى قراء مكتبة

دار الطالب البراكي

احمد بغداد

ادعو الله العلي القدير

أن يجعل عملي هذا

من دراسة عن القاضي عياض

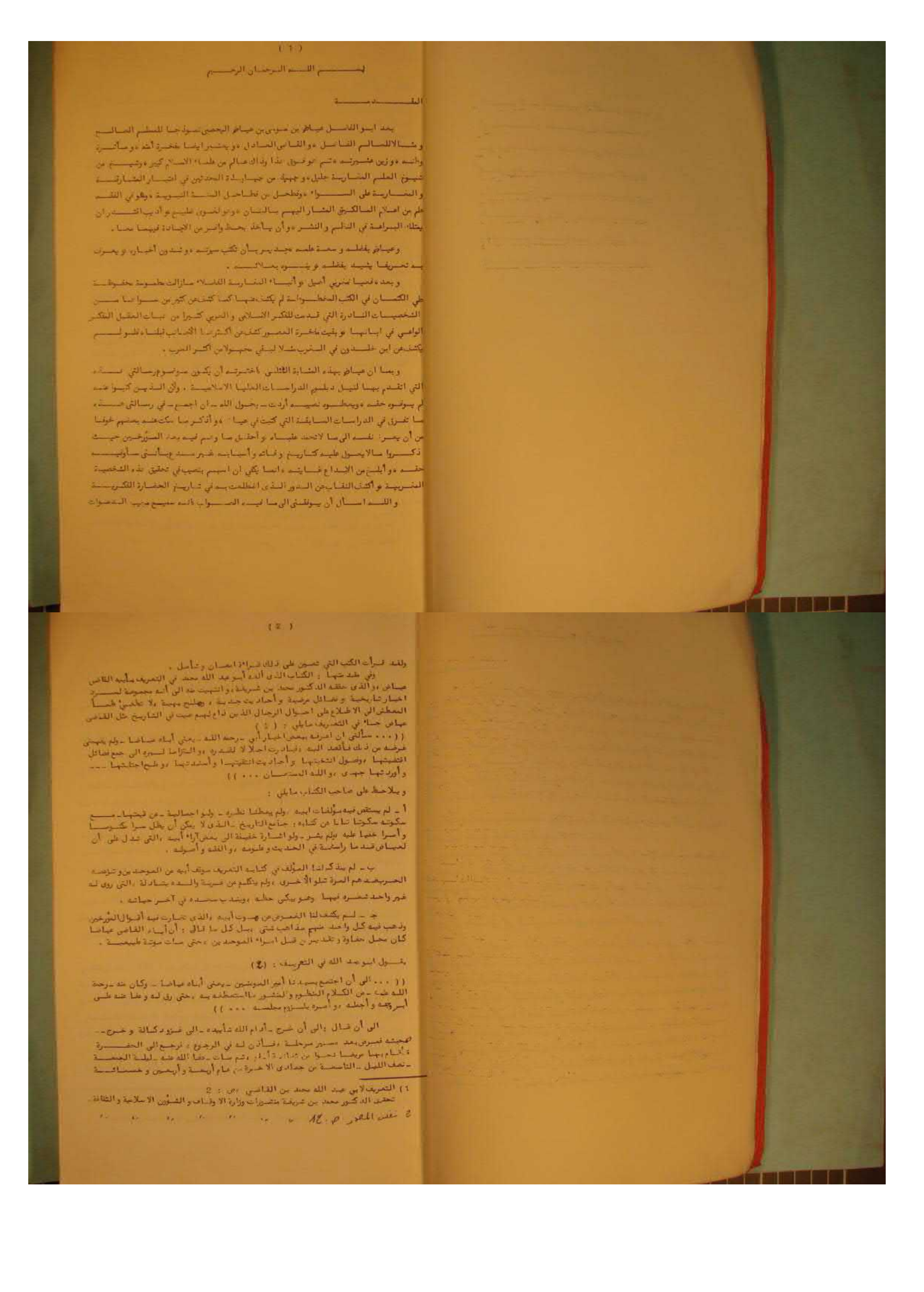
في حلة ما أتقرب به اليه

وارجو أن يزيد الاحسان به

على التقصير

وآخر دعواهم ان الحمد لله رب

العالمين



بســـم اللـــه الرحمان الرحيـــم

المقـــدمـــة

يعد ابو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي نموذجا للمسلم الصالح والعالم العامل الفاضل ، والقاضي العادل ، ويعتبر ايضا مفخرة أمته ووطنه ، وزين عشيرته ، ثم هو فوق هذا وذاك عالم من علماء الاسلام كبير ، وشيخ من شيوخ العلم المغاربة جليل ، وجهبذ من جهابذة المحدثين في اختيار المغاربة والمشارقة على السواء ، وفطحل من فطاحل السنة النبوية ، وهو في الفقه علم من اعلام المالكية المشار اليهم بالبنان ، وهو لغوي ، طبيع وأديب اقتدر ان يحتل البراعة في النظم والنثر ، وأن يأخذ بحظ وافر من الاجادة فيهما معا .

وعياض بفضله وسعة علمه جدير بأن تكتب سيرته ، وتدون أخباره ، ويحرر به تعريفا يشيد بفضله وينوه بجلالته .

وبعد ، فنيا تمري أصيل ، وأبناء المغاربة الفضلاء مازالت طموحة مخطوطة طي الكتمان في الكتب المخطوطة لم يكشف عنها كما كشف عن كثير من سواها من الشخصيات النادرة التي قدمت للفكر الاسلامي والعربي كثيرا من نبات العقل المفكر الواعي في ابانها ، وبقيت ماخرة العصور كشف عن اكثرها الاحباب قبلنا ، فلو لم يكشف عن ابن خلدون في المغرب مثلا لبقي مجهولا من أكثر العرب .

وبما ان عياض بهذه المثابة الفذة اخترته أن يكون موضوع رسالتي هذه التي اتقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا الاسلامية . ولأن الذين كتبوا عنه لم يوفوه حقه ، ويعطوه نصيبه أردت – بحول الله – ان اجمع – في رسالتي هذه ، ما تفرق في الدراسات السابقة التي كتبت في عياض ، وأذكر ما سكت عنه بعضهم خوفا من أن يجر نفسه الى ما لا تحمد عقباه ، وأحقق ما وهم فيه بعض المؤرخين حيث ذكروا ما لا يحول عليه كتاريخ وفاته وأسبابه بغير سند ، وبأنني ما أوتيت حقه ، وأبلغ من الابداع غايته ، انما يكفي ان اسهم بنصيب في تحقيق هذه الشخصية المغربية وأكشف النقاب عن الدور الذي اضطلعت به في تاريخ الحضارة الفكرية والله اسأل أن يوفقني الى ما فيه الصواب انه سميع مجيب الدعوات

ولقد قرأت الكتب التي تعين على ذلك قراءة امعان وتأمل .

وفي مقدمتها : الكتاب الذي ألفه أبو عبد الله محمد في التعريف بأبيه القاضي عياض ، والذي حققه الدكتور محمد بن شريفة ، وانتهيت منه الى أنه مجموعة لسرد اخبار تاريخية وفضائل مرضية وأحاديث جديدة ، ويطلع مهمة ولا تطفي ظمأ المتعطش الى الاطلاع على أحوال الرجال الذين ذاع لهم صيت في التاريخ مثل القاضي عياض جاء في التعريف مايلي : (1)

((... سألني ان اعرفه ببعض اخبار أبي – رحمه الله – يعني أباه عياضا – ولم يعهدني غرضه من ذلك فأقصد اليه ، فبادرت اجلالا لقدره ، والتزاما لسره الى جمع فضائل اقتضيتها ، وفصول انتخبتها وأحاديث انتقيتها وأسندتها ، وطرحت ما انتهجتها ... وأوردتها جهدي ، والله المستعان ...))

ويلاحظ على صاحب الكتاب مايلي :

أ – لم يستقص فيه مؤلفات ابيه ، ولم يعطنا نظرة – ولو اجمالية – عن قيمتها – مع سكوته سكوتا تاما عن كتابه : جامع التاريخ – الذي لا يمكن أن يظل سرا مكتوما وأمرا خفيا عليه ، ولم يشر – ولو اشارة خفيفة الى بعض آراء أبيه ، التي تدل على أن لعياض قدما راسخة في الحديث وعلومه ، والفقه وأصوله .

ب – لم يذكر لنا المؤلف في كتابه التعريف موقف أبيه من الموحدين وثورته الحربية ضدهم المرة تلو الأخرى ، ولم يتكلم عن عزيمة والده بشادلة ، التي روى له غير واحد شعره فيها وهو يبكي حظه ، ويندب سعده في آخر حياته .

جـ – لم يكشف لنا الغموض عن موت أبيه والذي حارت فيه أقوال المؤرخين وذهب فيه كل واحد منهم مذاهب شتى ، بل كل ما قال : أن أباه القاضي عياضا كان محل حفاوة وتقدير من قبل امراء الموحدين ، حتى مات موتة طبيعية .

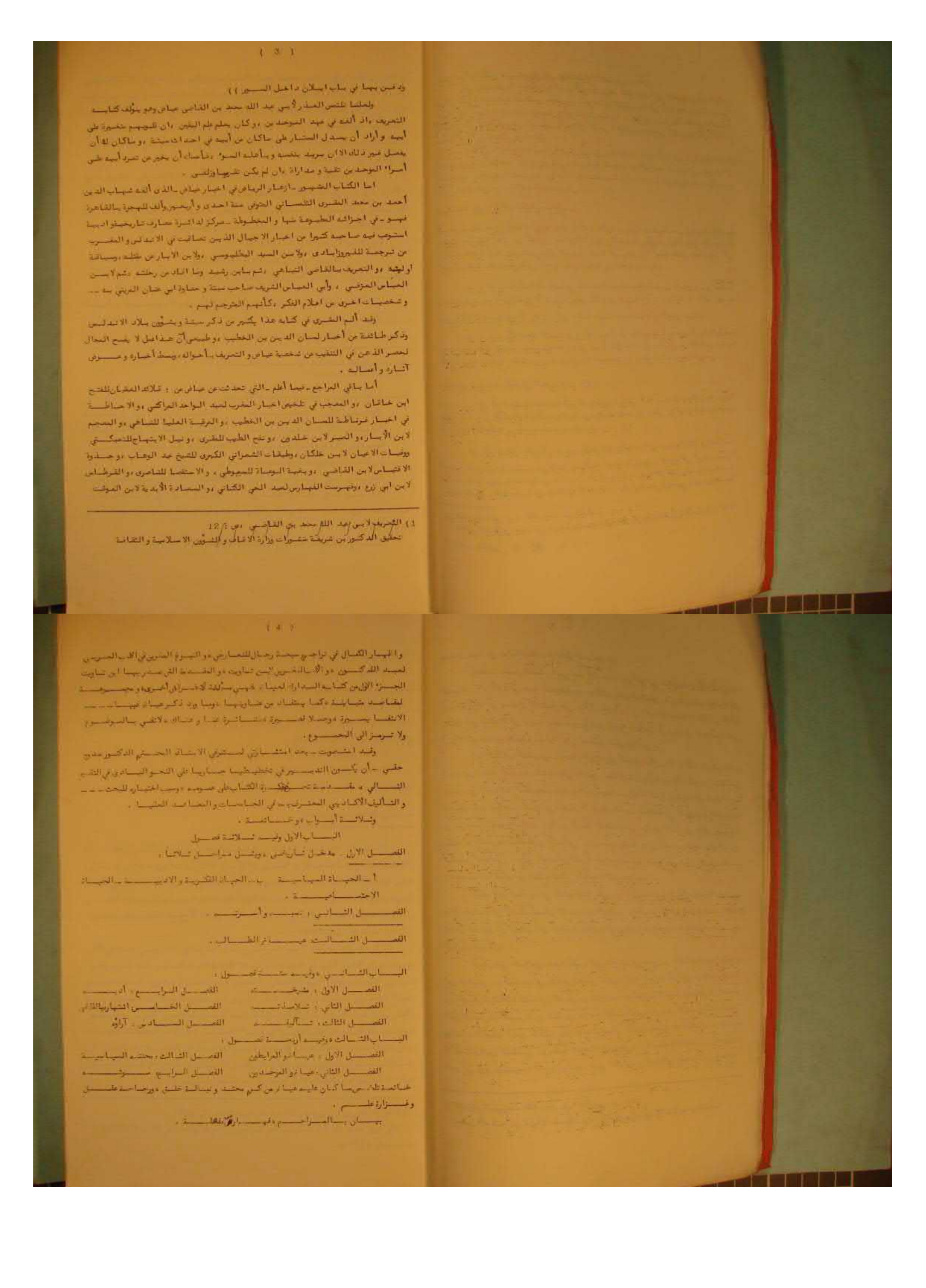
يقول ابو عبد الله في التعريف : (2)

((... الى أن اجتمع بسيدنا أمير المؤمنين – يعني أباه عياضا – وكان منه – رحمة الله عليه – من الكلام المنظوم والمنثور ما استعطفه به ، حتى رق له وعفا عنه على اسرته وأجله ، وأمره بلزوم مجلسه ...))

الى أن قال : الى أن خرج – أدام الله تأييده – الى غزو دكالة وخرج – ... صحبته فمرض بعد مسير مرحلة ، فأذن له في الرجوع ، فرجع الى الحضرة ... أيام بها مريضا نحوا من ... أيام ، ثم مات – عفا الله عنه – ليلة الجمعة – نصف الليل – التاسعة من جمادى الاخرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة

1) التعريف لابي عبد الله محمد بن القاضي ، ص : 2
تحقيق الدكتور محمد بن شريفة منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

2 نفس المصدر ص : 12



وقد دفن بهما في باب ايلان داخل السور))

ولعلنا نلتمس العذر لأبي عبد الله محمد بن القاضي عياض وهو يؤلف كتابه التعريف، اذ ألفه في عهد الموحدين، وكان يعلم علم اليقين، ان للموحدين تحفظات على أبيه وأراد أن يسدل الستار على ما كان من أبيه في احداث سبتة، وما كان له أن يفعل غير ذلك الا ان يريد بنفسه وبأهله السوء، فأساء أن يخبر عن تمرد أبيه على أمراء الموحدين تقية ومداراة، وان لم يكن شيئا ولا نقيصة.

اما الكتاب المشهور - أزهار الرياض في اخبار عياض - الذي ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى سنة احدى وأربعين وألف للهجرة بالقاهرة فهو - في اجزائه المطبوعة منها والمخطوطة - مركز لدائرة معارف تاريخية وادبية استوعب فيه صاحبه كثيرا من اخبار الاجيال الذين تعاقبت في الاندلس والمغرب من ترجمة للفيروزآبادي، ولابن السيد البطليوسي، ولابن الابار من خطه، وسياقة أوليته، والتعريف بالقاضي النباهي، ثم بابن رشيد وما افاد من رحلته، ثم لابن العباس العزفي، وأبي العباس الشريف صاحب سبتة وحفاوة ابي عنان المريني به... وشخصيات اخرى من اعلام الفكر، كأنهم المترجم لهم.

وقد ألم المقري في كتابه هذا بكثير من ذكر سبتة وبشؤون بلاد الاندلس وذكر طائفة من أخبار لسان الدين بن الخطيب، وطبيعي أن هذا فعل لا يسمح المجال لحصر الذهن في التنقيب عن شخصية عياض والتعريف بأحواله، وبسط أخباره وعرض آثاره وأعماله.

أما باقي المراجع - فيما أعلم - التي تحدثت عن عياض فمن: قلائد العقيان للفتح ابن خاقان، والمعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، والاحاطة في اخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، والمرقبة العليا للنباهي، والمعجم لابن الأبار، والعبر لابن خلدون، ونفح الطيب للمقري، ونيل الابتهاج للتنبكتي، ووفيات الاعيان لابن خلكان، وطبقات الشعراني الكبرى للشيخ عبد الوهاب، وجذوة الاقتباس لابن القاضي، وبغية الوعاة للسيوطي، والاستقصا للناصري، والقرطاس لابن ابي زرع، وفهرست الفهارس لعبد الحي الكتاني، والسعادة الأبدية لابن الموقت

1) التعريف لابن عبد الله محمد بن القاضي، ص: 12/1
تحقيق الدكتور بن شريفة منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

والمنهال الكمال في تراجم سبعة رجال للمعارجي، والنبوغ المغربي في الادب العربي لعبد الله كنون، والاستقصاء لابن تاويت، والمقدمة التي صدر بها ابن تاويت الجزء الاول من كتابه المدارك لعياض، فهي مؤلفة لأغراض أخرى، ومجموعة لمقاصد متباينة، كما يستفاد من عناوينها، وما ورد ذكر عياض فيها الا التفاتا يسيرة، وحصلا لعبرة عابرة هنا وهناك، لا تفي بالموضوع ولا ترمز الى المجموع.

وقد استصوبت - بعد استشاراتي لمشرفي الاستاذ المحترم الدكتور عدنان حقي - أن يكون التدبير في تخطيطها جاريا على النحو البادي في التقسيم التالي: مقدمة تمهيدية لفكرة الكتاب على عمومه، وسبب اختياره للبحث والتأليف الاكاديمي المعترف به في الجامعات والمعاهد العليا.

وثلاثة أبواب، وخاتمة.

الباب الاول وفيه ثلاثة فصول

الفصل الاول: مدخل تاريخي، ويشمل مراحل ثلاثا:

أ - الحياة السياسية ب - الحياة الفكرية والادبية - الحياة الاجتماعية.

الفصل الثاني: نسبه وأسرته.

الفصل الثالث: عياض الطالب.

الباب الثاني، وفيه ستة فصول:

الفصل الاول: شيوخه	الفصل الرابع: أدبه
الفصل الثاني: تلاميذه	الفصل الخامس: اشتهاره بالقضاء
الفصل الثالث: تآليفه	الفصل السادس: آراؤه

الباب الثالث، وفيه أربعة فصول:

الفصل الاول: عياض والمرابطون	الفصل الثالث: محنته السياسية
الفصل الثاني: عياض والموحدون	الفصل الرابع: موته

خاتمة تلخص ما كان عليه عياض من كرم محتد ونبالة خلق، ورجاحة عقل وغزارة علم.

بيان بالمراجع، وفهارس عامة.

الفصل الاول : مدخل تاريخي ، ويشمل :

أ) الحياة السياسية ... منتصف القرن الخامس الهجري الزمن الحافل بعظائم الحوادث وجلائل الاعمال ، كان مسرحها المغرب والاندلس

1) ففي الصحراء والى حدود السودان ، وحتى نهر النيجر فتن لا تنطفىء وثورات وحروب ، ودول تسقط ، وأخرى تقوم ... ومتزعمون وطامحون ... وطامحون من كل نوع .

2) شعوب المغرب الاوسط تتطلع للتحرر من كل تسلط غريب .

3) اما بلاد الاندلس فقد تجزأت - بعد سقوط الدولة الاموية - واستبد كل زعيم ببلد وهو عهد ملوك الطوائف .

في الصحراء :

بقيت بلاد الصحراء تتخبط في ديجور مطبق من التأخر والجهالة والفساد ردحا طويلا من الزمن ، لا يفرق الناس بين حلال وحرام حتى قيض الله لهم قدوم عبد الله بن ياسين الزعيم الديني الذي قضى في تلك الربوع احدى وعشرين سنة كلها جهاد ، وتربية وتطهير من الظلم والفساد ، وبعد استشهاده في احدى معارك بلاد تامسنا احدى وخمسين واربعمائة هجرية (1)

تولى القيادة بعده الامير ابو بكر بن عمر الصنهاجي اللمتوني فسار في الناس سيرته ، واقتفى أثره في الجهاد واعلاء كلمة الله ، لكنه لم يكد يتربع على كرسي الامارة حتى أتته الاخبار باختلال امر الصحراء ، وخروج البداة عن جادة الطريق ، شأنهم في ذلك شأن الذين لم يتمكن الاسلام من قلوبهم وكان يومئذ بأغمات . وكان لزاما عليه أن يتأهب للخروج اليهم ، ويجيش الجيوش لقتالهم ، واعادتهم الى سواء السبيل ، واستخلف مكانه يوسف ابن تاشفين ، وقصد بر جزولة ، ثم تغلغل في الصحراء مجاهدا حتى بلغ النيجر ومالي ، وهو يعمل على نشر الاسلام في تلك القبائل السود حتى اذعنوا له بالطاعة ، واسلموا اسلاما جديدا (2)

---

1) انظر القرطاس بن ابي زرع ص 133 - ط الرباط عام 1972م

2) انظر تاريخ محمد عبد الله عنان من عصر المرابطين والموحدين ج 1 ص 38 - ط 1 القاهرة عام 1383 هـ .

في المغرب الأوسط

لما عزم الامير أبو بكر على السير الى الصحراء - كما قدمنا - عقد لابن عمه يوسف ابن تاشفين على المغرب ، وفوض اليه أمره ، وأمره بقتال من به من مغراوة وبني يفرن وزناتة ، بعد اتفاق أشياخ المرابطين على تقديمه لما يعلمونه من فضله ودينه ، وشجاعته ، وحزمه ، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية (1) فنهض الرجل العظيم بالمهمة ، كما ينبغي لامثاله وقصد بعساكره مغراوة ، وبها يومئذ الأمير العباس بن بخت من ولد يعلى بن محمد ، فدوخ المغرب الاوسط وانتهى الى بلاد زناتة ، فقبض على يعلى بن الامير العباس فقتله ، وفي هذا الصدد يقول العلامة بن خلدون (2)

ثم نهض يوسف بن تاشفين الى الريف ، وافتتح كرسيف ومليلة ، وسائر بلاد الريف وخرب مدينة نكور ، ثم نهض في عساكر المرابطين الى المغرب الاوسط فافتتح مدينة وجدة ، وبلاد بني يزناسن ، ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة ، وقتل العباس بن بخت أمير تلمسان ، وانزل محمد بن تينعمر المستوفي بها في عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا لملكه ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته ثم افتتح مدينة تنس (3) ووهران وجبل وانشريس الى الجزائر))

في بلاد الاندلس

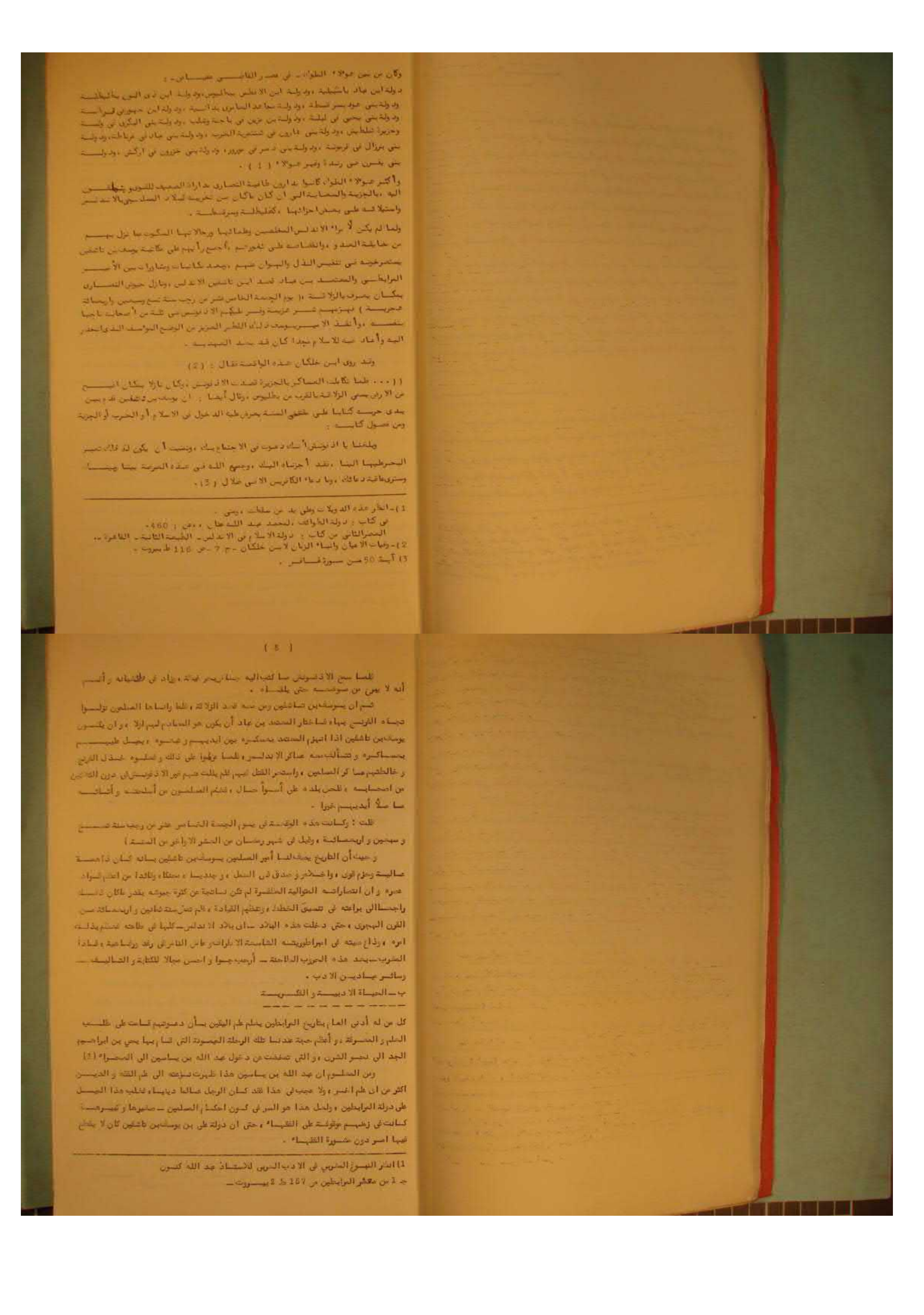
اصبحت بلاد الاندلس - بعد سقوط الدولة الاموية - خاضعة لملوك الطوائف الذين تنازعوا النفوذ فيما بينهم غافلين أو متغافلين عما يحاك ضدهم من قبل عدوهم ، ولكي ندرك مقدار ما بلغ التمزق السياسي في الاندلس نذكر أن هؤلاء الملوك الكثر كان كل منهم يحارب اخاه في الدين ، ويستنجد المغلوب بأعداء دينه النصارى على أهله وعشيرته ، وبني عمه .

---

1) القرطاس لابن ابي زرع ص 134 - ط الرباط عام 1972

2) تاريخ ابن خلدون - القسم الاول المجلد 6 - ص 381 ط لبنان .

3) تنس بفتحتين والتخفيف والسين المهملة ، قال ابو عبيد البكري : بين تنس والبحر ميلان ، وهي اخر افريقية مما يلي المغرب بينها وبين وهران ثمانية مراحل ا هـ من معجم البلدان لياقوت الحموي ج 2 - ص 414 ط السعادة بمصر .



وكان من بين هؤلاء الطوائف في عصر القاضي عياض :

دولة ابن عباد باشبيلية ، ودولة ابن الافطس ببطليوس ، ودولة ابن ذي النون بطليطلة ودولة بني هود بسرقسطة ، ودولة مجاهد العامري بدانية ، ودولة ابن جهور بقرطبة ودولة بني يحيى في لبلة ، ودولة بن مزين في باجة وشلب ، ودولة بني البكري في ولبة وجزيرة شلطيش ، ودولة بني غاروب في شنتمرية الغرب ، ودولة بني عباد في غرناطة ، ودولة بني برزال في قرمونة ، ودولة بني دمر في مورور ، ودولة بني خزرون في اركش ، ودولة بني يفرن في رندة وغير هؤلاء (1) .

وأكثر هؤلاء الملوك كانوا يداورون طاغية النصارى بدارة الضعيف للقوي ويتملقون اليه ، بالجزية والمصانعة الى ان كان ماكان من تخريبه لبلاد المسلمين بالاندلس واستيلائه على بعض أجزائها ، كطليطلة وسرقسطة .

ولما لم يكن لأمراء الاندلس المتخاصمين وطمائفها ورجالاتها السكوت عما نزل بهم من غائلة العدو ، وانقضاضه على ثغورهم ، أجمع رأيهم على مكاتبة يوسف بن تاشفين يستصرخونه في تنفيس الذل والهوان عنهم ، وبعد مكاتبات ومشاورات بين الأمير المرابطي والمعتمد بن عباد قصد ابن تاشفين الاندلس ، ونازل جيوش النصارى بمكان يعرف بالزلاقة ((يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين واربعمائة هجرية)) فهزمهم شر هزيمة ونصر عليهم الاذفونش في ثلة من أصحابه ناجيا بنفسه ، وأنقذ الامير يوسف بذلك القطر العزيز من الوضع المؤسف الذي انحدر اليه وأعاد به للاسلام مجدا كان قد بدد التهديد .

وقد روى ابن خلكان هذه الواقعة فقال : (2)

((. . . فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الاذفونش ، وكان نازلا بمكان اسمه من الارض يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس ، وقال أيضا : ان يوسف بن تاشفين قد وصل بين يدي حربه كتابا على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الاسلام أو الحرب أو الجزية ومن فصول كتابه :

بلغنا يا اذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك ، وتمنيت أن يكون لك فلك تعبر البحر عليها الينا ، فقد أجزناه اليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال (3) .

---

1)- انظر هذه الدويلات وغيرها من صفحات ، وبعض .
في كتاب : دولة الطوائف ، لمحمد عبد الله عنان ، ص : 460 .
العصر الثاني من كتاب : دولة الاسلام في الاندلس - الطبعة الثانية - القاهرة .
2)- وفيات الاعيان وانباء الزمان لابن خلكان - ج 7 - ص 116 ط بيروت .
3) آية 50 من سورة غافر .

فلما سمع الاذفونش ما كتب اليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه .

ثم ان يوسف بن تاشفين ومن معه قصد الزلاقة ، فلما راءاها المسلمون تولوا تجاه الفرنج بهاء فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو الصادم لهم اولا ، وان يكون يوسف بن تاشفين اذا انهزم المعتمد بعسكره بين ايديهم وتبعوه ، يحمل عليهم بعساكره وتتألف معه عساكر الاندلس ، فلما وقفوا على ذلك واقتلوه قتال الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين ، واستحر القتل فيهم فلم يفلت منهم غير الاذفونش في دون الثلاثين من اصحابه ، فلحق ببلده على أسوأ حال ، وغنم المسلمون من أسلحتهم وأمتعتهم ما ملأ أيديهم خيرا .

قلت : وكانت هذه الوقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وقيل في شهر رمضان من العشر الاواخر من السنة)

وحيث أن التاريخ يصف لنا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بأنه كان ذا همة عالية وحزم قوي ، واختبار وحذق في العمل ، وجديا ، محنكا ، وقائدا من اعظم قواد عصره وان انتصاراته المتوالية الظافرة لم تكن ناتجة عن كثرة جيوشه بقدر ما كان ذلك راجعا الى براعته في تنسيق الخطط ، وتنظيم القيادة ، فلم تمض سنة ثمانين واربعمائة من القرن الهجري ، حتى دخلت هذه البلاد - اي بلاد الاندلس - كلها في طاعته تحت يده امره ، وذاع صيته في امبراطوريته الشاسعة الاطراف وعاش الناس في رغد ورفاهية ، فبات الشعب بعد هذه الحروب الطاحنة - أرحب جوا واحسن مجالا للكتابة والتأليف - وسائر ميادين الادب .

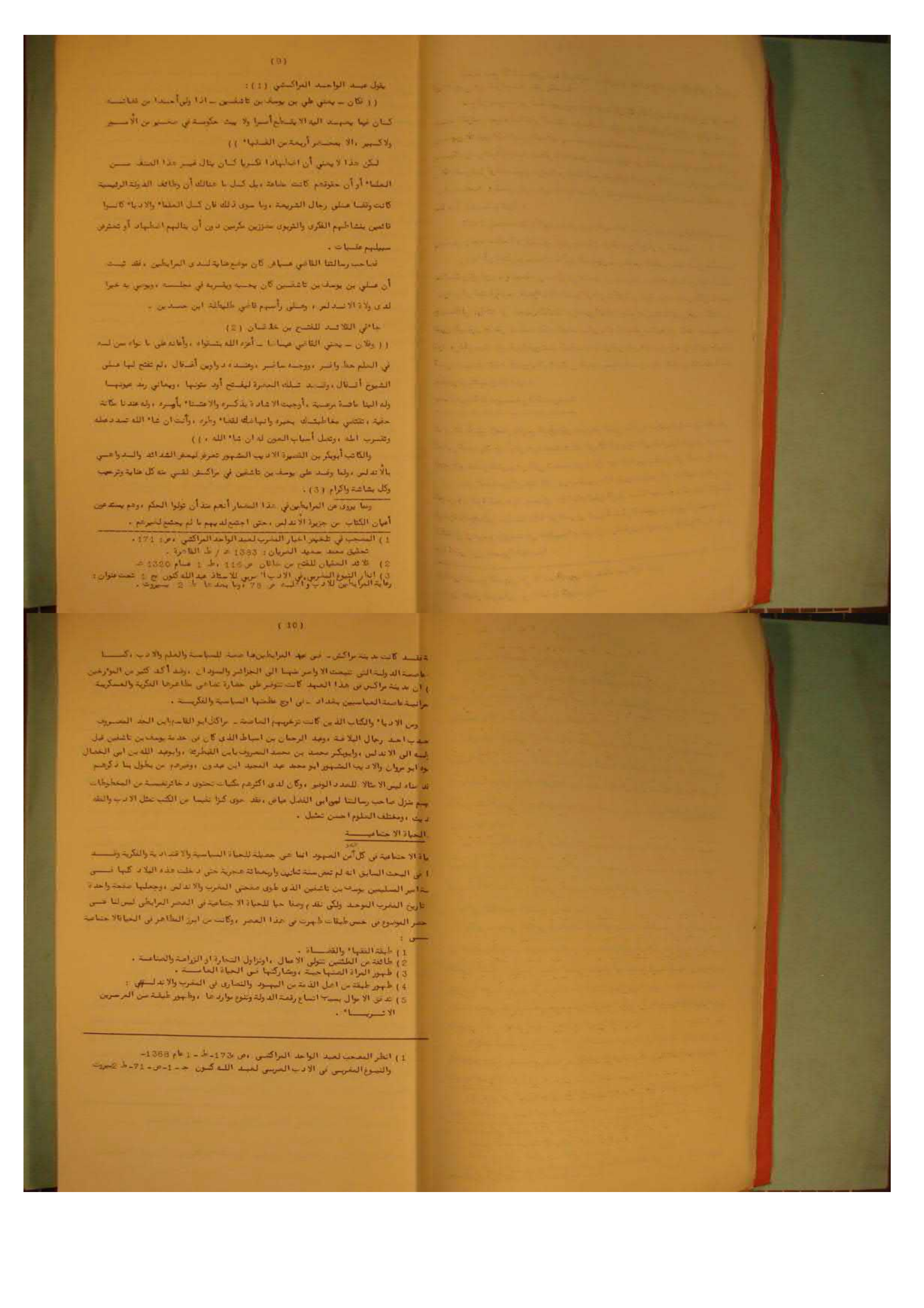
ب - الحياة الادبية والفكرية

كل من له أدنى المام بتاريخ المرابطين يعلم علم اليقين بأن دعوتهم قامت على طلب العلم والمعرفة ، وأعظم حجة عندنا تلك الرحلة المحمودة التي قام بها يحي بن ابراهيم الجدالي نحو الشرق ، والتي تمخضت عن دخول عبد الله بن ياسين الى الصحراء (1)

ومن المعلوم ان عبد الله بن ياسين هذا ظهرت نزعته الى علم الفقه والدين اكثر من الى علم آخر ، ولا عجب في هذا فقد كان الرجل عالما دينيا ، فغلب هذا الميل على دولة المرابطين ، ولعل هذا هو السر في كون احكام المسلمين - صغيرها وكبيرها - كانت في زمنهم موقوفة على الفقهاء ، حتى ان دولة علي بن يوسف بن تاشفين كان لا يقطع فيها امر دون مشورة الفقهاء .

---

1) انظر النبوغ المغربي في الادب العربي للاستاذ عبد الله كنون
ج 1 من معشر المرابطين ص 167 ط 2 بيروت .



يقول عبد الواحد المراكشي (1) :

((فكان ـ يعني علي بن يوسف بن تاشفين ـ اذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد اليه الا يقطع أمرا ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير ، الا بمحضر أربعة من الفقهاء))

لكن هذا لا يعني أن اضطهادا فكريا كان ينال غير هذا الصنف من العلماء أو أن حقوقهم كانت ضائعة بل كل ما هنالك أن وظائف الدولة الرئيسية كانت وقفا على رجال الشريعة ، وما سوى ذلك فان كل العلماء والادباء كانوا ناعمين بنشاطهم الفكري والتربوي محترمين مكرمين دون أن ينالهم اضطهاد أو تعترض سبيلهم عقبات .

فصاحب رسالتنا القاضي عياض كان موضع عناية لدى المرابطين ، فقد ثبت أن علي بن يوسف بن تاشفين كان يحبه ويقربه في مجلسه ، ويوصي به خيرا لدى ولاة الاندلس ، وعلى رأسهم قاضي طليطلة ابن حمدين .

جاء في القلائد للفتح بن خاقان (2)

((وفلان ـ يعني القاضي عياضا ـ أعزه الله بتقواه ، وأعانه على ما نواه من له في العلم حظ وافر ، ووجه سافر ، وعنده دواوين أقفال ، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال ، وقد شد تلك الحضرة ليفتح أود متونها ، ويجاني رند عيونها وله اليها ماتة مرعية ، أوجبت الاشادة بذكره والاعتناء بأمره ، وله عندنا مكانة حفية ، تقتضي مخاطبتك بخبره وانهاضك لقضاء وطره ، وأنت ان شاء الله تسد دخلته وتقرب امله ، وتصل أسباب العون له ان شاء الله .))

والكاتب أبوبكر بن القصيرة الاديب الشهير تعرض لبعض الشدائد والدواهي بالأندلس ، ولما وفد على يوسف بن تاشفين في مراكش لقي منه كل عناية وترحيب وكل بشاشة واكرام (3) .

ومما يروى عن المرابطين في هذا المضمار أنهم منذ أن تولوا الحكم ، وهم يستدعون أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، حتى اجتمع لديهم ما لم يجتمع لغيرهم .

1) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ، ص : 171 . تحقيق محمد سعيد العريان : 1383 هـ / ط القاهرة .

2) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 115 ، ط 1 عام 1320 هـ

3) انظر النبوغ المغربي في الادب العربي للاستاذ عبد الله كنون ج 1 تحت عنوان : رعاية المرابطين للادب والأدباء ص 75 وما بعدها ط 2 بيروت .

لقد كانت مدينة مراكش ـ في عهد المرابطين هاصمة للسياسة والعلم والادب ، كما [illegible] عاصمة الدولة التي امتدت الاواصر منها الى الجزائر والسودان ، وقد أكد كثير من المؤرخين أن مدينة مراكش في هذا العهد كانت تتوفر على حضارة تضاهي مظاهرها الفكرية والعسكرية [illegible] عاصمة العباسيين ببغداد ـ في اوج عظمتها السياسية والفكرية .

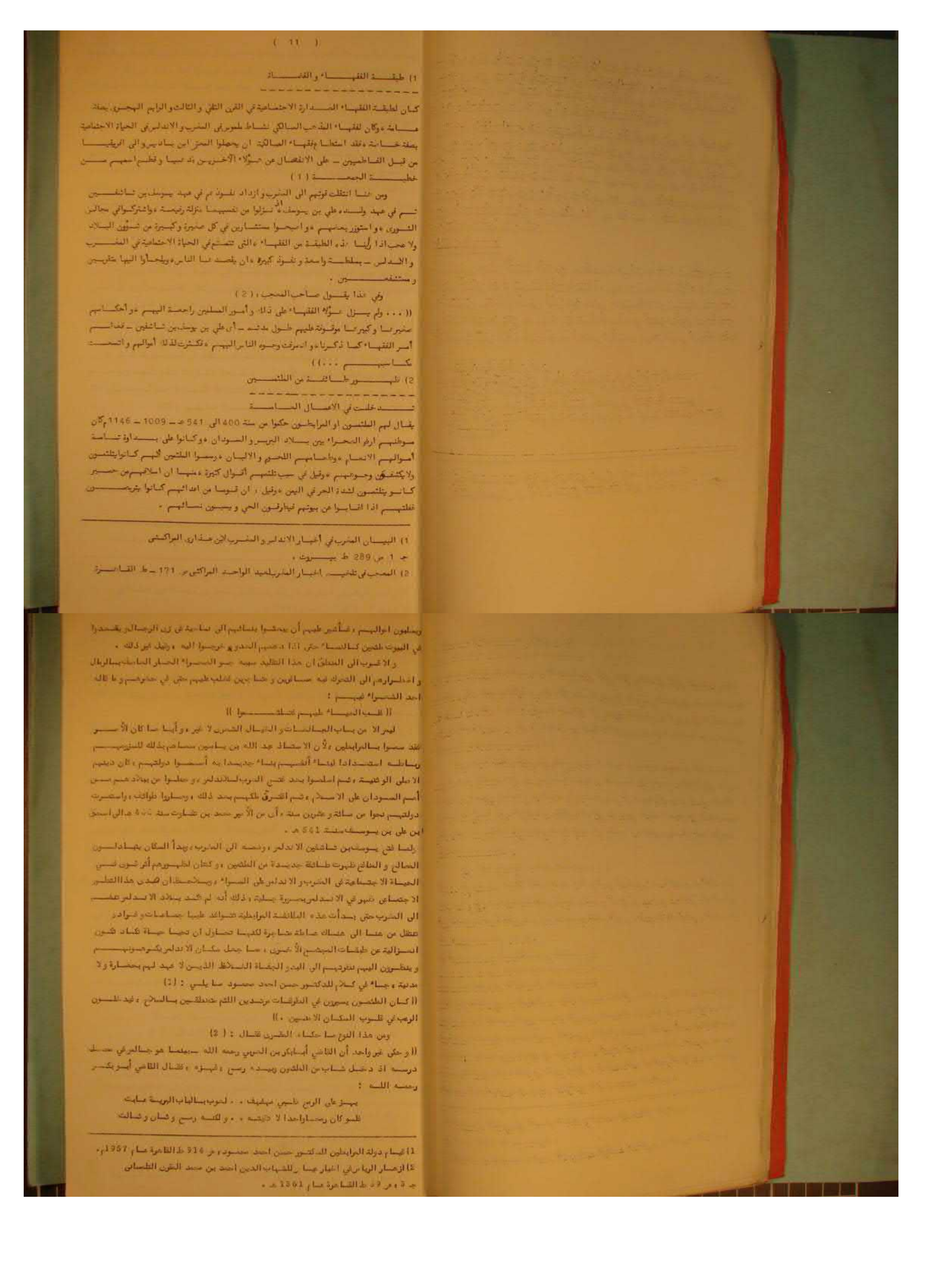
ومن الادباء والكتاب الذين كانت تزخر بهم العاصمة ـ مراكش ابو القاسم ابن الجد المعروف صاحب احد رجال البلاغة ، وعبد الرحمان بن اسباط الذي كان في خدمة يوسف بن تاشفين قبل [illegible] الى الاندلس ، وابوبكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وابوعبد الله بن ابي الخصال [illegible] ابو مروان والاديب الشهير ابو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، وغيرهم ممن يطول بنا ذكرهم [illegible] ليس الا مثالا للعدد الوفير ، وكان لدى اكثرهم مكتبات تحتوي ذخائر نفيسة من المخطوطات [illegible] منزل صاحب رسالتنا ابي الفضل عياض ، فقد حوى كنزا نفيسا من الكتب مثل الادب والفقه [illegible] ، ومختلف العلوم احسن تمثيل .

الحياة الاجتماعيـــة

[illegible] الاجتماعية في كل أمن العصور انما هي حصيلة للحياة السياسية والاقتصادية والفكرية وقد [illegible] في البحث السابق انه لم تمض سنة ثمانين واربعمائة هجرية حتى دخلت هذه البلاد كلها في [illegible] امير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي طوى صفحتي المغرب والاندلس ، وجعلها صفحة واحدة [illegible] تاريخ المغرب الموحد ولكي نقدم وصفا حيا للحياة الاجتماعية في العصر المرابطي ليس لنا [illegible] حصر الموضوع في خمس طبقات ظهرت في هذا العصر ، وكانت من ابرز المظاهر في الحياة الاجتماعية [illegible] :

1) طبقة الفقهاء والقضـاة .
2) طائفة من الملثمين تتولى الاعمال ، وتزاول التجارة او الزراعة والصناعة .
3) ظهور المراة الصنهاجية ، ومشاركتها في الحياة العامـة .
4) ظهور طبقة من اهل الذمة من اليهود والنصارى في المغرب والاندلس :
5) تدفق الاموال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها ، وظهور طبقة من المترفين الاثريـاء .

1) انظر المعجب لعبد الواحد المراكشي ، ص 173 - ط 1 عام 1368 - والنبوغ المغربي في الادب العربي لعبد الله كنون ج - 1 - ص - 71 - ط 2 بيروت



١) طبقة الفقهاء والقضاة

كان لطبقة الفقهاء الصدارة الاجتماعية في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري بصفة عامة، وكان لفقهاء المذهب المالكي نشاط ملموس في المغرب والاندلس في الحياة الاجتماعية بصفة خاصة، فقد استطاع فقهاء المالكية ان يحملوا المعز ابن باديس والي افريقيا من قبل الفاطميين – على الانفصال عن هؤلاء الآخرين بدعيا وقطع اسمهم من خطبة الجمعة (١)

ومن هنا انتقلت قوتهم الى المغرب وازداد نفوذهم في عهد يوسف بن تاشفين ثم في عهد ولده علي بن يوسف، اذ نزلوا من نفسيهما منزلة رفيعة، واشتركوا في مجالس الشورى، واستوزر بعضهم، وأصبحوا مستشارين في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاد ولا عجب اذا رأينا هذه الطبقة من الفقهاء، التي تتمتع في الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس – بسلطة واسعة ونفوذ كبير، ان يقصدها الناس، ويلجأوا اليها متظلمين ومستنفعين.

وفي هذا يقول صاحب المعجب: (٢)

((... ولم يزل هؤلاء الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة اليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته – أي علي بن يوسف بن تاشفين – فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس اليهم، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم ...))

٢) ظهور طائفة من الملثمين تدخلت في الاعمال العامة

يقال لهم الملثمون او المرابطون حكموا من سنة 400 الى 541 هـ – 1009 – 1146 م، كان موطنهم ارض الصحراء بين بلاد البربر والسودان، وكانوا على بداوة تامة أموالهم الانعام، وطعامهم اللحوم والالبان، وسموا الملثمين لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، وقيل في سبب تلثمهم أقوال كثيرة، منها ان اسلافهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر في اليمن، وقيل: ان قوما من اعدائهم كانوا يترصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي ويسبون نسائهم.

١) البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي ج ١ ص 289 ط بيروت.

٢) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص 171 – ط القاهرة

ويسلبون اموالهم، فأشير عليهم أن يبعثوا بنسائهم الى ناحية في زي الرجال، ويقعدوا في البيوت متلثمين كالنساء حتى اذا دهمهم العدو خرجوا اليه، وقيل غير ذلك.

والاقرب الى المنطق ان هذا التقليد سببه جو الصحراء الحار الناسف بالرمال واضطرارهم الى التحرك فيه مسافرين وهنا يجبن تغلب عليهم حتى في حلوقهم وما قاله احد الشعراء فيهم:

((غلب الحياء عليهم فتلثموا))

ليس الا من باب المبالغات والخيال الشعري لا غير، وأيا ما كان الأمر فقد سموا بالمرابطين، لأن الاستاذ عبد الله بن ياسين سماهم بذلك للزومهم رباطه استعدادا لبناء أنفسهم بناء جديدا به أسسوا دولتهم، كان دينهم الاصلي الوثنية، ثم اسلموا بعد فتح المغرب والاندلس، وحملوا من بلادهم من أمم السودان على الاسلام، ثم افترق ملكهم بعد ذلك، وصاروا طوائف، واستمرت دولتهم نحوا من مائة وعشرين سنة، أي من الأمير محمد بن تيفلوت سنة ٤٢٠ هـ الى اسحق ابن علي بن يوسف سنة 541 هـ.

ولما فتح يوسف بن تاشفين الاندلس، وضمه الى المغرب، بدأ السكان يتبادلون المصالح والمنافع ظهرت طائفة جديدة من الملثمين، وكان لظهورهم أثر شديد في الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس على السواء، ويلاحظ ان صدى هذا التطور الاجتماعي ظهر في الاندلس بصورة جلية، وذلك أنه لم تكد بلاد الاندلس تضم الى المغرب حتى بدأت هذه الطائفة المرابطية تتوافد عليها جماعات وفرادى تنتقل من هنا الى هناك عاطلة متجبرة لكنها تحاول ان تحيا حياة تكاد تكون انعزالية عن طبقات المجتمع الأخرى، مما جعل سكان الاندلس يكرهونهم وينظرون اليهم بنظرتهم الى البدو الجفاة الغلاظ الذين لا عهد لهم بحضارة ولا مدنية، وجاء في كلام للدكتور حسن احمد محمود ما يلي: (١)

((كان الملثمون يسيرون في الطرقات مرتدين اللثام متمنطقين بالسلاح، فيبعثون الرعب في قلوب السكان الآمنين.))

ومن هذا النوع ما حكاه المقري فقال: (٢)

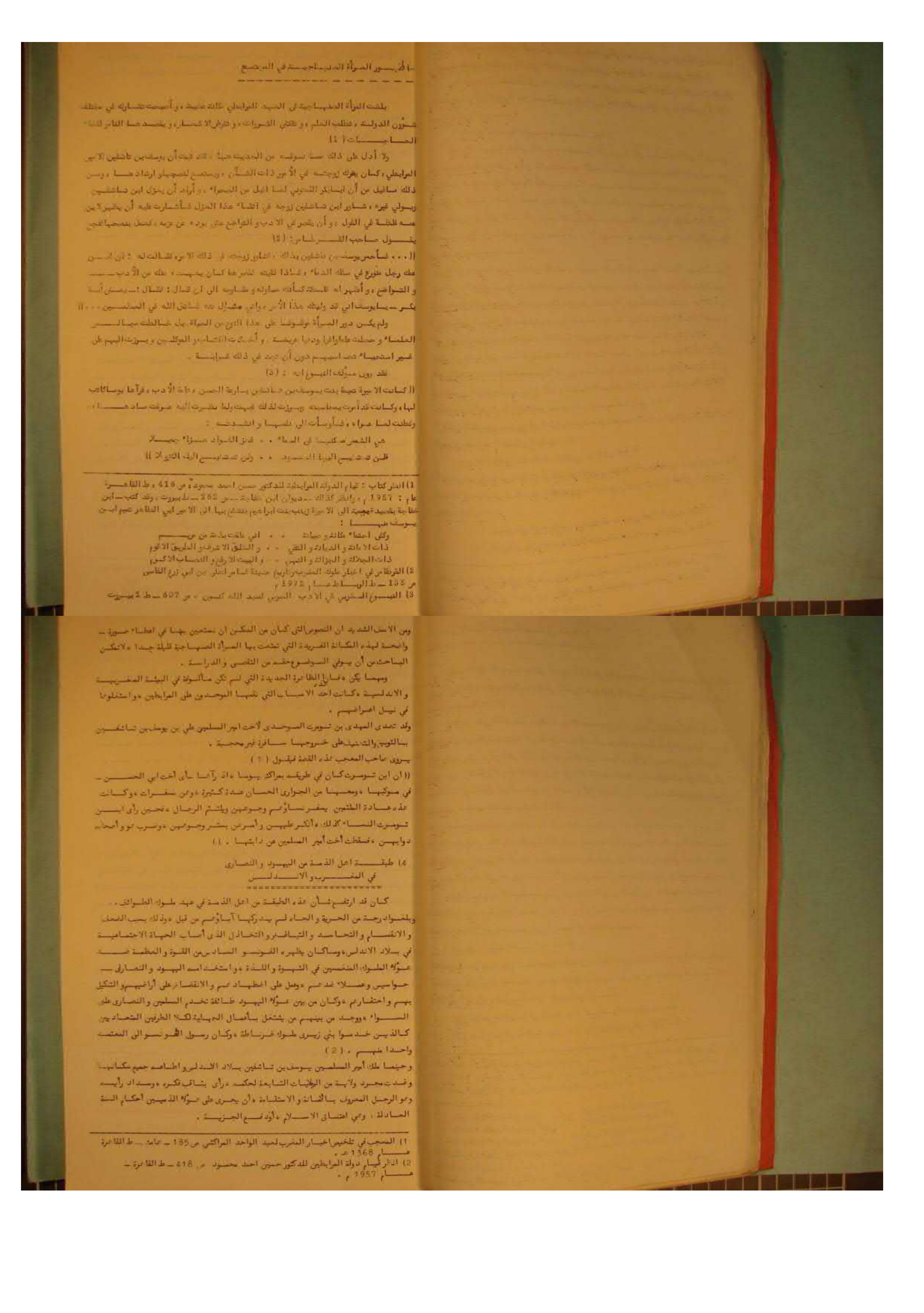
((وحكى غير واحد أن القاضي أبا بكر بن العربي رحمه الله بينما هو جالس في حلقة درسه اذ دخل شاب من الملثمين وبيده رمح، فهزه، فقال القاضي أبو بكر رحمه الله:

يهز على الرمح ظبي مهفهف ... لعوب بألباب البرية عابث

فلو كان رمحا واحدا لاتقيته ... ولكنه رمح وثان وثالث

١) قيام دولة المرابطين للدكتور حسن احمد محمود، ص 914 ط القاهرة عام 1957 م.

٢) ازهار الرياض في اخبار عياض لشهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني ج ٣، ص ٩٩ ط القاهرة عام 1361 هـ.



ظهور المرأة الصنهاجية في المجتمع

بلغت المرأة الصنهاجية في العهد المرابطي مكانة عظيمة، وأصبحت تشاركه في مناقشة شؤون الدولة، فتطلب السلم، وتلقي الشورات، وتقرض الأشعار، ويقصدها الناس لقضاء الحاجات (1)

ولا أدل على ذلك مما سنوقفه من الحديث عنها، فقد ثبت أن يوسف بن تاشفين الأمير المرابطي، كان يشرك زوجته في الأمور ذات الشأن، ويستمع لنصحها وإرشادها، ومن ذلك ما قيل من أن أبا بكر اللمتوني لما أقبل من الصحراء، وأراد أن يحول ابن تاشفين ويولي غيره، شاور ابن تاشفين زوجه في أثناء هذا النزول فأشارت عليه أن يظهر له مع غلظة في القول، وأن يقصر في الأدب والتواضع حتى يرده عن عزمه، فعمل بنصحها فنجح.
يقول صاحب القرطاس: (2)

((... فأحس يوسف بن تاشفين بذلك، فشاور زوجته في ذلك الأمر فقالت له: إن ابن عمك رجل متورع في سفك الدماء، فإذا لقيته فاقصر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع، وأظهر له سطوة كأنك مساويه وشاوره إلى أن قال: فقال: يا أبا بكر يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر، وإني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين ...))

ولم يكن دور المرأة موقوفا على هذا النوع من الحياة، بل خالطت مجالس العلماء، وحصلت علما وافرا وأدبا عريضا، وأخذت الشعراء والمؤلفين يهدون إليهم على غير استحياء من أسمائهم دون أن تجد في ذلك غضاضة.

فقد روى مؤلف النبوغ أنه: (3)

((كانت الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين بارعة الحسن، ذات الأدب، فرآها يوما كاتب لها، وكانت قد أمرت بمعاتبته وبرزت لذلك فبهت ولما نظرت إليه عرفت ما دهاه، وفطنت لما عراه، فأومأت إلى نفسها وأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا))

---

1) انظر كتاب: قيام الدولة المرابطية للدكتور حسن أحمد محمود، ص 416، ط القاهرة عام: 1957 م، وانظر كذلك ديوان ابن خفاجة ص 262 ط بيروت، وقد كتب ابن خفاجة بقصيدة مدحية إلى الأميرة زينب بنت إبراهيم متغزلا بها إلى الأمير أبي الطاهر تميم ابن يوسف منها:

وكفى احتفاء مكانة وصيانة ... أني عقدت به من عيهم
ذات الأمانة والديانة والتقى ... والخلق الأشرف والطريق الأقوم
ذات الجلالة والجزالة والنهى ... والبيت الأرفع والنصاب الأكرم

2) القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لعلي بن أبي زرع الفاسي ص 135 ط الرباط عام 1972 م
3) النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون، ص 607 ط 2 بيروت

ومن الأسف الشديد أن النصوص التي كان من الممكن أن نستعين بها في إعطاء صورة واضحة لهذه المكانة الفريدة التي تمتعت بها المرأة الصنهاجية قليلة جدا، لا تمكن الباحث من أن يوفي الموضوع حقه من التقصي والدراسة.

ومهما يكن، فإن الظاهرة الجديدة التي لم تكن مألوفة في البيئة المغربية والأندلسية، كانت أحد الأسباب التي نقمها الموحدون على المرابطين، واستغلوها في نيل أغراضهم.

وقد تصدى المهدي بن تومرت الموحدي لأخت أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بالتوبيخ والتشنيع على خروجها سافرة غير محتجبة.

يروي صاحب المعجب هذه القصة فيقول (1)

((إن ابن تومرت كان في طريقه بمراكش يوما، إذ رأى أخت أبي الحسن في موكبها، ومعها من الجواري الحسان عدة كثيرة، وهن سافرات، وكانت هذه عادة الملثمين يسفر نساؤهم وجوههن ويلتثم الرجال، فحين رأى ابن تومرت النساء كذلك، أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن، وضرب هو وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها.))

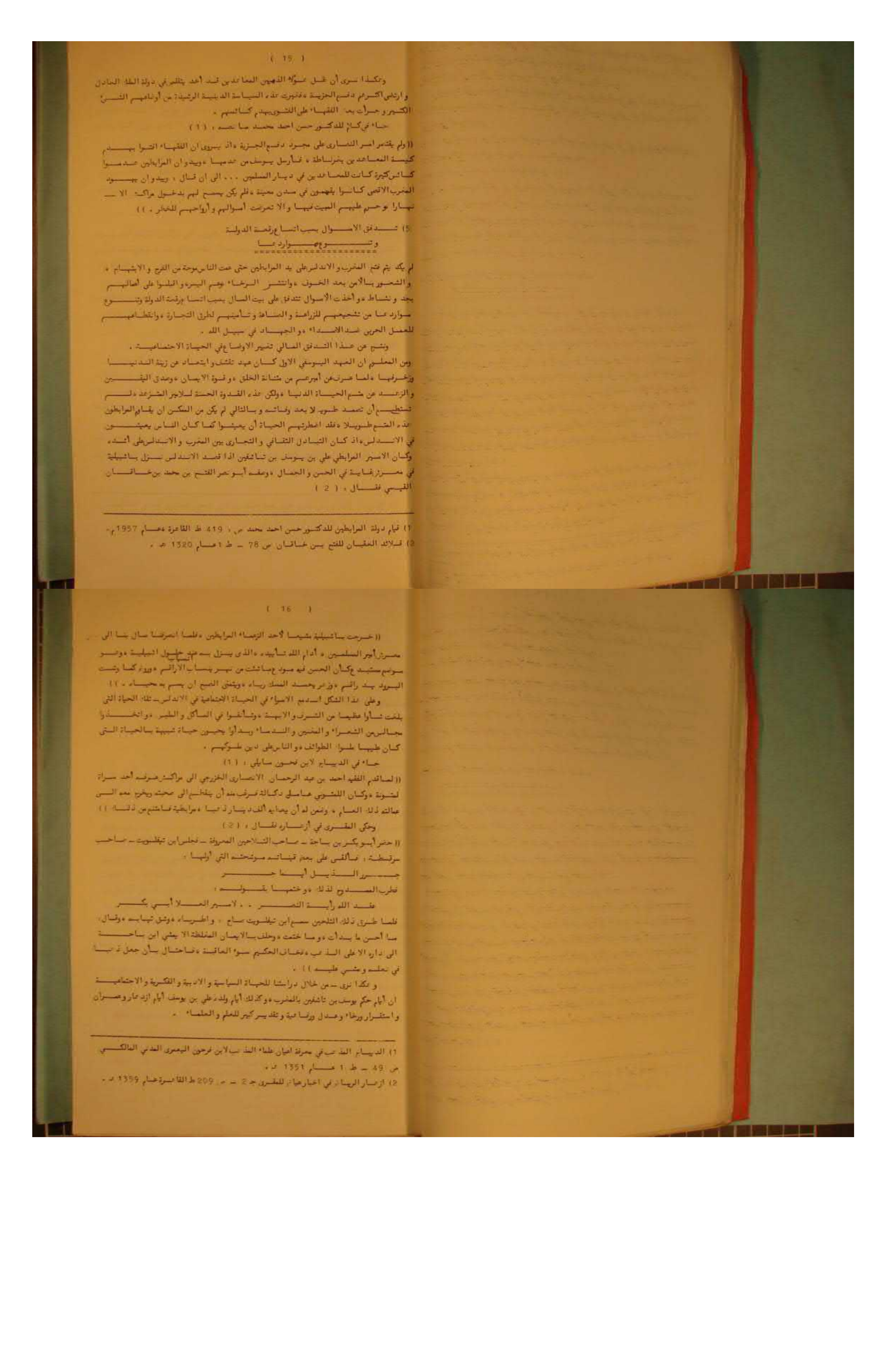
4) طبقة أهل الذمة من اليهود والنصارى في المغرب والأندلس

كان قد ارتفع شأن هذه الطبقة من أهل الذمة في عهد ملوك الطوائف، وبلغوا درجة من الحرية والجاه لم يدركها آباؤهم من قبل، وذلك بسبب الضعف والانقسام والتحاسد والتباغض والتخاذل الذي أصاب الحياة الاجتماعية في بلاد الأندلس، وما كان يظهره ألفونسو السادس من القوة والعظمة ضد هؤلاء الملوك المنغمسين في الشهوة واللذة، واستخدامه اليهود والنصارى جواسيس وعملاء ضدهم، وعمل على اضطهادهم والانقضاض على أراضيهم والتنكيل بهم واحتقارهم، وكان من بين هؤلاء اليهود طائفة تخدم المسلمين والنصارى على السواء، ووجد من بينهم من يشتغل بأعمال الجاسوسية لكلا الطرفين المتعاديين كالذين خدموا بني زيري ملوك غرناطة، وكان رسول ألفونسو إلى المعتمد واحدا منهم. (2)

وحينما ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس وأطاعه جميع سكانها وغدت مجرد ولاية من الولايات التابعة لحكمه، رأى بثاقب فكره، وسداد رأيه وهو الرجل المعروف بالأصالة والاستقامة، أن يجري على هؤلاء الذميين أحكام السنة العادلة، وهي اعتناق الإسلام، أو دفع الجزية.

---

1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص 185 – عامة – ط القاهرة عام 1368 هـ.
2) انظر قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود ص 418 – ط القاهرة – عام 1957 م.



وهكذا نرى أن فضل هؤلاء الذهبي المعاهدين قد أخذ يظهر في دولة العدل العادل وارتضى أكثرهم دفع الجزية ، فتبرت هذه السياسة الدينية الرشيدة من أوضاعهم الشيء الكثير وجرأت بعض الفقهاء على التشويش بهدم كنائسهم .

جاء في كتاب للدكتور حسن احمد محمود ما نصه : (1)

((ولم يقتصر امر النصارى على مجرد دفع الجزية ، اذ يروى ان الفقهاء افتوا بهدم كنيسة المعاهدين بغرناطة ، فأرسل يوسف من هدمها ، ويبدو ان المرابطين هدموا كنائس كثيرة كانت للمعاهدين في ديار المسلمين ... الى ان قال : ويبدو ان يهود المغرب الاقصى كانوا يقيمون في مدن معينة ، فلم يكن يسمح لهم بدخول مراكش الا نهارا وحرم عليهم المبيت فيها والا تعرضت أموالهم وأرواحهم للخطر .))

5) تدفق الأموال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها

لم يكد يتم فتح المغرب والاندلس على يد المرابطين حتى عمت الناس موجة من الفرح والابتهاج ، والشعور بالامن بعد الخوف ، وانتشر الرخاء وعم اليسر ، واقبلوا على أعمالهم بجد ونشاط ، وأخذت الأموال تتدفق على بيت المال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها من تشجيعهم للزراعة والصناعة وتأمينهم لطرق التجارة ، وانقطاعهم للعمل الحربي ضد الاعداء ، والجهاد في سبيل الله .

ونتج عن هذا التدفق المالي تغير الاوضاع في الحياة الاجتماعية .

ومن المعلوم ان العهد اليوسفي الاول كان عهد تقشف وابتعاد عن زينة الدنيا وزخرفها ، لما عرف عن أميرهم من متانة الخلق ، وقوة الايمان ، وصدق اليقين والزهد عن متع الحياة الدنيا ، ولكن هذه القدوة الحسنة للامير الزاهد لم تستطيع أن تصمد طويلا بعد وفاته وبالتالي لم يكن من الممكن ان يقاوم المرابطون هذا الفتح طويلا ، فقد اضطرتهم الحياة أن يعيشوا كما كان الناس يعيشون في الاندلس ، اذ كان التبادل الثقافي والتجارى بين المغرب والاندلس على أشده ، وكان الامير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين اذا قصد الاندلس نزل باشبيلية في معسكر غاية في الحسن والجمال ، وصفه أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان القيسي فقال : (2)

---

1) قيام دولة المرابطين للدكتور حسن احمد محمد ص : 419 ط القاهرة عام 1957م .
2) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 78 ـ ط 1 عام 1320 هـ .

((خرجت باشبيلية مشيعا لأحد الزعماء المرابطين ، فلما انصرفنا مال بنا الى معسكر أمير المسلمين ، أدام الله تأييده ، الذى ينزل به عند حلول البلدة ، وهو موضع مستبد وكان الحسن فيه مبدوء ومنه من نهر بساتين الأرائك ، ووردا كما وشت البرود بيد رائم ، وزهر يحسد المسك رياه ، ويتمنى الصبح ان يسم به محياه .))

وعلى هذا الشكل اندمج الاسلام في الحياة الاجتماعية في الاندلس ـ تلك الحياة التي بلغت شأوا عظيما من الشرف والابهة ، وتأنقوا في المآكل والملبس ، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين والندماء ، وبدأوا يحيون حياة شبيهة بالحياة التي كان عليها ملوك الطوائف ، والناس على دين ملوكهم .

جاء في الديباج لابن فرحون مايلي : (1)

((لما قدم الفقيه احمد بن عبد الرحمان الانصارى الخزرجي الى مراكش عرف أحد سراة لمتونة ، وكان اللمتوني عاملا ذكاء ، فرغب منه أن ينقطع الى صحبته ويخرج معه الى عمالته ذلك العام ، وضمن له أن يحابيه ألف دينار ذهبا ، مرابطية فامتنع من ذلك .))

وحكى المقرى في أزهاره فقال : (2)

((حضر أبو بكر بن باجة ـ صاحب التلاحين المعروفة ـ مجلس ابن تيفلويت ـ صاحب سرقسطة ، فألقى على بعض قيناته موشحته التي أولها :

جرر الذيل أيما جر
وصل السكر منه بالسكر

وختمها بقوله :

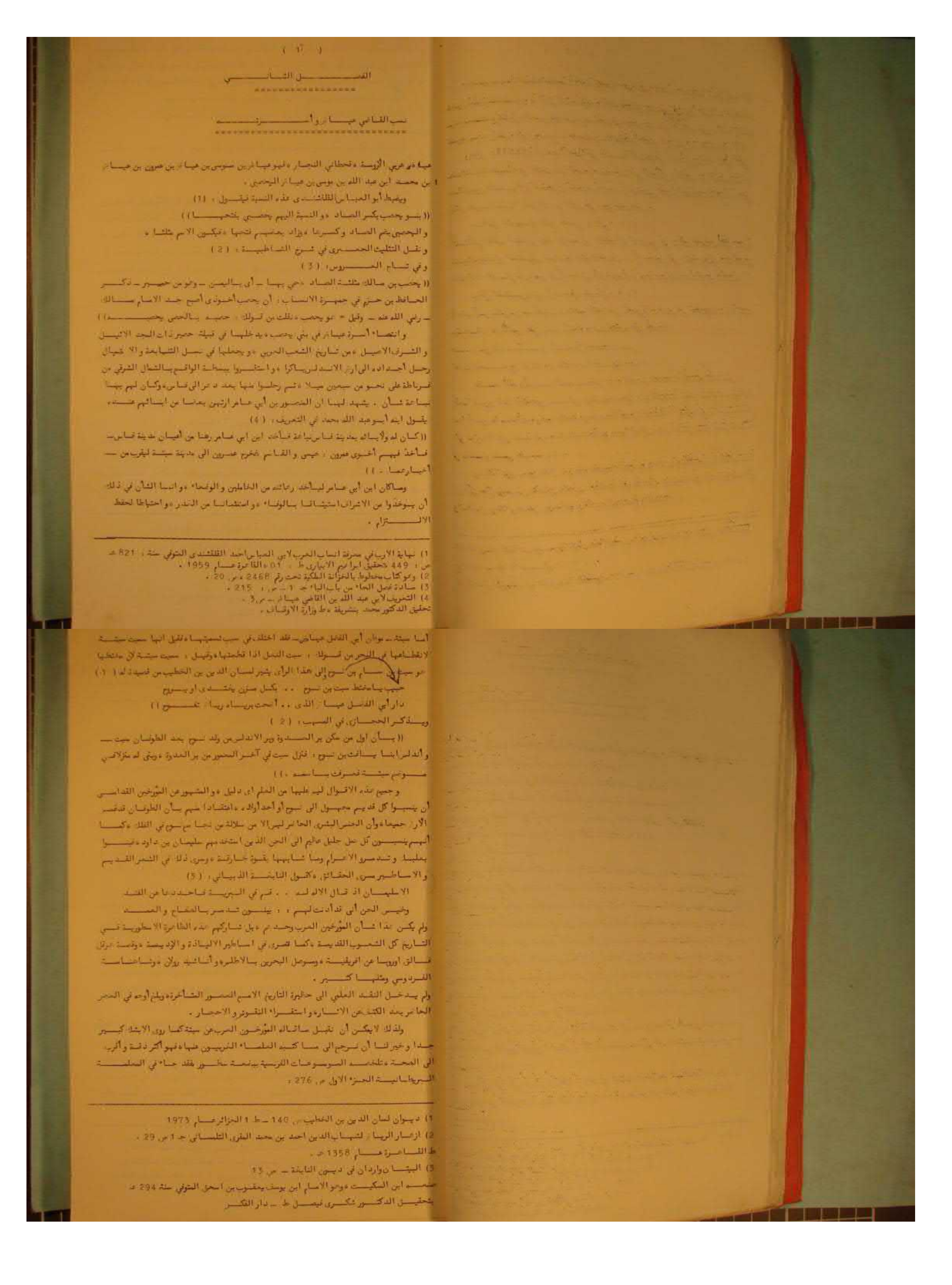
عقد الله راية النصر . لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح : واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت ، وما ختمت ، وحلف بالايمان المغلظة الا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه)) .

وهكذا نرى ـ من خلال دراستنا للحياة السياسية والادبية والفكرية والاجتماعية ان أيام حكم يوسف بن تاشفين بالمغرب ، وكذلك أيام ولده علي بن يوسف أيام ازدهار وعمران واستقرار ورخاء وعدل ورفاهية وتقدير كبير للعلم والعلماء .

---

1) الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب لابن فرحون اليعمرى المدني المالكي ص 49 ـ ط 1 عام 1351 هـ .
2) ازهار الرياض في اخبار عياض للمقرى ج 2 ـ ص 209 ط القاهرة عام 1359 هـ .



الفصل الثاني

نسب القاضي عياض وأسرته

عياض هو عربي الأرومة ، قحطاني النجار ، فهو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن عياض بن محمد ابن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي .

ويضبط أبو العباس القلقشندي هذه النسبة فيقول : (1)

((بنو يحصب بكسر الصاد ، والنسبة اليهم يحصبي بفتحها))

واليحصبي بضم الصاد وكسرها ، وزاد بعضهم فتحها ، فيكون الاسم مثلثا ،

ونقل التثليث الحصري في شرح الشاطبية : (2)

وفي تاج العروس : (3)

((يحصب بن مالك مثلثة الصاد ، حي بها - أي باليمن - وهو من حمير - ذكر الحافظ بن حزم في جمهرة الانساب : أن يحصب أخو ذي أصبح جد الامام مالك - رضي الله عنه - وقيل = هو يحصب ، نقلت من قولك : حصبه بالحصى يحصبه))

وانتماء أسرة عياض في بني يحصب ، يدخلها في قبيلة حمير ذات المجد الاثيل والشرف الاصيل ، من تاريخ الشعب العربي ، ويجعلها في نسل التبابعة والاقيال رحل أجداده الى ارض الاندلس باكرا ، واستقروا ببسطة الواقعة بالشمال الشرقي من غرناطة على نحو من سبعين ميلا ، ثم رحلوا منها بعد ذلك الى فاس ، وكان لهم بها ساعة شأن . يشهد لهذا ان المنصور بن أبي عامر ارتهن بعضا من ابنائهم عنده ، يقول ابنه أبو عبد الله محمد في التعريف : (4)

((كان له ولآبائه بمدينة فاس نباهة فأخذ ابن ابي عامر رهنا من أعيان مدينة فاس - فأخذ فيهم أخوي عمرون : عيسى والقاسم فخرج عمرون الى مدينة سبتة ليقرب من - أخبارهما .))

وماكان ابن أبي عامر ليأخذ رهائنه من الخاملين والوضعاء ، وانما الشأن في ذلك أن يؤخذوا من الاشراف استيثاقا بالوفاء ، واستضمانا من الغدر ، واحتياطا لحفظ الالتزام .

1) نهاية الارب في معرفة انساب العرب لابي العباس احمد القلقشندي المتوفي سنة : 821 هـ ص : 449 تحقيق ابراهيم الابياري ط : 01 ، القاهرة عام 1959 .
2) وهو كتاب مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم 2468 ، ص 20 .
3) مادة فصل الحاء من باب الباء ج 1 - ص : 215 .
4) التعريف لابن عبد الله بن القاضي عياض - ص 3 . تحقيق الدكتور محمد بنشريفة ، ط وزارة الاوقاف .

أما سبتة - موطن أبي الفضل عياض - فقد اختلف في سبب تسميتها ، فقيل انها سميت سبتة لانقطاعها في البحر من قولك : سبت النعل اذا قطعتها ، وقيل : سميت سبتة لأن مختطها هو سبت بن سام بن نوح وإلى هذا الرأي يشير لسان الدين بن الخطيب من قصيدة له : (1)

حبيب يا مختط سبت بن نوح .. بكل مزن يغتدي أو يروح
دار أبي الفضل عياض الذي .. أضحت برياه رياض تفوح)

ويذكر الحجاري في المسهب : (2)

((ان أول من سكن بر العدوة وبر الاندلس من ولد نوح بعد الطوفان سبت وأندلس ابنا يافث بن نوح ، فنزل سبت في آخر المعمور من بر العدوة ، وبنى له منزلا في موضع سبتة فعرفت باسمه .))

وجميع هذه الاقوال ليس عليها من العلم اي دليل ، والمشهور عن المؤرخين القدامى أن ينسبوا كل قديم مجهول الى نوح أو أحد أولاده ، اعتقادا منهم بأن الطوفان قد غمر الارض جميعا ، وأن العنصر البشري الحاضر ليس الا من سلالة من نجا مع نوح في الفلك ، كما أنهم ينسبون كل عمل جليل عظيم الى الجن الذين استخدمهم سليمان بن داود ، فبنوا بعلبك وتدمر والاهرام وما شابهها بقوة خارقة ، ونرى ذلك في الشعر القديم والاساطير من الحقائق ، كقول النابغة الذبياني : (3)

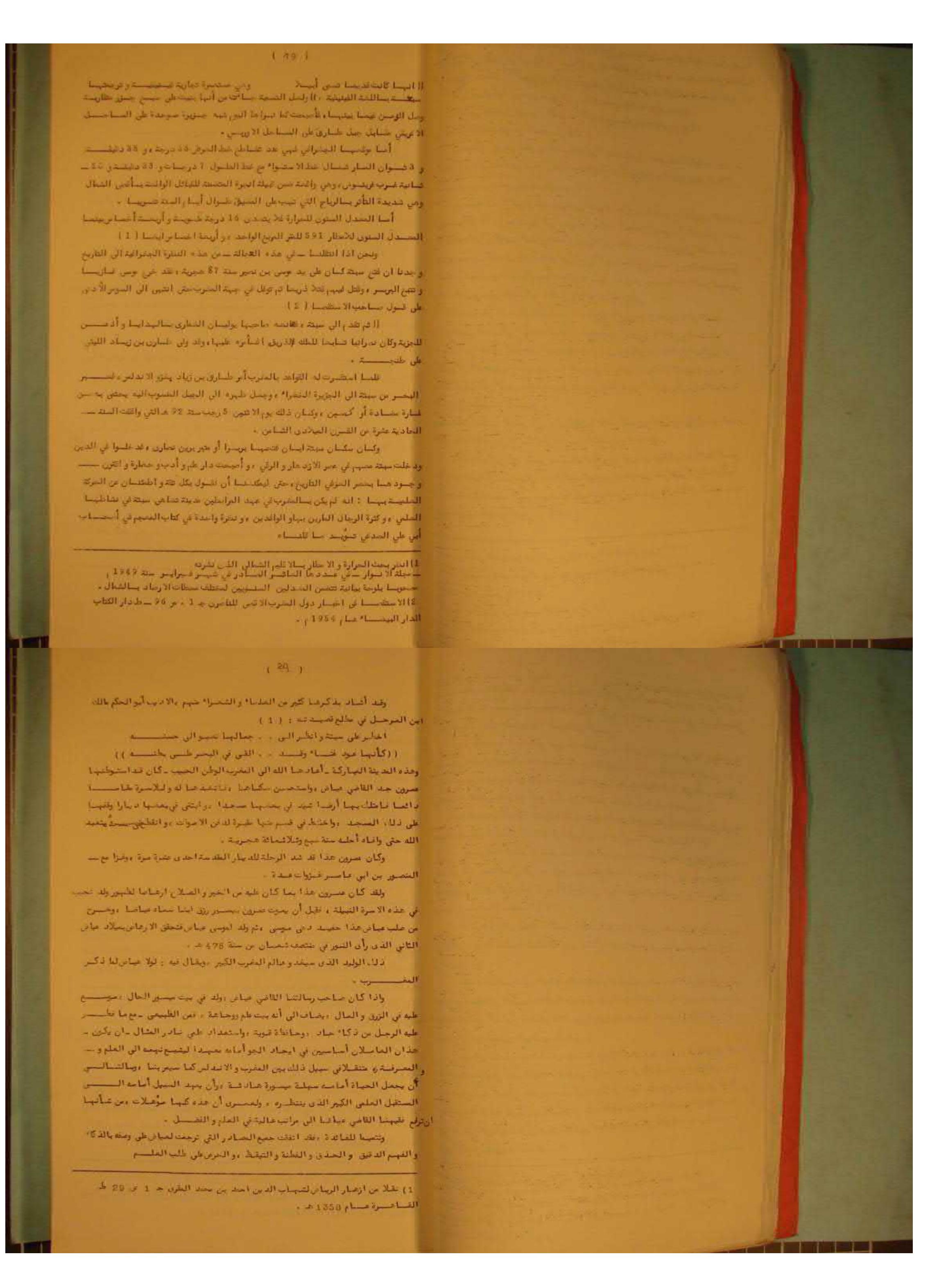
الا سليمان اذ قال الاله له .. قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن اني قد أذنت لهم .. يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ولم يكن هذا شأن المؤرخين العرب وحدهم ، بل شاركهم هذه الظاهرة الاسطورية في التاريخ كل الشعوب القديمة ، كما نرى في اساطير الالياذة والاوديسة ، وقصة انفلاق أوروبا عن افريقية ، ووصل البحرين بالاطلس ، واناشيد رولان ، وشاهنامة الفردوسي ومثلها كثير .

ولم يدخل النقد العلمي الى حظيرة التاريخ الا في العصور المتأخرة ، ولم ينضج الا في العصر الحاضر بعد الكشف عن الآثار واستقراء النقوش والاحجار .

ولذلك لا يمكن أن نقبل ما قاله المؤرخون العرب عن سبتة كما روى الابشك كبير جدا وخير لنا أن نرجع الى ما كتبه العلماء الغربيون عنها ، فهو أكثر دقة وأقرب الى الصحة ، تلخصه الموسوعات الفرنسية بنصه سطور فقد جاء في المعلمة البريطانية الجزء الاول ص 276 :

1) ديوان لسان الدين بن الخطيب ص 140 - ط 1 الجزائر عام 1973
2) ازهار الرياض لشهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني ج 1 ص 29 . ط القاهرة عام 1358 هـ .
3) البيتان واردان في ديوان النابغة - ص 13 صنعه ابن السكيت ، وهو الامام ابن يوسف يعقوب بن اسحق المتوفي سنة 294 هـ بتحقيق الدكتور شكري فيصل ط - دار الفكر



إذ أنها كانت قديما تسمى أبيلا وهي مستعمرة تجارية فينيقية وترجمتها سبعة باللغة الفينيقية ، ولعل التسمية جاءت من أنها بنيت على سبع جبال صغيرة ويقل الوسن عنها بعضها ، فأصبحت لنا أبوابها البرشية صخرية موجودة على الساحل الافريقي مقابل جبل طارق على الساحل الاوربي .

أما موقعها الجغرافي فهي عند تقاطع خط الطول 35 درجة و 53 دقيقة و 5 ثوان شمال خط الاستواء مع خط الطول 7 درجات و 53 دقيقة و 40 ثانية غرب غرينتش ، وهي واقعة ضمن قبيلة انجرة المحصنة للقبائل الواقعة بأقصى الشمال وهي شديدة التأثر بالرياح التي تهب على المضيق طوال أيام السنة تقريبا .

أما المعدل السنوي للحرارة فلا يتعدى 16 درجة مئوية وأربعة أعشار بينما المعدل السنوي للأمطار 591 للمتر المربع الواحد ، وأربعة اعشار أيضا (1)

ونحن اذا انتقلنا في هذه العجالة من هذه الفترة الجغرافية الى التاريخ وجدنا ان فتح سبتة كان على يد موسى بن نصير سنة 87 هجرية ، فقد غزى موسى طارسا وفتح البربر ، وقتل فيهم قتلا ذريعا ثم توغل في جهة المغرب حتى انتهى الى السوس الأدنى على قول صاحب الاستقصا (2)

إثم تقدم الى سبتة ، فقاتله صاحبها يوليان النصارى فالبداية وأذعن للجزية وكان مرابطا تابعا للملك لذريق أمنه عليها ، وقد ولى طارق بن زياد الليثي على طنجة .

فلما استقرت له القواعد بالمغرب أمر طارق بن زياد بغزو الاندلس فعبر البحر من سبتة الى الجزيرة الخضراء ، وجمل ظهره الى الجبل المنسوب اليه بحضور عمارة مسادة أو كسمين ، وكان ذلك يوم الاثنين 5 رجب سنة 92 هـ التي وافقت السنة الحادية عشرة من القرن الميلادي الثامن .

وكان سكان سبتة ايان فتحها بربرا أو عجر بين نصارى ، فقد علوا في الدين وقد خلت سبتة مسهمة في عصر الازدهار والرقي ، وأصبحت دار علم وأدب وحضارة والتي وجودها يحصر المؤرخ التاريخ ، حتى ليمكننا أن نقول بكل ثقة واطمئنان عن الحركة العلمية بها : انه لم يكن بالمغرب في عهد المرابطين مدينة تضاهي سبتة في نشاطها العلمي ، وكثرة الرجال النابهين بها والوافدين ، ونظرة واحدة في كتاب المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي تؤيد ما نقول .

1) انظر بحث الحرارة والامطار بالاقليم الشمالي الذي نشرته مجلة الانوار في عددها الصادر في شهر فبراير سنة 1949 ، مصحوبا بلوحة بيانية تتضمن المعدلين السنويين لمختلف محطات الارصاد بالشمال .
2) الاستقصا في اخبار دول المغرب الاقصى للناصري ج 1 ، ص 96 - ط دار الكتاب الدار البيضاء عام 1954 م .

وقد أشاد بذكرها كثير من العلماء والشعراء منهم ، الاديب أبو الحكم مالك ابن المرحل في مطلع قصيدته : (1)

انظر على سبتة وانظر الى ... جمالها تصبو الى حسنه
((كأنها عود غناء وقد ... ألقي في البحر على بطنه))

وهذه المدينة المباركة - أعادها الله الى المغرب الوطن الحبيب - كان قد استوطنها عمرون جد القاضي عياض ، واستحسن سكناها ، فاتخذها له وللاسرة مقاما دائما فاحتفظ بها أرضا شيد في بعضها مسجدا ، وابتنى في بعضها دارا وقفها على ذلك المسجد ، واختط في قسم منها مقبرة لدفن الاموات ، وانقطع بمسجده يتعبد الله حتى وافاه أجله سنة سبع وثلاثمائة هجرية .

وكان عمرون هذا قد شد الرحلة للديار المقدسة احدى عشرة مرة ، وغزا مع المنصور بن ابي عامر غزوات عدة .

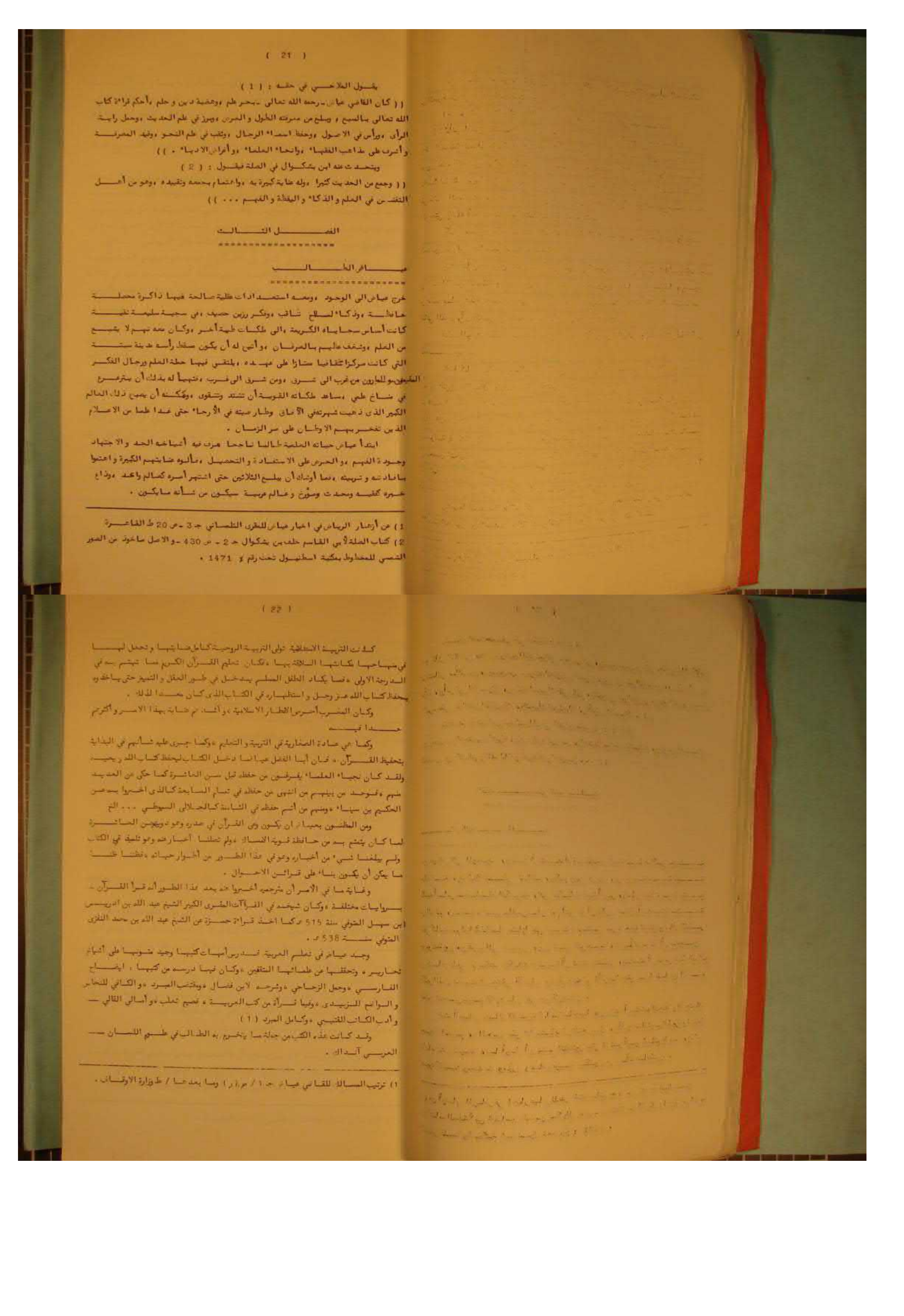
ولقد كان عمرون هذا بما كان عليه من الخير والصلاح ارهاصا لظهور ولد نجيب في هذه الاسرة النبيلة ، فقبل أن يموت عمرون بقليل رزق ابنا سماه عياضا ، وخرج من صلب عياض هذا حفيد دعي موسى ، ثم ولد لموسى عياض فتحقق الارهاص بميلاد عياض الثاني الذي رأى النور في منتصف شعبان من سنة 476 هـ .

ذلك الوليد الذي سيغدو عالم المغرب الكبير ، ويقال فيه : لولا عياض لما ذكر المغرب .

واذا كان صاحب رسالتنا القاضي عياض ، ولد في بيت ميسور الحال ، موسع عليه في الرزق والمال ، يضاف الى أنه بيت علم ووجاهة ، فمن الطبيعي - مع ما فطر عليه الرجل من ذكاء حاد ، وحافظة قوية ، واستعداد علمي نادر المثال - ان يكون هذان العاملان أساسيين في ايجاد الجو أمامه ممهدا ليشبع نهمه الى العلم والمعرفة ، متنقلا في سبيل ذلك بين المغرب والاندلس كما سيمر بنا ، وبالتالي أن يجعل الحياة أمامه سهلة ميسورة هادئة ، وأن يمهد السبيل أمامه الى المستقبل العلمي الكبير الذي ينتظره ، ولعمري أن هذه كلها مؤهلات من شأنها ان ترفع فقيهنا القاضي عياضا الى مراتب عالية في العلم والفضل .

وتتميما للفائدة ، فقد اتفقت جميع المصادر التي ترجمت لعياض على وصفه بالذكاء والفهم الدقيق والحذق والفطنة والتيقظ ، والحرص على طلب العلم

1) نقلا من ازهار الرياض لشهاب الدين احمد بن محمد المقري ج 1 ص 29 ط القاهرة عام 1358 هـ .



يقـول الملاحـي في حقـه : (1)

((كان القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ بحر علم وهضبة دين و حلم ، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع ، وبلغ من معرفته الطول والعرض ، وبرز في علم الحديث ، وحمل راية الرأي ، ورأس في الاصول ، وحفظ اسماء الرجال ، وثقب في علم النحو ، وفهد المعرفة وأشرف على مذاهب الفقهاء ، وانحاء العلماء ، وأغراض الادباء .))

ويتحـدث عنه ابن بشكـوال في الصلة فيقـول : (2)

((وجمع من الحديث كثيرا ، وله عناية كبيرة به ، واهتمام بجمعه وتقييده ، وهو من أهـل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهـم ...))

الفصـــل الثـــالث

عيـــاض الطـــالـــب

خرج عياض الى الوجود ، ومعـه استعـدادات عقلية صالحة فيها ذاكرة محصلـة حافظـة ، وذكـاء لـماح ثـاقب ، وفكـر رزين حصيف ، في سجيـة سليمـة نقيـة كانت أساس سجـايـاه الكريمة ، الى ملكـات طيبة أخـر ، وكـان معه نهـم لا يشبـع من العلم ، وشغف عليهم بالعرفـان ، وأتيح له أن يكون مسقط رأسـه مدينة سبتـة التي كانت مركزا ثقافيا ممتازا على عهـده ، يلتقي فيها حطة العلم ورجال الفكـر المقيمون والعابرون من غرب الى شـرق ، ومن شـرق الى غـرب ، فتهيأ له بذلك أن يترعـرع في مناخ علمي ، ساعد ملكـاته القويـة أن تشتد وتقوى ، ومكنـه أن يصبح ذلك العالم الكبير الذي ذهبت شهرته في الآفاق وطار صيته في الأرجاء حتى غدا علما من الاعـلام الذين تفخـر بهم الاوطـان على مر الزمـان .

ابتدأ عياض حياته العلمية طالبا ناجحا عرف فيه أشياخه الجد والاجتهاد وجـودة الفهم ، والحرص على الاستفـادة والتحصيـل ، فـألوه عنايتهم الكبيرة واعتنوا بإفادته وتربيته ، فما أوشك أن يبلـغ الثلاثين حتى اشتهر أمره كعالم واعد ، وذاع خبره كفقيـه ومحدث ومؤرخ وعـالم عربيـة سيكـون من شـأنه ما يكـون .

---

1) من أزهار الرياض في اخبار عياض للمقري التلمساني ج 3 ـ ص 20 ط القاهـرة

2) كتاب الصلة لأبي القاسم خلف بن بشكوال ج 2 ـ ص 430 ـ والاصل مأخوذ من الصور الشمسي للمخطوط بمكتبة اسطنبـول تحت رقم ع 1471 .

كـانت التربيـة الاسلامية تولي التربيـة الروحيـة كامل عنايتهـا وتحمل لهـا في منهـاجهـا مكـانتهـا اللائقة بهـا ، فكـان تعليم القـرآن الكريم مما تهتم به في الدرجة الاولى ، فما يكـاد الطفل المسلم يدخـل في طـور العقل والتمييز حتى يـأخذوه بحفظ كتاب الله عـز وجـل واستظهـاره في الكتـاب الذي كـان معـدا لذلك .

وكـان المغـرب أحرص الاقطـار الاسلامية ، وأشـد ـم عنـاية بهذا الامـر وأكثرهم جـدا فيـه .

وكمـا هي عـادة المغاربة في التربية والتعليم ، وكما جـرى عليه شأنهم في البداية بتحفيظ القـرآن ، فـإن أبا الفضل عياضا دخـل الكتـاب ليحفظ كتـاب الله ويحيـه ولقـد كـان نجبـاء العلمـاء يفرغـون من حفظه قبل سن العاشرة كما حكي عن العديـد منهم ، فيوجـد من بينهم من انتهى من حفظه في تمام السـابعة كالذي اخبروا به عن الحكيم ابن سينـا ، ومنهم من أتم حفظه في الثـامنة كالجـلال السيوطي ... الخ

ومن المظنـون بعيـاض ان يكـون وعى القـرآن في صدره وهو دون سن العـاشـرة لمـا كـان يتمتع بـه من حـافظة قوية الامسـاك ، ولم تصلنـا أخبـاره وهو تلميذ في الكتاب ولـم يبلغنـا شيء من أخبـاره وهو في هذا الطـور من أطـوار حيـاته ، فظننـا ظنـا مـا يمكن أن يكـون بنـاء على قرائـن الاحـوال .

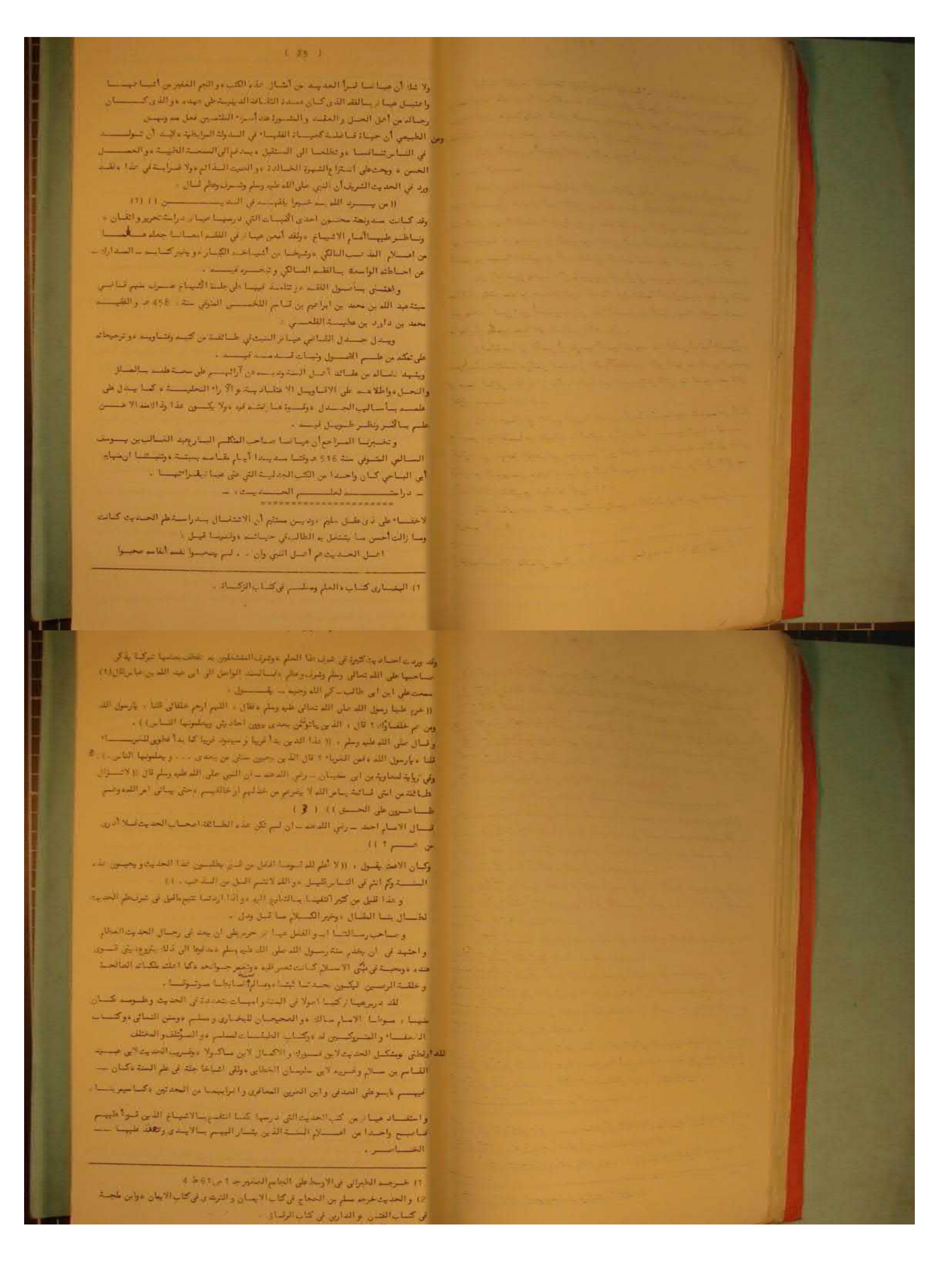
وغـاية مـا في الامـر أن مترجميه أخبـروا انه بعد هذا الطـور أنه قـرأ القـرآن بـروايـات مختلفـة ، وكـان شيخـه في القـراآت المقرئ الكبير الشيخ عبد الله بن ادريس ابن سهـل المتوفي سنة 515 ، كمـا اخـذ قـراءة حمـزة عن الشيخ عبد الله بن محمد اللخمي المتوفي سنـة 538 هـ .

وجـد عياض في تعلم العربية فـدرس أمهـات كتبهـا وجد متونهـا على أشياخ تخـاريـر ، وتحققهـا من علمائهـا المتقنين ، وكـان فيما درسه من كتبهـا : ايضـاح الفـارسـي ، وجمل الزجـاجي ، وشرحـه لابن فضـال ، ومقتضب المبرد ، والكـافي للنحاس والـواضح للـزبيـدي ، وفيمـا قـرأه من كتب العربيـة ، فصيح ثعلب ، وأمـالي القالي ـــ وأدب الكـاتب القتيبـي ، وكـامل المبرد (1)

وقـد كـانت هذه الكتب من جملة مـا يتخـرج به الطـالب في علـوم اللسـان ـــ العربـي آنـذاك .

---

1) ترتيب المسالك للقـاضي عيـاض ج 1 / ص (ز) ومـا بعدهـا / ط وزارة الاوقـاف .



ولا شك أن عياضا قرأ العديد من أمثال هذه الكتب، والعدد الكثير من أمثالها، واشتغل عياض بالفقه الذي كان عمدة الثقافة الدينية على عهده، والذي كان رجاله من أهل الحل والعقد والمشورة عند أمراء الملثمين فعمل معه وبهم ومن الطبيعي أن حياة قاطعة كحياة الفقهاء في الدولة المرابطية لابد أن تولد في النابه شابا، وتطلعا الى المستقبل، يدفع الى السمعة الطيبة، والعمل الحسن، ويحث على استرعاء الشهرة الخالدة، والصيت الدائم، ولا غرابة في هذا، فقد ورد في الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم قال:

((من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)) (1)

وقد كانت مدونة سحنون احدى الأمهات التي درسها عياض دراسة تحرير واتقان، وناظر عليها أمام الاشياخ، ولقد أمعن عياض في الفقه امعانا جعله علما من أعلام المذهب المالكي، وشيخا من أشياخه الكبار، ويخبر كتابه المدارك عن احاطته الواسعة بالفقه المالكي وتبحره فيه.

واعتنى بأصول الفقه، وتلمذ فيها على جلة الأشياخ عرف منهم قاضي سبتة عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن تمام اللخمي المتوفى سنة 458 هـ والفقيه محمد بن داود بن عطية القلعي.

ويدل جدل القاضي عياض النبيل في طائفة من كتبه وفتاويه، وترجيحاته على تمكنه من علم الاصول وثبات قدمه فيه.

ويشهد ما ناله من عقائد أهل السنة ودفاعه عن آرائهم على سعة علمه بالملل والنحل، واطلاعه على الاقاويل الاعتقادية والآراء النحلية، كما يدل على علمه بأساليب الجدل، وقوة عارضته فيه، ولا يكون هذا ولا منه الا عن علم بالأثر ونظر طويل فيه.

وتخبرنا المراجع أن عياضا صاحب المتكلم النظار عبد الغالب بن يوسف السالمي المتوفى سنة 516 هـ وقتا مديدا أيام مقامه بسبتة، وتبين لنا ان منهاج أبي الباجي كان واحدا من الكتب الجدلية التي عني عياض بقراءتها.

- دراسته لعلم الحديث: -

======================

لا يخفى على ذي عقل سليم، ودين مستقيم أن الاشتغال بدراسة علم الحديث كانت وما زالت أحسن ما يشتغل به الطالب في حياته، ولنعم ما قيل:

أهل الحديث هم أهل النبي وان … لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

---

1) البخاري كتاب العلم ومسلم في كتاب الزكاة.

وقد وردت احاديث كثيرة في شرف هذا العلم، وشرف المشتغلين به نقتطف منها تبركا بذكر صاحبها صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم، بالسند الواصل الى ابي عبد الله بن عباس قال (1) سمعت علي ابن ابي طالب - كرم الله وجهه - يقول:

((خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: اللهم ارحم خلفائي قلنا: يارسول الله ومن هم خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويعلمونها الناس)).

وقال صلى الله عليه وسلم: ((هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء قلنا: يارسول الله، ومن الغرباء؟ قال الذين يحيون سنتي من بعدي … ويعلمونها الناس.))

وفي رواية لمعاوية بن ابي سفيان - رضي الله عنه - ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تزال طائفة من امتي قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم او خالفهم، حتى يأتي امر الله وهم ظاهرون على الحق)) (2)

قال الامام احمد - رضي الله عنه - ان لم تكن هذه الطائفة اصحاب الحديث فلا أدري من هم؟))

وكان الاعمش يقول: ((لا أعلم لله قوما أفضل من قوم يطلبون هذا الحديث ويحيون هذه السنة وكم انتم في الناس قليل، والله لانتم اقل من الذهب.))

وهذا قليل من كثير اكتفينا بالتلميح اليه، والا اذا اردنا تتبع ما قيل في شرف علم الحديث لطال بنا المقال، وخير الكلام ما قل ودل.

وصاحب رسالتنا ابو الفضل عياض حريص كل الحرص على ان يعد في رجال الحديث العظام واجتهد في ان يخدم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مدفوعا الى ذلك بتروة بقي تقوى هذه، ووجهة في بيئة الاسلام كانت تعمر قلبه، وتغمر جوانحه، كما اهلته ملكاته الصالحة وخلقته الرصين ليكون محدثا ثبتا، وعالما ضابطا موثوقا.

لقد درس عياض كتبا اصولا في السنة وامهات معتمدة في الحديث وعلومه كان منها: موطأ الامام مالك، والصحيحان للبخاري ومسلم، وسنن النسائي، وكتاب الضعفاء والمتروكين له، وكتاب الطبقات لمسلم، والمؤتلف والمختلف للدارقطني، ومشكل الحديث لابي فورك، والاكمال لابن ماكولا، وغريب الحديث لابي عبيد القاسم بن سلام، وغريبه لابي سليمان الخطابي، ولقي اشياخا جلة في علم السنة، وكان فيهم ابو علي الصدفي وابن العربي المعافري وامثالهما من المحدثين، كما سيرينا،

واستفاد عياض من كتب الحديث التي درسها كما انتفع بالاشياخ الذين قرأ عليهم فأصبح واحدا من أعلام السنة الذين يشار اليهم بالايدي وتعقد عليهم الخناصر.

---

1) خرجه الطبراني في الاوسط على الجامع الصغير ج 1 ص 61 ط 4

2) والحديث خرجه مسلم بن الحجاج في كتاب الايمان والترمذي في كتاب الايمان، وابن ماجة في كتاب الفتن، والدارمي في كتاب الرقاق.



- رحلتــه لطلب العلـــــــــم -

والأصل في رحلة طالب العلم ، هو أن المسلمين لما اشتغلوا في فهم معاني القرآن الكريم ،كان من حظه ما افتقروا اليه في فهمها أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأعماله ،وتقريراته ،وأحواله ،وبالجملة أحاديثه صلى الله تعالى عليه وسلـــم .

واقتدوا من سمعها منه الصحابة وحفظوها ،فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها ،استعانوا بتلك الاحاديث النبوية في استيضاحها ،ولما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الأرض ،وعند كل منهم بعض الاحاديث ،وقد ينفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه ،فأصبح طالب الحديث اذا كان من أهل دمشق -مثلا- لا يستوفيه الا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري وغيرها ،وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء هذه الأحاديث مالم يطلبه في البلاد الاخرى ،وهذا ما يعبر عنه العلماء في الأصل بالرحلة في طلب العلم ومما يروى في هذا الباب -عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : انه قال : ((اطلبوا العلم ولو بالصين)) (1)

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)) (2)

ويروى عن أبي مطيع معاوية بن يحي :ان الله تعالى أوحى الى داود :

((ان اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد واطلب العلم حتى تتكسر العصا وتخترق النعلان)) (3) .

وقال سعيد بن المسيب : (4)

((اني كنت أغيب الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد))

1) خرجه البيهقي في شعب الايمان ،وابن عدي في الكامل والعقيلي في الضعفاء عن الجامع الصغير للسيوطي جـ 1 ص 44 ط 4 .
وقال ابن حبان : باطل وذكره الجوزي في الموضوعات .
انظر كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر في الاحاديث على السنة الناس للعجلوني جـ 1 ص 154 مكتبة التراث الاسلامي
2) مقدمة ابن ماجة ص : 17
3) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله للامام ابي عبد الله القرطبي المتوفى سنة 463هـ جـ 1 ص 113 - ط المكتبة السلفية المدينة المنورة
4) نفس المصدر جـ 1 ص: 113 ط المدينة المنورة

وقال عامر الشعبي : (1)

((لو أن رجلا سافر من أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت ان سفره ضاع))

وفي التنزيل : ((فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)) (2)

وأبو الفضل عياض قد استكمل طلبه للعلم برحلته التي تغرب فيها عن وطنه ثلاثة عشر شهرا ،وأقام فيها شهرا بقرطبة ،وأخرى بمرسية ،ولقى اثناءهما جلة من الاشياخ الكبار .

كان فيهم : ابن عتاب ،وابن حمدين ،وابن الحاج ،وأبو علي الغساني ،وشريح وابن شبرين ،وأبو جعفر بن بشتغير ،وأبو القاسم بن النحاس ،وأبو زيد بن منتيل ،وأبو عبد الله المازري .

والواقع ،أن أبا الفضل عياضا لم يقصد من رحلته هذه التزيد من العلم أكثر مما قصد الى توثيق معرفته ،والوقوف على المناهج الدراسية التي كان هؤلاء الاعلام يجرون عليها ويسيرون على سننها .

ولقد كانت رحلته عياض العلمية ،محط انظار الناس ،ومع هذا الاجلال فيها فوجد من العلماء الذين عرفوا من رأى فيه أنه يكبر من أن يرحل الى علماء لا يزيدون عليه علما ومعرفة .

ووجد من الاشياخ الذين شد اليهم الرحلة ،من احله عن أن يرحل الى عالم كان أخبره بعزمه على الرحيل اليه .

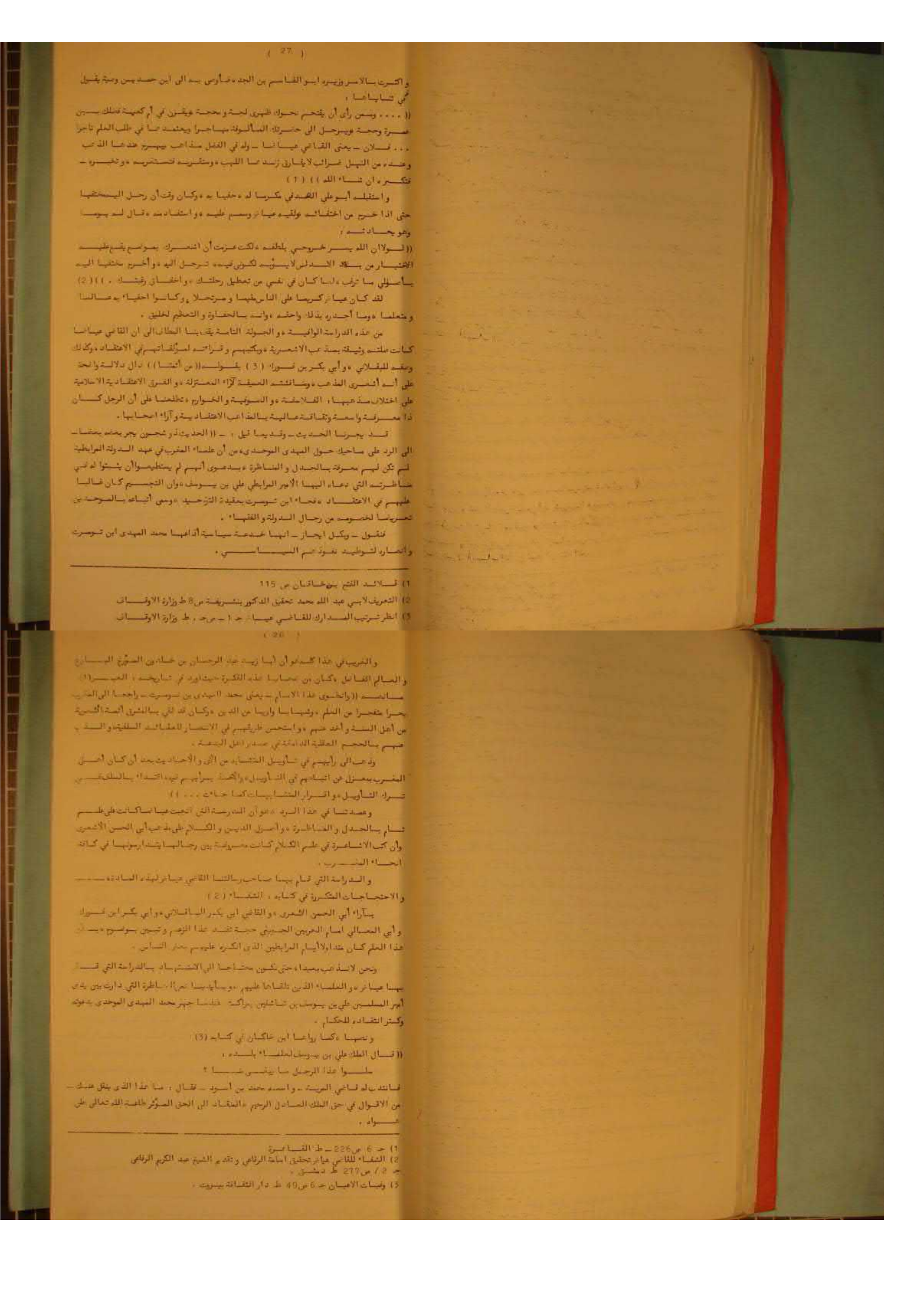
جاء في التعريف (3) .

((واخبرني -رحمة الله عليه - (يريد ابن عمه ابا عبد الله الزاهد)) أن ابا الحسين ابن سراج قال له - وقد اراد الرحلة الى بعض الشياخ - لهو احوج الى منا اليه)

واحتفل الامير المرابطي علي بن يوسف برحلته هذه ،فأمر بكتابة وصية في شأنه الى ابن حمدين قاضيه بقرطبة جاء فيها :

((وفلان - يعني القاضي عياضا - أعزه الله بتقواه ،وأعانه على ما نواه ممن له في العلم حظ وافر ،ووجه سافر ،وعنده دواوين أثقال ،لم تتح لها على الشيوخ أقفال ،وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها ،ويحاني رسد عيونها ،وله الينا ماتة شرعية أوجبت الاشادة بذكره ،والاعتناء بأمره ،وله عندنا مكانة جلية ،فتلقاه بما يليق بخيره ،وانهاء ذلك الى قضاء وطره ،وأنت ان شاء الله تسدد علمه ،وتقرب أمله ،وتصل أسباب العون له ان شاء الله)) (4)

1) أصول الحديث وعلومه للدكتور محمد عجاج الخطيب ، 132 ط 2 دار الفكر عام 1971 م .
2) - آية : 32 من سورة التوبة .
3) تحقيق الدكتور بهشريفة طبعة التعريف لابن عبد الله محمد ص 106 وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .
4) عن القلائد للفتح بن خاقان ص 116 ط التقدم العلمية سنة : 1320 هـ



و اكتسرت بـالامـر وزيـره ابـو القـاسم بن الجد ، فـأوصى بـه الى ابن حمديس وصية يقـول في ثنـايـاهـا :

((.... وممن رأى أن يقتحم نحوك ظهرى لجة وصحبة ويقرن في أم كمهة فلك بين عبرة وحجة ويرحل الى حضرتك المألوفة مهاجرا ويعتمد عنا في طلب العلم تاجرا ... فلان – يعني القاضي عياضا – وله في الفضل مذاهب يبهرج عندها الذهب وعنده من النبل غرائب لا يفارق زنده عنا اللهب ، وستقرينه فتستقرينه ، وتخبره – فتكبره ان شاء الله)) (1)

و استقبله أبو علي الصدفي مكرما له ، حفيا به ، وكان وقت أن رحل اليه مختفيا حتى اذا خرج من اختفائه ولقيه عياض وسمع عليه ، واستفاد منه ، قال له يوما وهو يحادثه :

((لولا أن الله يسر خروجي بلطفه ، لكنت عزمت أن اتحرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الاندلس لا يؤبه لكوني فيه ، ترحل اليه ، وأخرج مختفيا اليه بأصولي ما نرغب ، لما كان في نفسي من تعطيل رحلتك ، واخفاق رفقتك .)) (2)

لقد كان عياض كريما على الناس مقيما و مرتحلا ، وكانوا احفياء به عالما ومتعلما ، وما أجدره بذلك واحقه ، وانه بالحفاوة و التعظيم لخليق .

من هذه الدراسة الوافية ، و الجولة التامة يقف بنا المطاف الى ان القاضي عياضا كانت صلته وثيقة بمذهب الاشعرية ، وبكتبهم وقراءته لمؤلفاتهم في الاعتقاد ، وكذلك وصفه للباقلاني ، وأبي بكر بن فورك (3) بقوله ((من أئمتنا)) دال دلالة واضحة على أنه أشعري المذهب ، ومناقشته العميقة لآراء المعتزلة ، و الفرق الاعتقادية الاسلامية على اختلاف مذاهبها ، الفلاسفة ، و الصوفية و الخوارج ، تطلعنا على أن الرجل كان ذا معرفة واسعة وثقافة عالية بالمذاهب الاعتقادية وآراء اصحابها .

قد يجرنا الحديث – وقديما قيل : – ((الحديث ذو شجون)) يجر بعضه بعضا – الى الرد على ما حيك حول المهدي الموحدي ، من أن علماء المغرب في عهد الدولة المرابطية لم تكن لهم معرفة بالجدل و المناظرة ، بدعوى أنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا له في مناظرته التي دعاه اليها الأمير المرابطي علي بن يوسف ، وان التجسيم كان غالبا عليهم في الاعتقاد ، فجاء ابن تومرت بعقيدة التوحيد ، وسمى أتباعه بالموحدين تعريضا لخصومه من رجال الدولة و الفقهاء .

فنقول – وبكل ايجاز – انها خدعة سياسية أذاعها محمد المهدي ابن تومرت وأنصاره لتوطيد نفوذهم السياسي .

---

1) قلائد العقيان لابن خاقان ص 115

2) التعريف لابي عبد الله محمد تحقيق الدكتور بنشريفة ص 8 ط وزارة الاوقاف

3) انظر ترتيب المدارك للقاضي عياض ج 1 – ص ج . ط وزارة الاوقاف

والغريب في هذا كله أن أبا زيد عبد الرحمان بن خلدون المؤرخ البارع والعالم الفاضل ، كان من ضحايا هذه الفكرة حيث اورد في تاريخه : العبر (1) ما نصه ((وانطوى هذا الامام – يعني محمد المهدي بن تومرت – راجعا الى المغرب بحرا متفجرا من العلم ، وشهابا واريا من الدين ، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم ، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنهم بالحجج العقلية الدامغة في صدر اهل البدعة .

وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي و الأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل ، والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل ، و اقرار المتشابهات كما جاءت ....))

وعمدتنا في هذا الرد ، هو أن المدرسة التي انجبت عياضا كانت على علم تام بالجدل و المناظرة ، وأصول الدين و الكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري وأن كتب الاشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة انحاء المغرب .

و الدراسة التي قام بها صاحب رسالتنا القاضي عياض لهذه المادة والاحتجاجات المتكررة في كتابه : الشفاء (2)

بآراء أبي الحسن الأشعري ، و القاضي ابي بكر الباقلاني ، وابي بكر ابن فورك وأبي المعالي امام الحرمين الجويني حجة تفند هذا الزعم وتبين بوضوح ، بأن هذا العلم كان متداولا أيام المرابطين الذي انكره عليهم بعض الناس .

ونحن لا نذهب بعيدا ، حتى نكون محتاجين الى الاستشهاد بالدراسة التي قام بها عياض ، والعلماء الذين تلقاها عليهم ، وبأيدينا نص المناظرة التي دارت بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش عندما جهر محمد المهدي الموحدي بدعوته وكثر انتقاده للحكام .

ونصها ، كما رواها ابن خلكان في كتابه (3)

((قال الملك علي بن يوسف لعلماء بلده :

سلوا هذا الرجل ما يبغي منا ؟

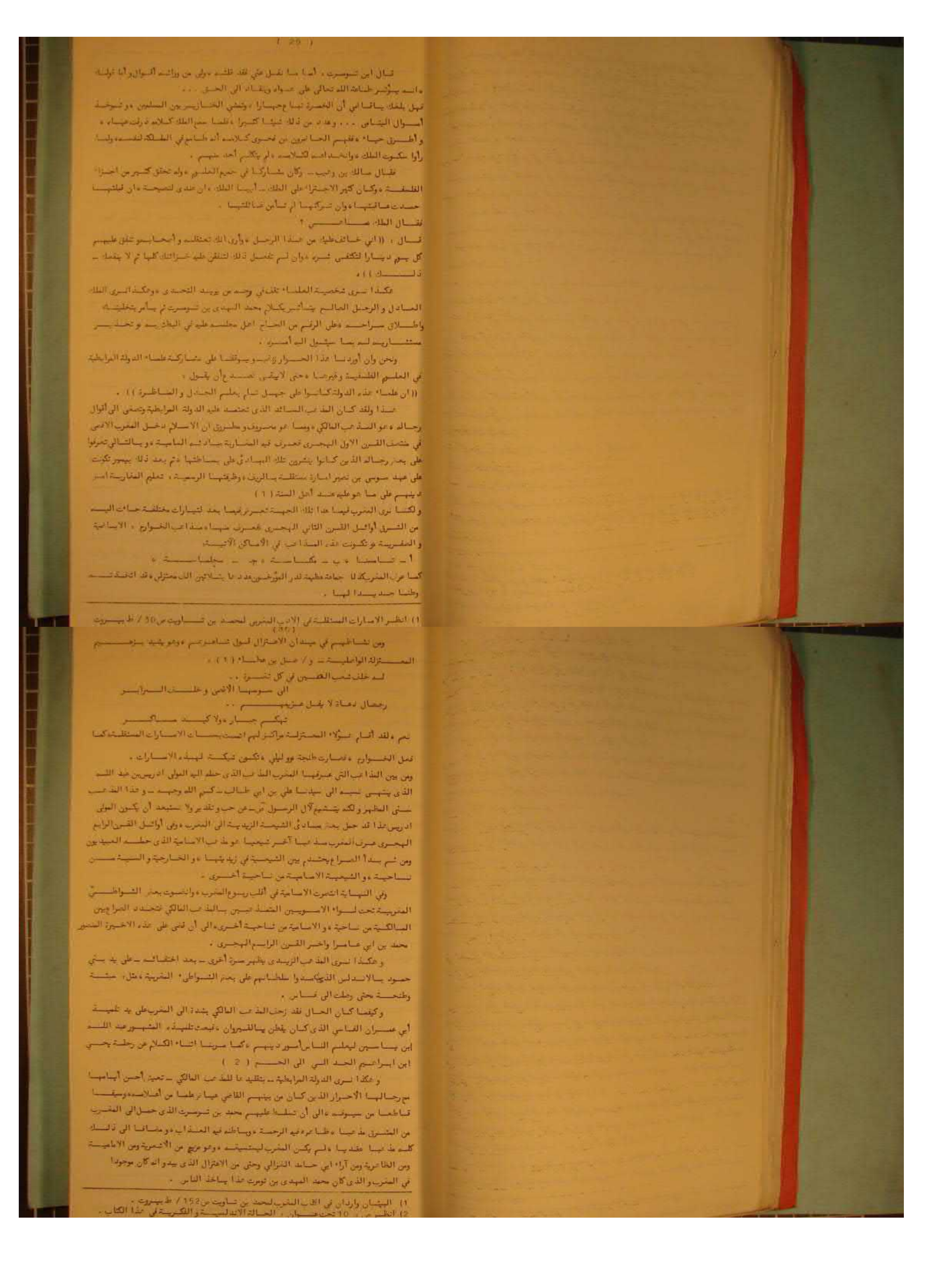
فانتدب له قاضي المرية – واسمه محمد بن أسود – فقال : ما هذا الذي يذكر عنك من الاقوال في حق الملك العادل الرحيم ، المنقاد الى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه .

---

1) ج 6 ص 226 – ط القاهرة

2) الشفاء للقاضي عياض تحقيق اسامة الرفاعي وتقديم الشيخ عبد الكريم الرفاعي ج 2 / ص 277 ط دمشق .

3) وفيات الاعيان ج 6 ص 49 ط دار الثقافة بيروت .



قال ابن تومرت : أما ما نقل عني فقد قلته ، ولي من وراءه أقوال ، وأما قولك انه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد الى الحق . . .

فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جهارا ، وتمشي الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى . . . وعدد من ذلك شيئا كثيرا ، فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه ، وأطرق حياء ، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في الملك لنفسه ، ولما رأوا سكوت الملك ، وانخداعه لكلامه ، لم يتكلم أحد منهم .

فقال مالك بن وهيب – وكان مشاركا في جميع العلوم ، وله تحقق كثير من أجزاء الفلسفة ، وكان كثير الاجتراء على الملك – أيها الملك ، ان عندي لنصيحة ، ان قبلتها حمدت عاقبتها ، وان تركتها لم تأمن غائلتها .

فقال الملك : ما هي ؟

قال : ((اني خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى لك تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم دينارا لتكفي شره ، وان لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها ثم لا ينفعك ذلك)) .

فكذا نرى شخصية العلماء تقف في وجه من يريد التحدي ، وهكذا نرى الملك العادل والرجل العالم يتأثر بكلام محمد المهدي بن تومرت ثم يأمر بتخليته واطلاق سراحه ، على الرغم من الحاح أهل مجلسه عليه في القبض عليه وتحذيرهم مستشاريه له بما سيئول اليه أمره .

ونحن وان أوردنا هذا الحوار ، ونتوقف على مشاركة علماء الدولة المرابطية في العلوم الفلسفية وغيرها ، حتى لا يبقى لأحد أن يقول :

((ان علماء هذه الدولة كانوا على جهل تام بعلم الجدل والمناظرة)) .

هذا ولقد كان المذهب السائد الذي تعتمد عليه الدولة المرابطية وتصغي الى أقوال رجاله ، هو المذهب المالكي ، ومما هو معروف ومطروق ان الاسلام دخل المغرب الاقصى في منتصف القرن الاول الهجري تحت قيادة الصحابة والتابعين ، وبالتالي تعرفوا على بعض رجاله الذين كانوا ينشرون تلك المبادئ على بساطتها ، ثم بعد ذلك بقليل تكونت على عهد موسى بن نصير امارة مستقلة بالريف ، وظيفتها الرئيسية : تعليم المغاربة أمور دينهم على ما هو عليه عند أهل السنة (1)

ولكننا نرى المغرب فيما عدا تلك الجهة تعرض فيما بعد لتيارات مختلفة جاءت اليه من الشرق أوائل القرن الثاني الهجري نعرف منها مذاهب الخوارج : الاباضية والصفرية ، وتكونت هذه المذاهب في الأماكن الآتية :

أ – تامسنا ، ب – مكناسة ، ج – سجلماسة .

كما عرف المغرب كذلك جماعة عظيمة قدر المؤرخون عددها بثلاثين ألف معتزلي ، قد اتخذت وطنا جديدا لها .

---

1) انظر الامارات المستقلة في الادب المغربي لمحمد بن تاويت ص30 / ط بيروت .

ومن نشاطهم في ميدان الاعتزال قول شاعرهم ، وهو يشيد بزعيم المعتزلة الواصلية – و / صل بن عطاء (1) .

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ..
الى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ..
تهكم جبار ، ولا كيد ماكر

ثم ، لقد أقام هؤلاء المعتزلة مراكز لهم اصبحت بمثابة الامارات المستقلة كما فعل الخوارج ، فصارت طنجة وو ليلي ، تكون نبكة لهذه الامارات .

ومن بين المذاهب التي عرفها المغرب المذهب الذي حمله اليه المولى ادريس بن عبد الله الذي ينتهي نسبه الى سيدنا علي بن ابي طالب – كرم الله وجهه – وهذا المذهب سني المظهر ولكنه يتشيع لآل الرسول ترحيب عن حب وتقدير ولا نستبعد أن يكون المولى ادريس هذا قد حمل بعض مبادئ الشيعة الزيدية الى المغرب ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري عرف المغرب مذهبا آخر شيعيا هو مذهب الاسماعيلية الذي حمله العبيديون ومن ثم بدأ الصراع يحتدم بين الشيعية في زيديتها ، والخارجية والسنية من ناحية ، والشيعية الاسماعيلية من ناحية أخرى .

وفي النهاية انتهت الاسماعيلية في أغلب ربوع المغرب ، وانضمت بعض الشواطئ المغربية تحت لواء الامويين المتمذهبين بالمذهب المالكي لتحتدم الصراع بين المالكية من ناحية ، والاسماعيلية من ناحية أخرى ، الى أن قضى على هذه الاخيرة المنصور محمد بن ابي عامر اواخر القرن الرابع الهجري .

وهكذا نرى المذهب الزيدي يظهر مرة أخرى – بعد اختفائه – على يد بني حمود بالاندلس الذين مدوا سلطانهم على بعض الشواطئ المغربية ، مثل : سبتة وطنجة حتى وصلت الى فاس .

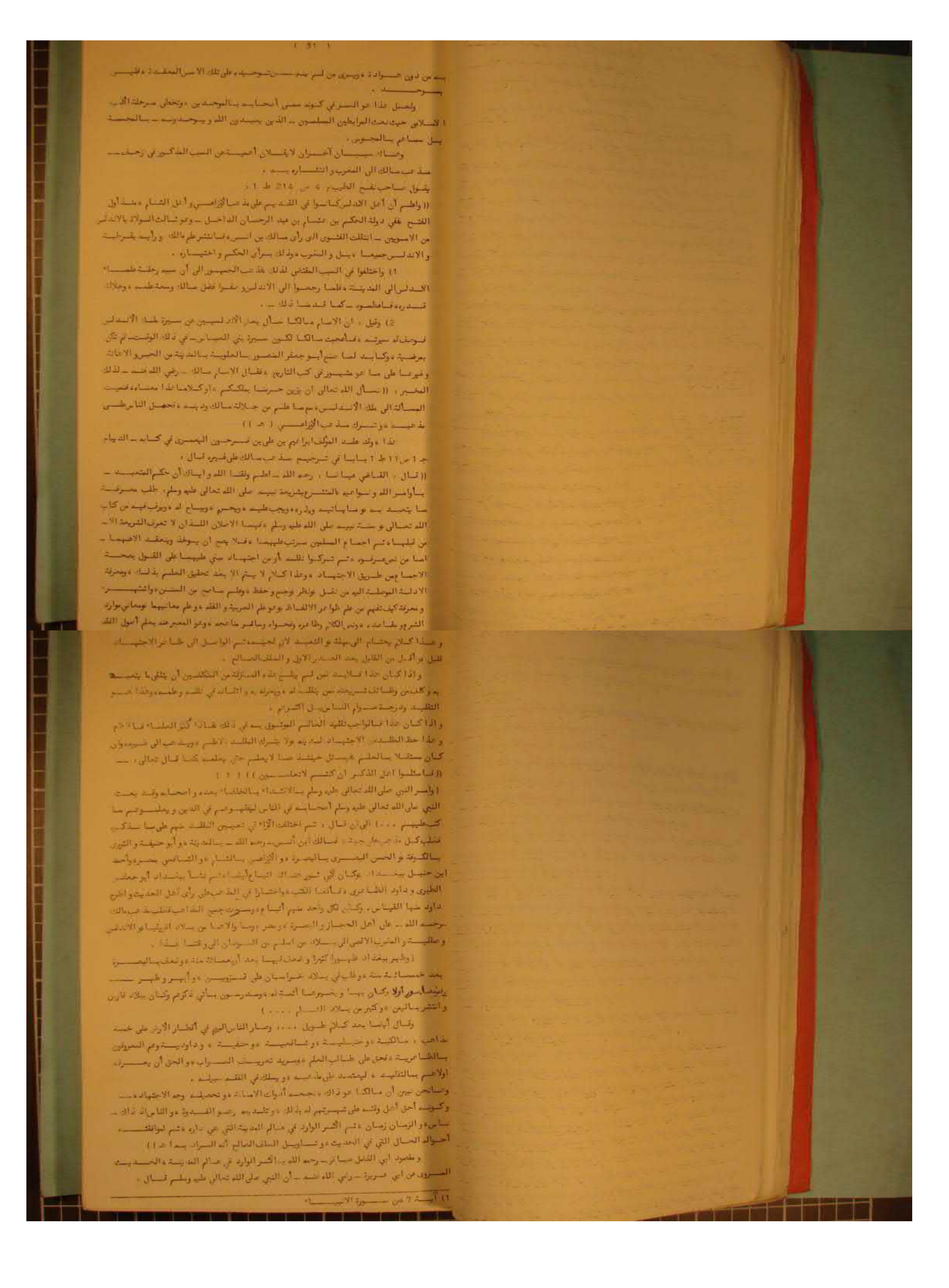
وكيفما كان الحال فقد زحف المذهب المالكي بشدة الى المغرب على يد تلميذ أبي عمران الفاسي الذي كان يقطن بالقيروان ، فبعث تلميذه المشهور عبد الله ابن ياسين ليعلم الناس أمور دينهم ، كما مر بنا أثناء الكلام عن رحلة يحيى ابن ابراهيم الجدالي الى الحج (2)

وهكذا نرى الدولة المرابطية – بتقليدها للمذهب المالكي – تعيش أحسن أيامها مع رجالها الأحرار الذين كان من بينهم القاضي عياض علما من أعلامها وسيفا قاطعا من سيوفها ، الى أن تسلط عليهم محمد بن تومرت الذي حمل الى المغرب من المشرق مذهبا ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه فيه العذاب ، ومضافا الى ذلك كله مذهبا عقديا ، لم يكن المغرب ليستسيغه ، وهو مزيج من الأشعرية ومن الامامية ومن الظاهرية ومن آراء ابي حامد الغزالي وحتى من الاعتزال الذي يبدو انه كان موجودا في المغرب والذي كان محمد المهدي بن تومرت هذا يأخذ الناس .

---

1) البيان واردان في الادب المغربي لمحمد بن تاويت ص152 / ط بيروت .

2) انظر ص : 10 تحت عنوان : الحالة الاندلسية والفكرية في هذا الكتاب .



ـه من دون هوادة ، ويرى من لم يؤمن بتوحيده على تلك الأسس المعتقدة ، فليس بموحد .

ولعل هذا هو السر في كونه سمى أصحابه بالموحدين ، وتجلى مرحلة الأدب الإسلامي حيث نعت المرابطين المسلمين ـ الذين يعبدون الله ويوحدونه ـ بالمجسمة بل سماهم بالمجوس .

وهناك سببان آخران لا يقلان أهمية عن السبب المذكور في زحف مذهب مالك الى المغرب وانتشاره به .

يقول صاحب نفح الطيب ج 4 ص 214 ط 1 :

((واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل ـ وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين ـ انتقلت الفتوى الى رأي مالك بن أنس ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا ، بل والمغرب ، وذلك برأي الحكم واختياره .

1) واختلفوا في السبب المقتضي لذلك فذهب الجمهور الى أن سببه رحلة علماء الأندلس الى المدينة ، فلما رجعوا الى الأندلس وصفوا فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، فأعظموه ـ كما قدمنا ذلك ـ .

2) وقيل : ان الامام مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس فوصف له سيرته ، فأعجبت مالكا لكون سيرة بني العباس ـ في ذلك الوقت ـ لم تكن بمرضية ، وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والاهانة وغيرها على ما هو مشهور في كتب التاريخ ، فقال الامام مالك ـ رضي الله عنه ـ لذلك المخبر : ((نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم)) أو كلاما هذا معناه ، فنميت المسألة الى ملك الأندلس ، مع ما علم من جلالة مالك ودينه ، فحمل الناس على مذهبه ، وترك مذهب الأوزاعي (هـ))

هذا ، وقد عقد المؤلف ابراهيم بن علي بن فرحون اليعمري في كتابه ـ الديباج ج 1 ص 11 ط 1 بابا في ترجيح مذهب مالك على غيره قال :

((قال : القاضي عياض : رحمه الله ـ اعلم وفقنا الله وإياك أن حكم المتعبد ـ بأوامر الله ونواهيه ، المتشرع بشريعة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، طلب معرفة ما يتعبد به وما يأتيه ويذره ، ويجب عليه ويحرم ، ويباح له ، ويوقف فيه من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهما الأصلان اللذان لا تعرف الشريعة الا من قبلهما ، ثم اجماع المسلمين مرتب عليهما ، فلا يصح أن يؤخذ ويعتقد الا منهما ـ اما من نص عرفوه ، ثم تركوا نقله أو من اجتهاد بني عليهما على القول بصحة الاجماع من طريق الاجتهاد ، وهذا كلام لا يتم الا بعد تحقيق العلم بذلك ، ومعرفة الأدلة الموصلة اليه من نقل ونظر وجمع وحفظ ، وعلم ناسخ من السنن ، واشتهر ومعرفة كيف تفهم من علم ظواهر الألفاظ وهو علم العربية والفقه ، وعلم معانيها ومعاني موارد الشرع ومقاصده ، ونص الكلام وظاهره وفحواه وسائر ما نحن ، وهو المعبر عنه بعلم أصول الفقه

وهذا كلام يحتاج الى مهلة والتعبد لا يحيط به ثم الواصل الى ظاهر الاجتهاد قليل أو أقل من القليل بعد الصدر الأول والسلف الصالح .

واذا كان هذا فلابد لمن لم يبلغ هذه المنزلة من المكلفين أن يتلقى ما يتعبد به وكلف من وظائف شريعته ممن يقلده ، ويحيله به والتقليد في علمه وعلمه ، وهذا هو التقليد ودرجة عوام الناس بل أكثرهم .

واذا كان هذا فالواجب تقليد العالم الموثوق به في ذلك هذا أكثر العلماء فالإمام وهذا حظ المقلد من الاجتهاد لا يديه ولا يشرك المقلد الا العالم ، ويذهب الى غيره وان كان مستقلا بالعلم فيسأل حينئذ عما لا يعلم حتى يعلمه كما قال تعالى : ((فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)) (1)

(وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالاقتداء بالخلفاء بعده وأصحابه وقد بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه في الناس ليفقهوهم في الدين ويعلموهم ما كتب عليهم ...) الى أن قال : ثم اختلفت الآراء في تعيين المقلد منهم على ما سنذكر فغلب كل مذهب في جهة : فمالك بن أنس ـ رحمه الله ـ بالمدينة ، وأبو حنيفة والثوري بالكوفة والحسن البصري بالبصرة ، والأوزاعي بالشام ، والشافعي بمصر وأحمد ابن حنبل ببغداد . وكان لأبي ثور هناك اتباع أيضا ، ثم نشأ ببغداد أبو جعفر الطبري وداود الظاهري ، فألفا الكتب ، واختارا في المذهب على رأي أهل الحديث وأخرج داود منها القياس ، وكان لكل واحد منهم أتباع ، وسرت جميع المذاهب فغلب مذهب مالك رحمه الله ـ على أهل الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد افريقيا والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى الى بلاد من أسلم من السودان الى وقتنا هذا .

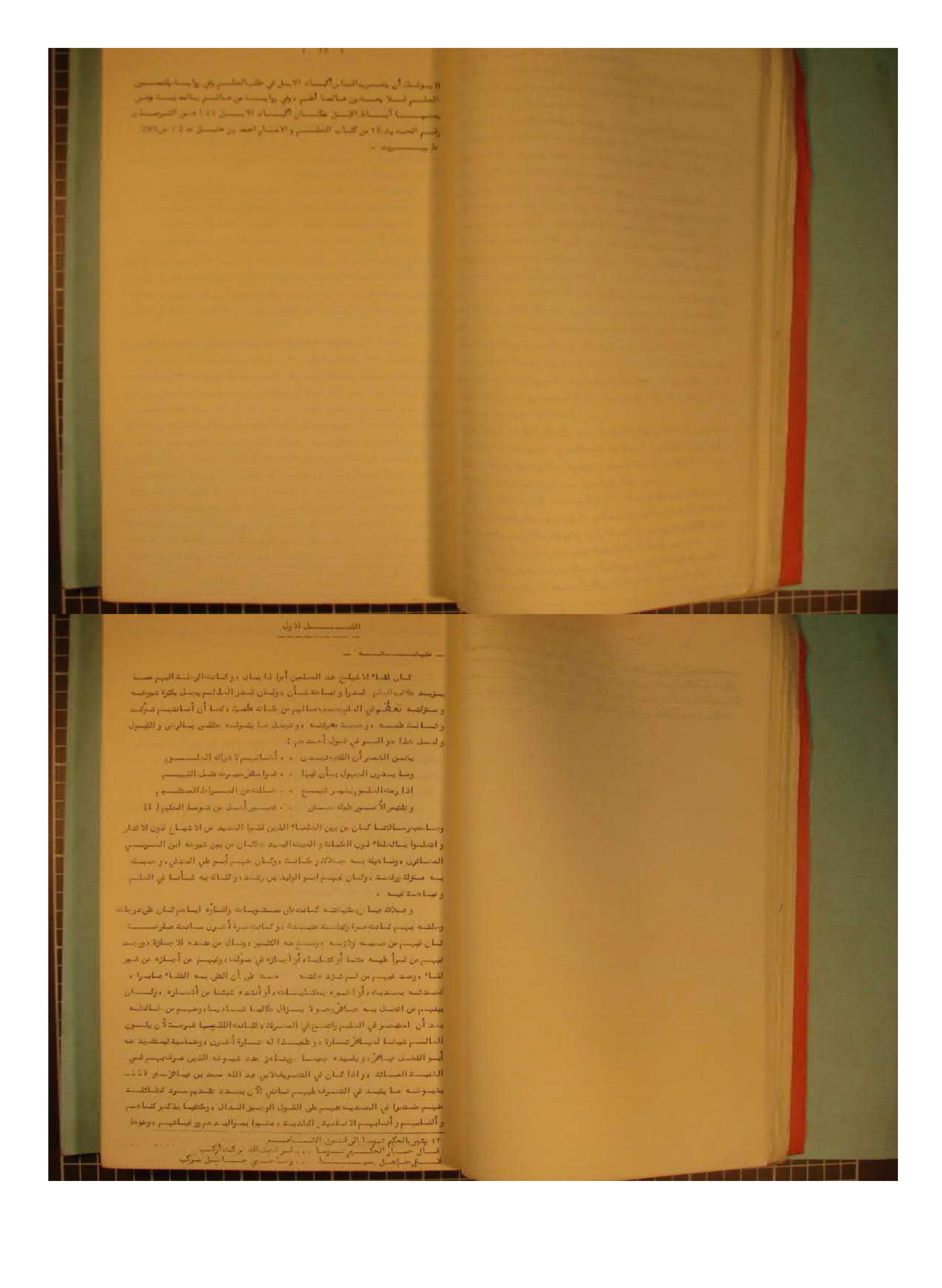
(وظهر ببغداد ظهورا كثيرا وضعف فيها بعد أربعمائة سنة ، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة ، وغلب في بلاد خراسان على قزوين ، وأبهر وظهر بنيسابور أولا وكان بها وبغيرها أئمة له ومدرسون يأتي ذكرهم وكان ببلاد فارس وانتشر باليمن ، وكثير من بلاد الشام ....)

وقال أيضا بعد كلام طويل .... وصار الناس اليوم في أقطار الأرض على خمسة مذاهب : مالكية ، وحنبلية ، وشافعية ، وحنفية ، وداودية وهم المعروفون بالظاهرية ، فحق على طالب العلم ، ومريد تعرف الصواب ، والحق أن يعرف أولاهم بالتقليد ، ليعتمد على مذهبه ، ويسلك في الفقه سبيله .

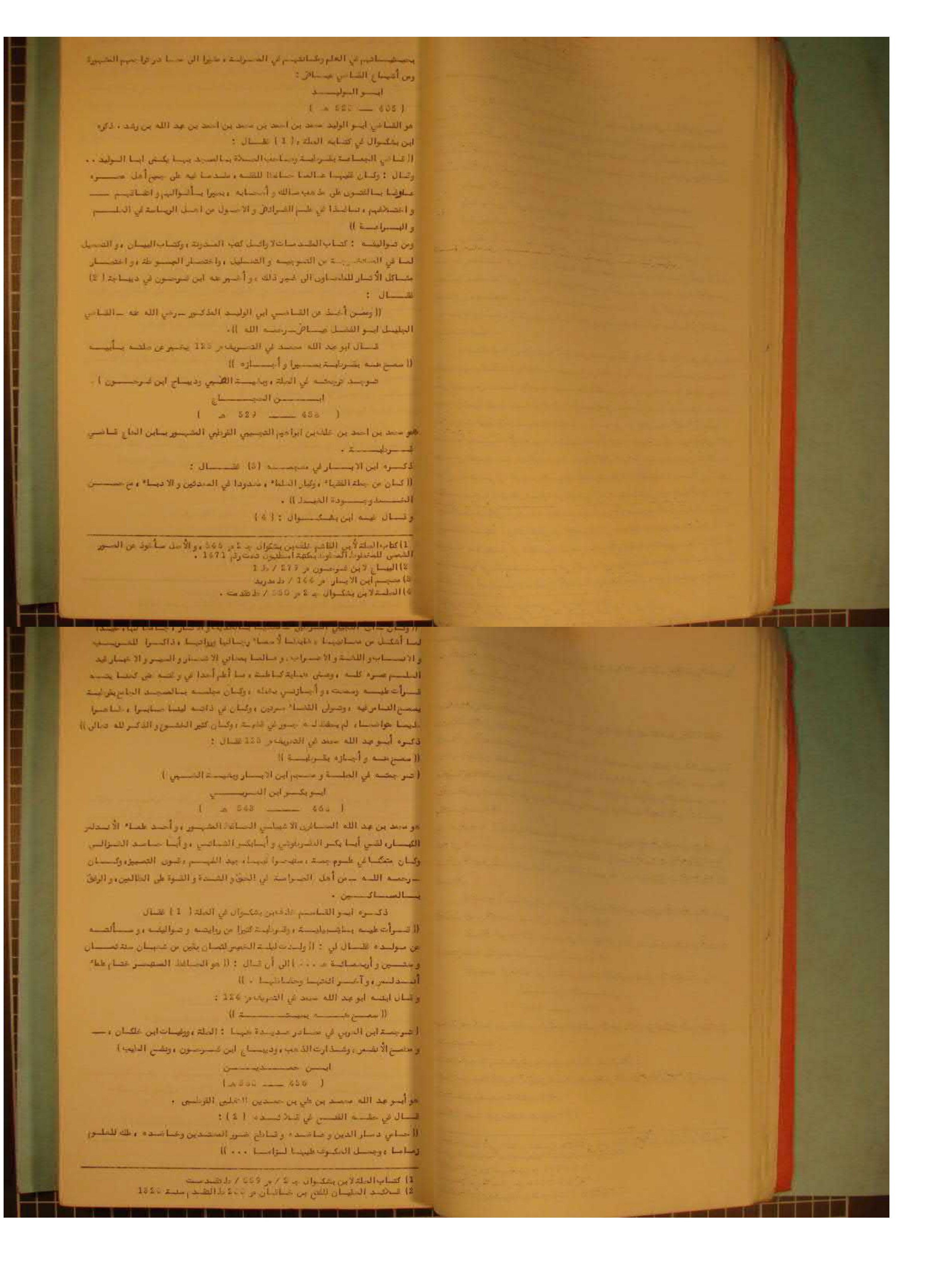
وسانحن نبين أن مالكا هو ذلك ، بجمعه أدوات الامامة ، وتحصيله رتبة الاجتهاد ، وكونه أحق أهل وقته على شهرتهم له بذلك ، وتقيده برسم القدوة ، والناس اذ ذاك ناس ، والزمان زمان ، ثم الأثر الوارد في عالم المدينة التي هي داره ، ثم لموافقة أحوال الحال التي في الحديث ، وتأويل السلف الصالح أنه المراد به (هـ))

ومقصود أبي الفضل عياض ـ رحمه الله ـ بالأثر الوارد في عالم المدينة ، الحديث المروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال :

(1) آية 7 من سورة الانبياء



الفصـــل الأول



بمجهوداتهم في العلم ومكانتهم في الحضارة ، نشيرا الى بعض تراجمهم الشهيرة
ومن أشياخ القاضي عياض :

ابــو الوليــد
(455 — 520 هـ)

هو القاضي ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن عبد الله بن رشد ، ذكره ابن بشكوال في كتابه الصلة ، (1) فقال :

((قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة بالمسجد بها يكنى ابا الوليد ..

وقال : وكان فقيها عالما حافظا للفقه ، مقدما فيه على جميع أهل عصره عارفا بالفتوى على مذهب مالك و أصحابه ، بصيرا بأقوالهم و اتفاقهم و اختلافهم ، نافذا في علم الفرائض و الاصول من اهل الرياسة في العلم والبراعة))

ومن تواليفه : كتاب المقدمات لاوائل كتب المدونة ، وكتاب البيان و التحصيل لما في المستخرجة من التوجيه و التعليل ، واختصار المبسوطة ، و اختصار مشاكل الآثار للطحاوي الى غير ذلك ، وأخبر عنه ابن فرحون في ديباجة (2) فقال :

((وممن أخذ عن القاضي ابي الوليد المذكور رضي الله عنه القاضي الجليل ابو الفضل عياض رحمه الله)).

قال ابو عبد الله محمد في التعريف ص 125 يخبر عن علاقته بأبيه
((سمع منه بقرطبة يسيرا و أجازه))

توجد ترجمته في الصلة ، وبغية الملتمس وديباج ابن فرحون (.

ابــن الحــاج
(458 — 529 هـ)

هو محمد بن احمد بن خلف بن ابراهيم التجيبي القرطبي المشهور بابن الحاج قاضي قرطبة .

ذكره ابن الابار في معجمه (3) فقال :

((كان من جلة الفقهاء ، وكبار العلماء ، معدودا في المحدثين و الادباء ، مع حسن الخط وجودة الضبط)) .

وقال عنه ابن بشكوال : (4)

1) كتاب الصلة لأبي القاسم خلف بن بشكوال ج 2 ص 546 ، والأصل مأخوذ عن المصور الشمسي للمخطوط المحفوظ بمكتبة اسطنبول تحت رقم 1671 .
2) الديباج لابن فرحون ص 277 / ط 1
3) معجم ابن الابار ص 144 / ط مدريد
4) الصلة لابن بشكوال ج 2 ص 550 / ط القاهرة .

((وكان من أهل الفقه والحفظ ... ، بصيرا بالفتيا ... لما أشكل من مسائلها ، ... ، ذاكرا للغريب و الانساب و اللغة و الاعراب ، و عالما بمعاني الاشعار و السير و الاخبار قيد العلم عمره كله ، وعني عناية كاملة ، ما أعلم أحدا في وقته عني كعنايته ... قرأت عليه وسمعت ، و أجازني بخطه ، وكان مجلسه بالمسجد الجامع بقرطبة يسمع الناس فيه ، وتولى القضاء مرتين ، وكان في ذاته لينا متواضعا ، ... حليما ... ، لم يحفظ له جور في قضية ، وكان كثير الخشوع و الذكر لله تعالى))

ذكره أبو عبد الله محمد في التعريف ص 125 فقال :

((سمع منه و أجازه بقرطبة))

(تنظر ترجمته في الصلة و معجم ابن الابار وبغية الملتمس)

ابــو بكــر ابن العربــي
(468 — 543 هـ)

هو محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلي الحافظ المشهور ، وأحد علماء الأندلس الكبار ، لقي أبا بكر الطرطوشي و أبا بكر الشاشي ، و أبا حامد الغزالي وكان متمكنا في علوم جمة ، ... ، جيد الفهم ، قوي التمييز ، وكان رحمه الله من أهل الصرامة في الحق و الشدة و القوة على الظالمين ، و الرفق بالمساكين .

ذكره أبو القاسم خلف بن بشكوال في الصلة (1) فقال

((قرأت عليه باشبيلية ، و ... كثيرا من روايته و تواليفه ، و سألته عن مولده فقال لي : ((ولدت ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين و أربعمائة هـ ...)) الى أن قال : ((هو الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها .))

وقال ابنه أبو عبد الله محمد في التعريف ص 126 :

((سمع منه بسبتة))

(تنظر ترجمة ابن العربي في مصادر عديدة منها : الصلة ، ووفيات ابن خلكان ، و مطمح الأنفس ، وشذرات الذهب ، وديباج ابن فرحون ، ونفح الطيب)

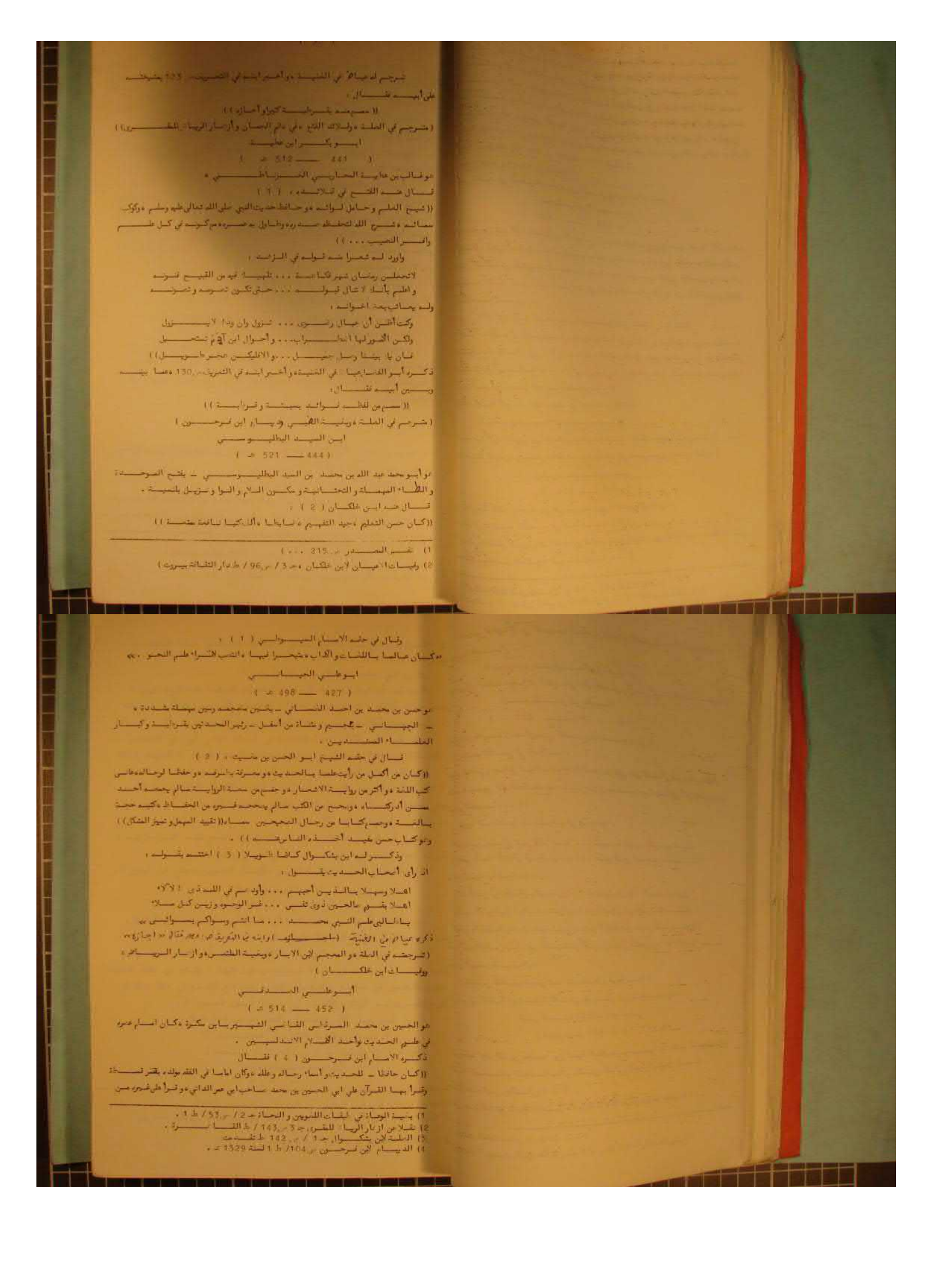
ابــن حمديــن
(456 — 508 هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين التغلبي القرطبي .

قال في حقه الفتح في قلائده (2) :

((حامي ذمار الدين و عاضده ، و قاطع ضرر المعتدين وعاضده ، طلع للعلوم زماما ، وجعل الحكوف عليها لزاما ...))

1) كتاب الصلة لابن بشكوال ج 2 / ص 559 / ط القاهرة
2) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 200 ط القاهرة سنة 1284



ترجم له عياض في الغنية ، وأخبر ابنه في التصريف ، 123 بمشيخته على أبيه فقال :

((سمع منه بقراءته كثيراً وأجازه))

(مترجم في الصلة ، وقلائد العقيان ، في دائرة الإحسان وأزهار الرياض للمقري)

أبو بكر ابن عطية

(441 ـــ 512 هـ)

هو غالب بن عطية المحاربي الغرناطي .

قال عنه الفتح في قلائده : (1)

((شيخ العلم وحامل لوائه ، وحافظ حديث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكوكب سمائه ، شرح الله لتحفظه صدره وطاول به عصره ، مع كونه في كل علم وافر النصيب ....))

وأورد له شعراً منه قوله في الزهد :

لاتجعلن رمضان شهر فكاهة ... تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بأنك لا تنال قبوله ... حتى تكون تصومه وتصونه

وله يعاتب بعض إخوانه :

وكنت أظن أن جبال رضوى ... تزول وأن ودك لا يزول
ولكن القلوب لها انقلاب ... وأحوال ابن آدم تستحيل
فإن يك بيننا وصل جميل ... وإلا فليكن هجر طويل))

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، وأخبر ابنه في التعريف ص 130 ، عما بينه وبين أبيه فقال :

((سمع من لفظه فوائد بحثية وقرابية))

(مترجم في الصلة ، وبغية الملتمس ، وديباج ابن فرحون)

ابن السيد البطليوسي

(444 ـــ 521 هـ)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ـ بفتح الموحدة والطاء المهملة والتحتانية وسكون اللام والواو وتنزيل بالنسبة .

قال عنه ابن خلكان (2) :

((كان حسن التعليم ، جيد التفهيم ، ثقة ضابطاً ، ألف كتباً نافعة ممتعة))

1) نفس المصدر ص 315 ...)
2) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج 3 / ص 96 / ط دار الثقافة بيروت)

وقال في حقه الإمام السيوطي (1) :

« كان عالماً باللغات والآداب ، متبحراً فيها ، انتصب لإقراء علم النحو . »

أبو علي الجياني

(427 ـــ 498 هـ)

هو حسين بن محمد بن احمد الغساني ـ بغين معجمة وسين مهملة مشددة ـ الجياني ـ بجيم ونشأة من أسفل ـ رئيس المحدثين بقرطبة وكبار العلماء المسندين .

قال في حقه الشيخ أبو الحسن بن مغيث : (2)

((كان من أكمل من رأيت علماً بالحديث ، ومعرفة بأسانيده ، وحفظاً لرجاله ، وعانى كتب اللغة ، وأكثر من رواية الأشعار ، وجمع من صحة الرواية ما لم يجمعه أحد ممن أدركناه ، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره من الحفاظ ، كتبه حجة بالغة ، وجمع كتاباً من رجال الصحيحين سماه ((تقييد المهمل وتمييز المشكل)) وهو كتاب حسن مفيد أخذه الناس عنه)) .

وذكر له ابن بشكوال كلاماً طويلاً (3) اختتمه بقوله :

إذ رأى أصحاب الحديث يقول :

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم ... وأودهم في الله ذي الآلاء
أهلاً بقوم صالحين ذوي تقى ... غر الوجوه وزين كل ملاء
يا طالبي علم النبي محمد ... ما أنتم وسواكم بسواء »

ذكره عياض في الغنية (المحيلية) وابنه في التعريف ص ... فقال « إجازة »

(ترجمته في الصلة ، والمعجم لابن الأبار ، وبغية الملتمس ، وأزهار الرياض ، ووفيات ابن خلكان)

أبو علي الصدفي

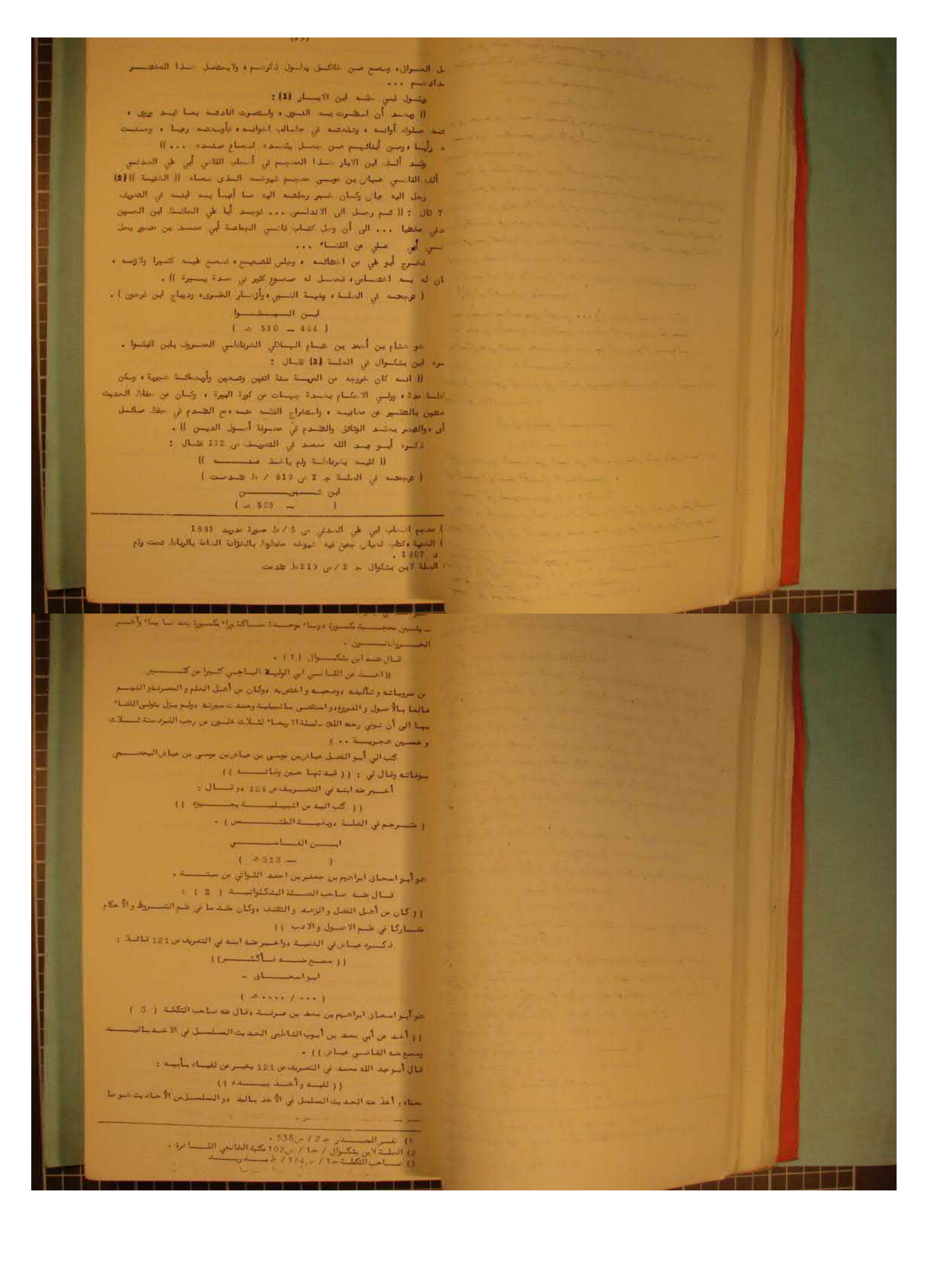
(452 ـــ 514 هـ)

هو الحسين بن محمد السرقسطي القاضي الشهير بابن سكرة ، كان إمام عصره في علم الحديث وأحد الأعلام الأندلسيين .

ذكره الإمام ابن فرحون (4) فقال :

((كان حافظاً ـ للحديث وأسماء رجاله وعلله ، وكان إماماً في الفقه مولده بقرب قسطة وقرأ بها القرآن على أبي الحسين بن محمد صاحب أبي عمر الداني ، وقرأ على غيره من

1) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ج 2 / ص 53 / ط 1 .
2) نقلاً عن أزهار الرياض للمقري ، ج 3 ص 143 / ط القاهرة .
3) الصلة لابن بشكوال ، ج 1 / ص 142 ط ...
4) الديباج لابن فرحون ص 104 / ط 1 لسنة 1329 هـ .



ل العراق، وسمع من خلائق يطول ذكرهم، ولايحصل هذا المختصر
تعدادهم ...

يقول فيه ابن الابار (1) :

((وجد أن استقرت به النوى، واستقرت الادلة بما قيد وقرر، به سلوك أوانه، وشغلته في طالب اخوانه، تأويحته رعيا، وسنت رأيها، ومن أبنائهم من جعل يقصده لسماع ضبطه ...))

وقد ألف ابن الابار هذا المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي الف القاضي عياض بن موسى معجم شيوخه الذي سماه ((الغنية)) (2) رحل اليه عياض وكان غير رحلته اليه ما أبها به ابنه في التعريف
7 قال : ((ثم رحل الى الاندلس ... فوجد أبا علي الحافظ ابن الحسين دفي مختفيا ... الى أن وصل كتاب قاضي الجماعة أبي محمد بن منصور بحل نمي أبي علي من القضاء ...

فخرج أبو علي من اختفائه، وجلس للتصحيح، فسمع عليه كثيرا ولازمه، ان له به اختصاص، فحصل له مسموع كثير في مدة يسيرة)) .

(ترجمته في الصلة، وبغية الملتمس، وأزهار الرياض، وديباج ابن فرحون) .

ابن البقوا

(444 ـ 530 هـ)

هو هشام بن أحمد بن هشام الهلالي الغرناطي المعروف بابن البقوا .
ذكره ابن بشكوال في الصلة (3) فقال :

((انه كان خروجه من الرهبة سنة اثنين وعشرين وأربعمائة هجرية، وسكن [illegible] مدة، وولي الاحكام بعدة جهات من كورة البيرة، وكان من حفاظ الحديث معنين بالتفسير عن معانيه، واستخراج الفقه منه، مع التقدم في حفظ مسائل الرأي، والبصر بعقد الوثائق والتقدم في معرفة أصول الدين)) .

ذكره أبو عبد الله محمد في التعريف ص 132 فقال :

((لقيته بغرناطة ولم يأخذ عنه))

(ترجمته في الصلة ج 2 ص 619 / ط مدريد)

ابن شبرين

(ـ 503 هـ)

---

1) معجم أصحاب أبي علي الصدفي ص 5 / ط صورة مدريد 1885
2) الغنية، كتاب لعياض جمع فيه شيوخه مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 1307 .
3) الصلة لابن بشكوال ج 2 / ص 217 ط مدريد

ـ بشين معجمة مكسورة، وباء موحدة ساكنة وراء مكسورة بعدها ياء وآخره الحروف نون .

قال عنه ابن بشكوال (1) .

((أخذ عن القاضي أبي الوليد الباجي كثيرا من كثير من مروياته وتآليفه، وصحبه واختص به، وكان من أهل العلم والمعرفة والفهم عالما بالأصول والفروع، واستقضي باشبيلية وحمدت سيرته، ولم يزل يتولى القضاء بها الى أن توفي رحمه الله ليلة الاربعاء لثلاث خلون من رجب الفرد سنة ثلاث وخمسين هجرية ..))

كتب الي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي بوفاته وقال لي : ((لقيته بها حين وفاته))

أخبر عنه ابنه في التعريف ص 124، وقال :

((كتب اليه من اشبيلية بجزء))

(مترجم في الصلة، وبغية الملتمس) .

ابن القاسي

(ـ 513 هـ)

هو أبو اسحاق ابراهيم بن جعفر بن احمد اللواتي من سبتة .

قال عنه صاحب الصلة البشكوالية (2) :

((كان من أهل الفضل والزهد والتقشف، وكان متقدما في علم الشروط والأحكام مشاركا في علم الاصول والادب))

ذكره عياض في الغنية، واخبر عنه ابنه في التعريف ص 121 قائلا :

((سمع منه فأكثر))

ابو اسحاق ـ

(... / .... هـ)

هو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن عرفة، وقال عنه صاحب التكملة (3)

((أخذ عن أبي محمد بن أيوب الشاطبي الحديث المسلسل في الاخذ باليد وسمع منه القاضي عياض)) .

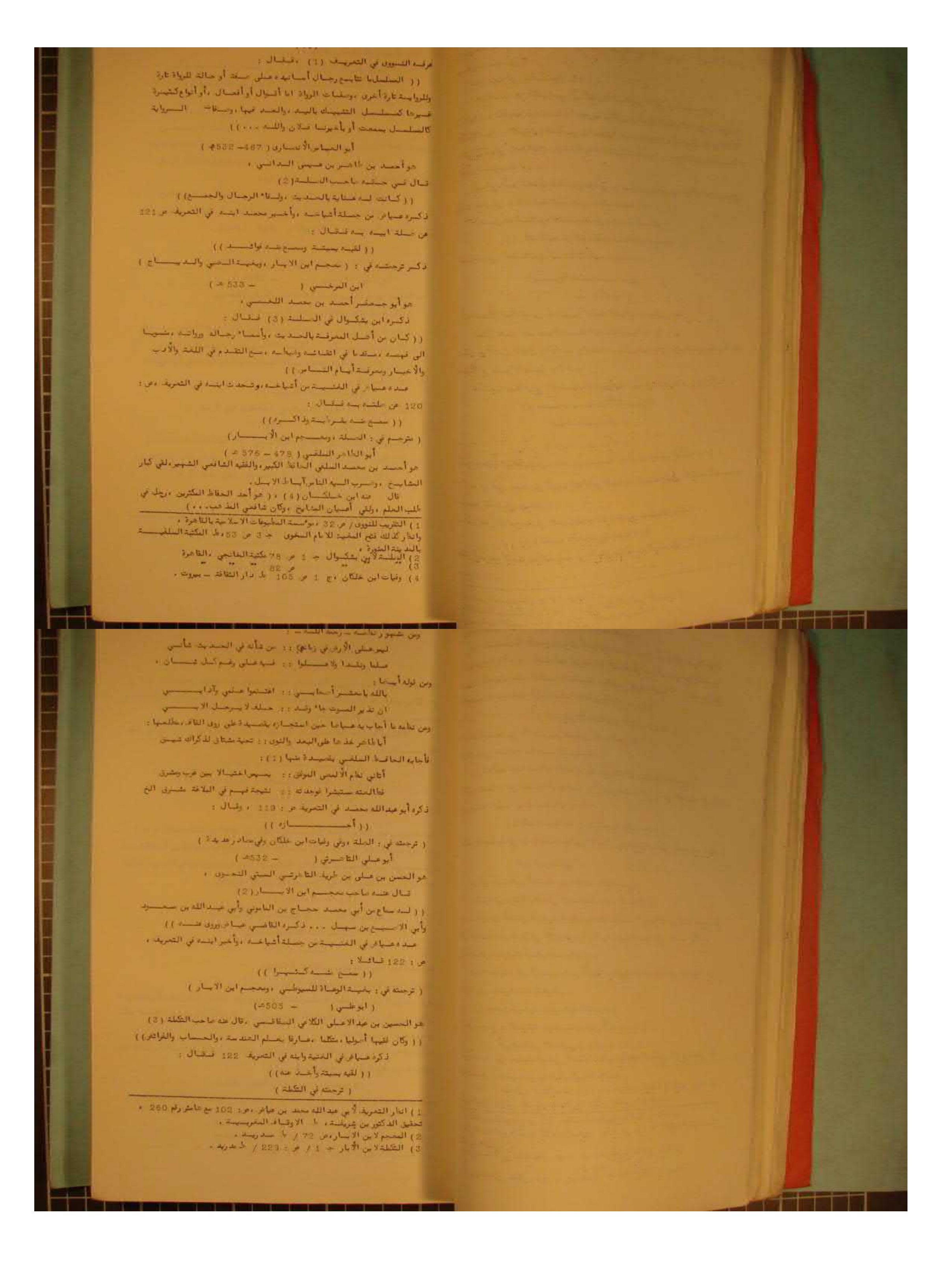
قال أبو عبد الله محمد في التعريف ص 121 يخبر عن لقياه بأبيه :

((لقيه وأخذ بيده))

معناه : أخذ عنه الحديث المسلسل في الأخذ باليد، والمسلسل من الأحاديث هو ما

---

1) نفس المصدر ج 2 / ص 538 .
2) الصلة لابن بشكوال / ج 1 / ص 102 مكتبة الخانجي القاهرة .
3) صاحب التكملة ج 1 / ص 174 / ط مدريد



عرفه النووي في التقريب (1) ، فقال :

((المسلسل ما تتابع رجال أسانيده على صفة أو حالة للرواة تارة وللرواية تارة أخرى ، وصفات الرواة اما أقوال أو أفعال ، أو أنواع كثيرة غيرها كمسلسل التشبيك باليد ، والعد فيها ، وصفات الرواية كالمسلسل بسمعت أو بأخبرنا فلان والله ...))

أبو العباس الأنصاري (467 - 532 هـ)

هو أحمد بن طاهر بن عيسى الداني ،

قال في حقه صاحب الصلة (2)

((كانت له عناية بالحديث ، ولقاء الرجال والجمع))

ذكره عياض من جملة أشياخه ، وأخبر محمد ابنه في التعريف ص 121 عن صلة أبيه به فقال :

((لقيه بمرسية وسمع منه فوائد))

ذكر ترجمته في : (معجم ابن الابار ، وبغية الملتمس والديباج)

ابن المرخي (- 533 هـ)

هو أبو جعفر أحمد بن محمد اللخمي ،

ذكره ابن بشكوال في الصلة (3) فقال :

((كان من أهل المعرفة بالحديث ، وأسماء رجاله ورواته ، منسوبا الى فهمه ، مقدما في انتقاده وضبطه ، مع التقدم في اللغة والأدب والأخبار ومعرفة أيام الناس))

عده عياض في الغنية من أشياخه ، وتحدث ابنه في التعريف ، ص : 120 عن صلته به فقال :

((سمع منه بقرطبة وذاكره))

(مترجم في : الصلة ، ومعجم ابن الأبار)

أبو الطاهر السلفي (478 - 576 هـ)

هو أحمد بن محمد السلفي الحافظ الكبير ، والفقيه الشافعي الشهير ، لقي كبار المشايخ ، وضرب اليه الناس آباط الابل .

قال عنه ابن خلكان (4) : ((هو أحد الحفاظ المكثرين ، رحل في طلب العلم ، ولقي أعيان المشايخ ، وكان شافعي المذهب ...))

1) التقريب للنووي / ص 32 ، مؤسسة المطبوعات الاسلامية بالقاهرة ، وانظر كذلك فتح المغيث للامام السخاوي ج 3 ص 53 ، ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
2) الصلة لابن بشكوال ج 1 ص 78 مكتبة الخانجي ، القاهرة
3) " " " " ص 82
4) وفيات ابن خلكان ، ج 1 ص 105 ط دار الثقافة - بيروت .

ومن شعره رحمه الله - :

ليس على الأرض في زماني :: من شأنه في الحديث شأني
علما ونقدا ولا علوا :: فيه على رغم كل شاني .

ومن قوله أيضا :

بالله يا معشر أصحابي :: احتملوا عني وآدابي
ان تدبر الصوت جاء وقد :: حل لا يرحل الابي

ومن تمامه ما أجاب به عياضا حين استجازه بقصيدة على روي القاف ، مطلعها :

أيا طاهر خذها على البعد والنوى :: تحية مشتاق لذكراك شيق

فأجابه الحافظ السلفي بقصيدة منها (1) :

أتاني نظام الألمعي الموفق :: يسير اختيالا بين غرب ومشرق
فطالعته مستبشرا فوجدته :: نتيجة فهم في البلاغة مشرق الخ

ذكره أبو عبد الله محمد في التعريف ص : 113 ، وقال :

((أجازه))

(ترجمته في : الصلة ، وفي وفيات ابن خلكان وفي مصادر عديدة)

أبو علي الطرطوشي (- 532 هـ)

هو الحسن بن علي بن طريف الطرطوشي السبتي النحوي ،

قال عنه صاحب معجم ابن الابار (2)

((له سماع من أبي محمد حجاج بن المأموني وأبي عبد الله بن سعدون وأبي الاصبغ بن سهل ... ذكره القاضي عياض وروى عنه))

عده عياض في الغنية من جملة أشياخه ، وأخبر ابنه في التعريف ، ص : 122 قائلا :

((سمع منه كثيرا))

(ترجمته في : بغية الوعاة للسيوطي ، ومعجم ابن الابار)

(أبو علي (- 505 هـ)

هو الحسين بن عبد الاعلى الكلاعي السفاقسي ، قال عنه صاحب التكملة (3)

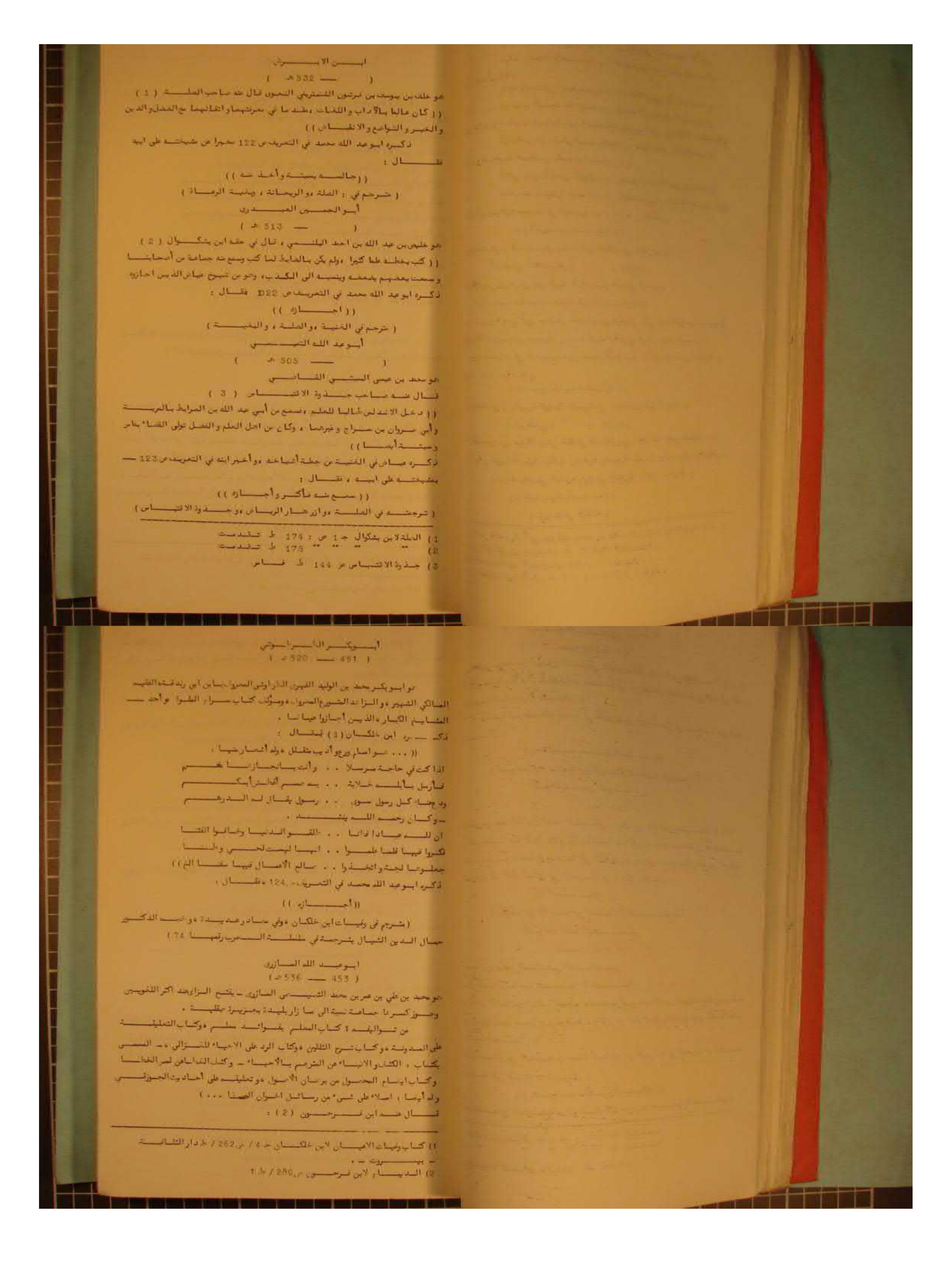
((وكان فقيها أصوليا ، متكلما ، عارفا بعلم الهندسة ، والحساب والفرائض))

ذكره عياض في الغنية وابنه في التعريف 122 فقال :

((لقيه بسبتة وأخذ عنه))

(ترجمته في التكملة)

1) انظر التعريف لأبي عبد الله محمد بن عياض ، ص : 102 مع هامش رقم 260 ، تحقيق الدكتور بن شريفة ، ط الاوقاف المغربية .
2) المعجم لابن الابار ، ص 72 / ط مدريد .
3) التكملة لابن الأبار ج 1 / ص : 223 / ط مدريد .



ابن الابرش

(— 532 هـ)

هو خلف بن يوسف بن فرتون الشنتريني النحوي قال عنه صاحب الصلة (1)

((كان عالما بالآداب واللغات ، مقدما في معرفتهما واتقانهما مع الفضل والدين والخير والتواضع والانقباض))

ذكره ابو عبد الله محمد في التعريف ص 122 مخبرا عن مشيخته على ابيه فقال :

((جالسته بمنيته وأخذ عنه))

(ترجم في : الصلة ، والريحانة ، وبغية الوعاة)

أبو الحسين العبدري

(— 513 هـ)

هو خليص بن عبد الله بن احمد البلنسي ، قال في حقه ابن بشكوال (2)

((كتب بخطه علما كثيرا ، ولم يكن بالحافظ لما كتب وسمع منه جماعة من أصحابنا وسمعنا بعضهم يضعفه وينسبه الى الكذب ، وهو من شيوخ عياض الذين اجازوه

ذكره ابو عبد الله محمد في التعريف ص 122 فقال :

((اجازه))

(ترجم في الغنية ، والصلة ، والبغية)

أبو عبد الله التميمي

(— 505 هـ)

هو محمد بن عيسى السبتي الفاسي

قال عنه صاحب جذوة الاقتباس (3)

((دخل الاندلس طالبا للعلم ، فسمع من أبي عبد الله بن المرابط بالمرية وأبي مروان بن سراج وغيرهما ، وكان من اهل العلم والفضل تولى القضاء بفاس وسبتة أيضا))

ذكره عياض في الغنية من جملة أشياخه ، وأخبر ابنه في التعريف ص 123 — بمشيخته على ابيه ، فقال :

((سمع منه مذاكرة وأجازه))

(ترجمته في الصلة ، وازهار الرياض ، وجذوة الاقتباس)

1) الصلة لابن بشكوال ج 1 ص : 174 ط تقدمت

2) " " " " 175 ط تقدمت

3) جذوة الاقتباس ص 144 ط فاس

أبو بكر الطرطوشي

(451 — 520 هـ)

هو ابو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المعروف بابن أبي رندقة الفقيه المالكي الشهير ، والزاهد المشهور المعروف ، ومؤلف كتاب سراج الملوك وأحد المشايخ الكبار الذين أجازوا عياضا .

ذكره ابن خلكان (1) فقال :

((... كان اماما ورعا وأديبا متقللا ، وله أشعار منها :

اذا كنت في حاجة مرسلا .. وأنت بانجازها مغرم

فأرسل بأكمه خلابة .. به صمم أغطش أبكم

ودع عنك كل رسول سوى .. رسول يقال له الدرهم

وكان رحمه الله ينشد .

ان لله عبادا فطنا .. طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا .. انها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا .. صالح الأعمال فيها سفنا الخ))

ذكره ابو عبد الله محمد في التعريف ص 124 ، فقال :

((أجازه))

(ترجم في وفيات ابن خلكان ، وفي مصادر عديدة ، وأفرده الدكتور جمال الدين الشيال بترجمة في سلسلة أعلام العرب رقمها 74)

ابو عبد الله المازري

(453 — 536 هـ)

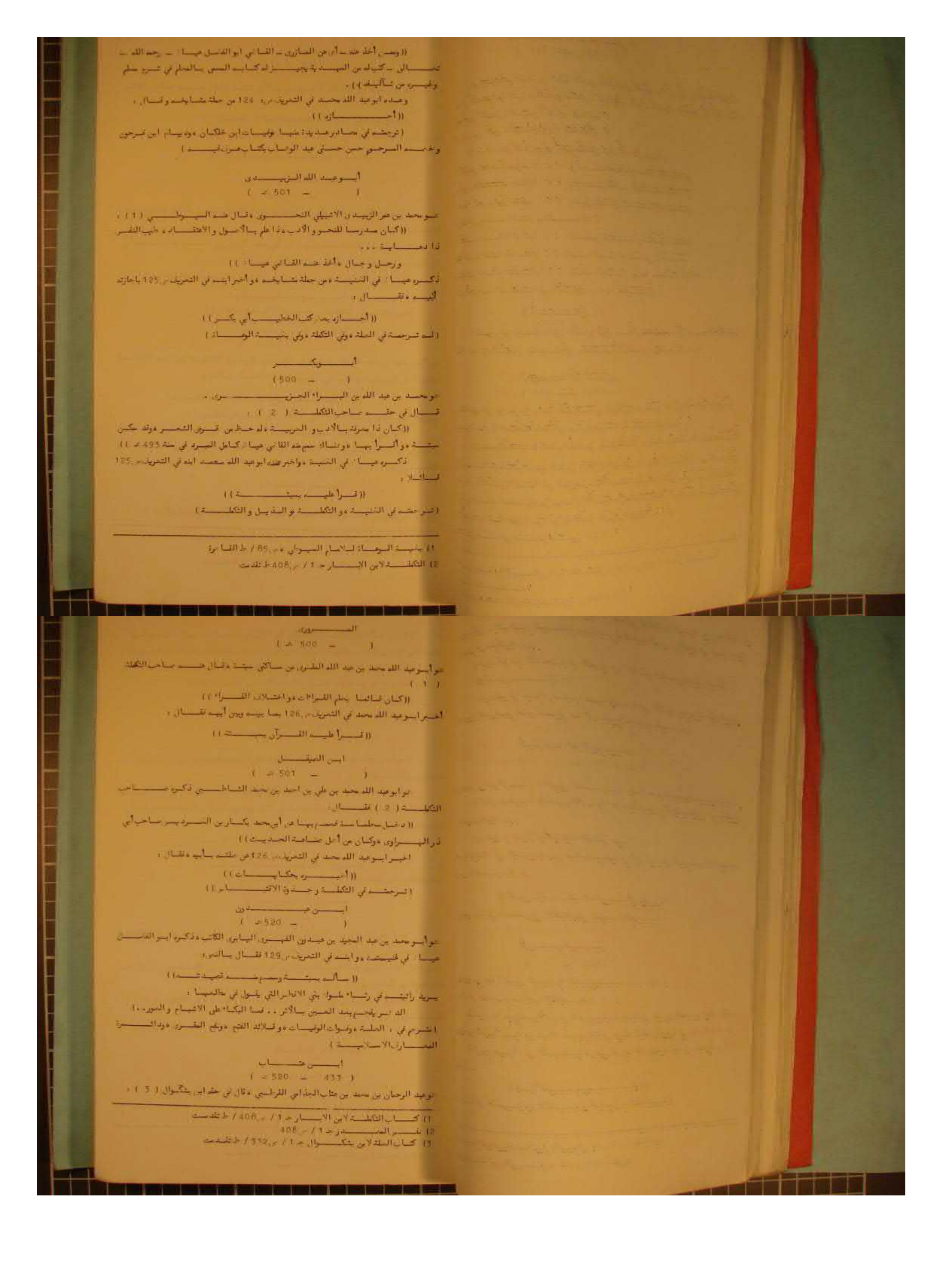
هو محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري — بفتح الزاي عند اكثر اللغويين وجوز كسرها جماعة نسبة الى مازر بليدة بجزيرة صقلية .

من تواليفه : كتاب المعلم بفوائد مسلم ، وكتاب التعليقة على المدونة ، وكتاب شرح التلقين ، وكتاب الرد على الاحياء للغزالي — المسمى بكتاب : الكشف والانباء عن المترجم بالاحياء — وكتاب النكت القاطعة في لمر الخطأ وكتاب ايضاح المحصول من برهان الاصول ، وتعليقه على أحاديث الجوزقي وله أيضا ، املاء على شيء من رسائل اخوان الصفا ...)

قال عنه ابن فرحون (2) :

1) كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ج 4 / ص 262 / ط دار الثقافة — بيروت — .

2) الديباج لابن فرحون ص 280 / ط 1



((وممن أخذ عنه ـ أي عن المازري ـ القاضي ابو الفضل عياض ـ رحمه الله ـ تعالى ـ كتب له من المهدية يجيز له كتابه المعلم بفوائد مسلم في شرح مسلم وغيره من تآليفه)).

وعده ابو عبد الله محمد في التعريف ص 124 من جملة مشايخه وقال:

((أجازه))

(ترجمته في مصادر عديدة منها وفيات ابن خلكان، وديباج ابن فرحون وخصه المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بكتاب عن حياته)

أبو عبد الله الزبيدي

(- 501 هـ)

هو محمد بن عمر الزبيدي الاشبيلي النحوي، قال عنه السيوطي (1):

((كان مدرسا للنحو والأدب، ذا علم بالأصول والاعتقاد، طيب النفس ذا دعابة ...

ورحل وجال، أخذ عنه القاضي عياض))

ذكره عياض في الغنية من جملة مشايخه، وأخبر ابنه في التعريف ص 125 بإجازته إليه، فقال:

((أجازه بعض كتب الخطيب أبي بكر))

(له ترجمة في الصلة، وفي التكملة، وفي بغية الوعاة)

أبو بكر

(- 500)

هو محمد بن عبد الله بن البراء الحجري.

قال في حقه صاحب التكملة (2):

((كان ذا معرفة بالأدب والعربية، له حظ من قرض الشعر، وقد سكن سبتة، وأقرأ بها، وهناك سمع منه القاضي عياض كامل المبرد في سنة 493 هـ))

ذكره عياض في الغنية، وأخبر عنه ابو عبد الله محمد ابنه في التعريف ص 125 قائلا:

((قرأ عليه بسبتة))

(ترجمته في الغنية، والتكملة، والذيل والتكملة)

1) بغية الوعاة للإمام السيوطي ص 85 / ط القاهرة

2) التكملة لابن الابار ج 1 / ص 408 ط تقدمت

المقري

(- 500 هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المقرئ، من ساكني سبتة، قال عنه صاحب التكملة (1)

((كان قائما بعلم القراءات واختلاف القراء))

أخبر ابو عبد الله محمد في التعريف ص 126 بما بينه وبين أبيه فقال:

((قرأ عليه القرآن بسبتة))

ابن الصيقل

(- 501 هـ)

هو ابو عبد الله محمد بن علي بن احمد بن محمد الشاطبي ذكره صاحب التكملة (2) فقال:

((دخل سجلماسة فسمع بها من أبي محمد بكار بن البرد صاحب أبي ذر الهروي، وكان من أهل صناعة الحديث))

اخبر ابو عبد الله محمد في التعريف ص 126 عن علاقته بأبيه فقال:

((أجازه بكتابات))

(ترجمته في التكملة وجذوة الاقتباس)

ابن عبدون

(- 520 هـ)

هو أبو محمد بن عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري الكاتب، ذكره ابو الفضل عياض في غنيته، وابنه في التعريف ص 129 فقال بالنص:

((سأله بسبتة وحضر قصيدته))

يريد رائيته في رثاء ملوك بني الافطس التي يقول في مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر .. فما البكاء على الاشباح والصور..

(ترجمته في: الصلة، وفوات الوفيات، وقلائد العقيان، ونفح الطيب، ودائرة المعارف الاسلامية)

ابن عتاب

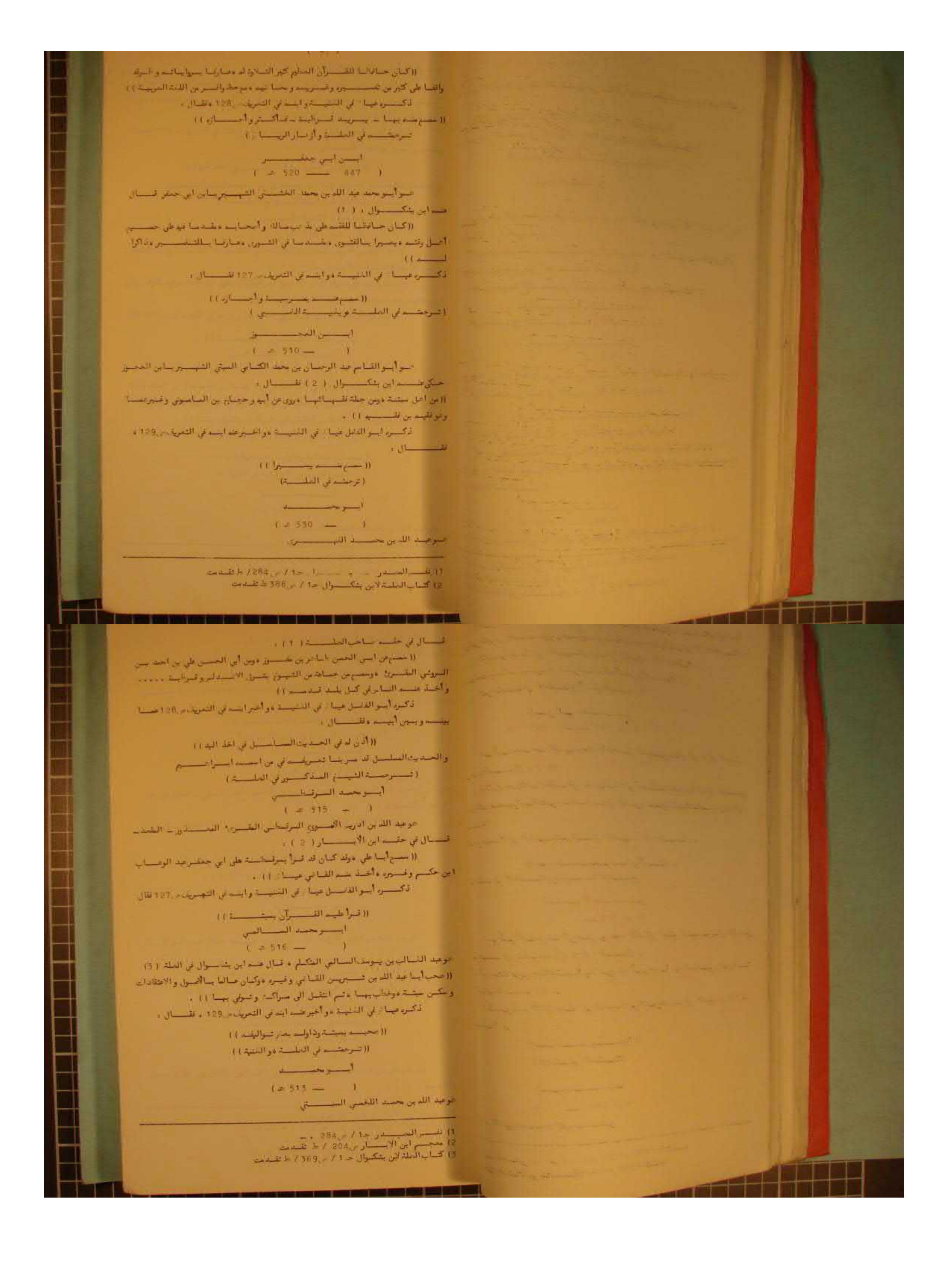
(433 - 520 هـ)

هو عبد الرحمان بن محمد بن عتاب الجذامي القرطبي، قال في حقه ابن بشكوال (3):

1) كتاب التكملة لابن الابار ج 1 / ص 406 / ط تقدمت

2) نفس المصدر ج 1 / ص 408

3) كتاب الصلة لابن بشكوال ج 1 / ص 332 / ط تقدمت



((كان حافظا للقرآن العظيم كثير التلاوة له ، عارفا برواياته وامرئ واقفا على كثير من تفسيره وغريبه ونحا فيه ، مع حظ وافر من اللغة العربية))

ذكره عياض في الغنية وابنه في التعريف ص128 ، فقال :

((سمع منه بها - يريد قرطبة - فأكثر وأجازه))

ترجمته في الصلة وأزهار الرياض)

ابن أبي جعفر

(447 — 520 هـ)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الخشني الشهير بابن أبي جعفر قال عنه ابن بشكوال : (1)

((كان حافظا للفقه على مذهب مالك وأصحابه ، مقدما فيه على جميع أهل وقته ، بصيرا بالفتوى ، مقدما في الشورى ، عارفا بالتفسير ، ذاكرا له))

ذكره عياض في الغنية ، وابنه في التعريف ص 127 فقال :

((سمع منه بمرسية وأجازه))

(ترجمته في الصلة وبغية الملتمس)

ابن العجوز

(— 510 هـ)

هو أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد الكتامي السبتي الشهير بابن العجوز

حكى عنه ابن بشكوال (2) فقال :

((من أهل سبتة ، ومن جلة فقهائها ، روى عن أبيه وحجاج بن الماموني وغيرهما وتفقه بن فقيه)) .

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، والخبر عنه ابنه في التعريف ص129 ، فقال :

((سمع منه يسيرا))

(ترجمته في الصلة)

أبو محمد

(— 530 هـ)

هو عبد الله بن محمد اللهري

---

1) نفس المصدر ... ج1 / ص284 / ط تقدمت

2) كتاب الصلة لابن بشكوال ج1 / ص388 ط تقدمت

قال في حقه صاحب الصلة (1) :

((سمع من أبي الحسن ... بن ... ، ومن أبي الحسن علي بن أحمد بن الروش المقرئ ، وسمع من جماعة من الشيوخ بشرق الأندلس وقرطبة ..... وأخذ عنه الناس في كل بلد قدمه))

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، وأخبر ابنه في التعريف ص128 عما بينه وبين أبيه ، فقال :

((أذن له في الحديث المسلسل في أخذ اليد))

والحديث المسلسل قد مر بنا تعريفه في من اسمه ابراهيم

(ترجمة الشيخ المذكور في الصلة)

أبو محمد السرقسطي

(— 515 هـ)

هو عبد الله بن ادريس الأموي السرقسطي المقرئ المصدور - الخ

قال في حقه ابن الأبار (2) :

((سمع أبا علي ، وقد كان قد قرأ بسرقسطة على أبي جعفر عبد الوهاب ابن حكم وغيره ، أخذ عنه القاضي عياض)) .

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية وابنه في التعريف ص127 فقال

((قرأ عليه القرآن بسبتة))

أبو محمد السالمي

(— 516 هـ)

هو عبد الله بن يوسف السالمي المتكلم ، قال عنه ابن بشكوال في الصلة (3)

((صحب أبا عبد الله بن ... القاضي وغيره ، وكان عالما بالأصول والاعتقادات وسكن سبتة ، وخطب بها ، ثم انتقل الى مراكش وتوفي بها)) .

ذكره عياض في الغنية ، وأخبر عنه ابنه في التعريف ص129 ، فقال :

((صحبه بسبتة وذاكره بعض تواليفه))

((ترجمته في الصلة ، والغنية))

أبو محمد

(— 513 هـ)

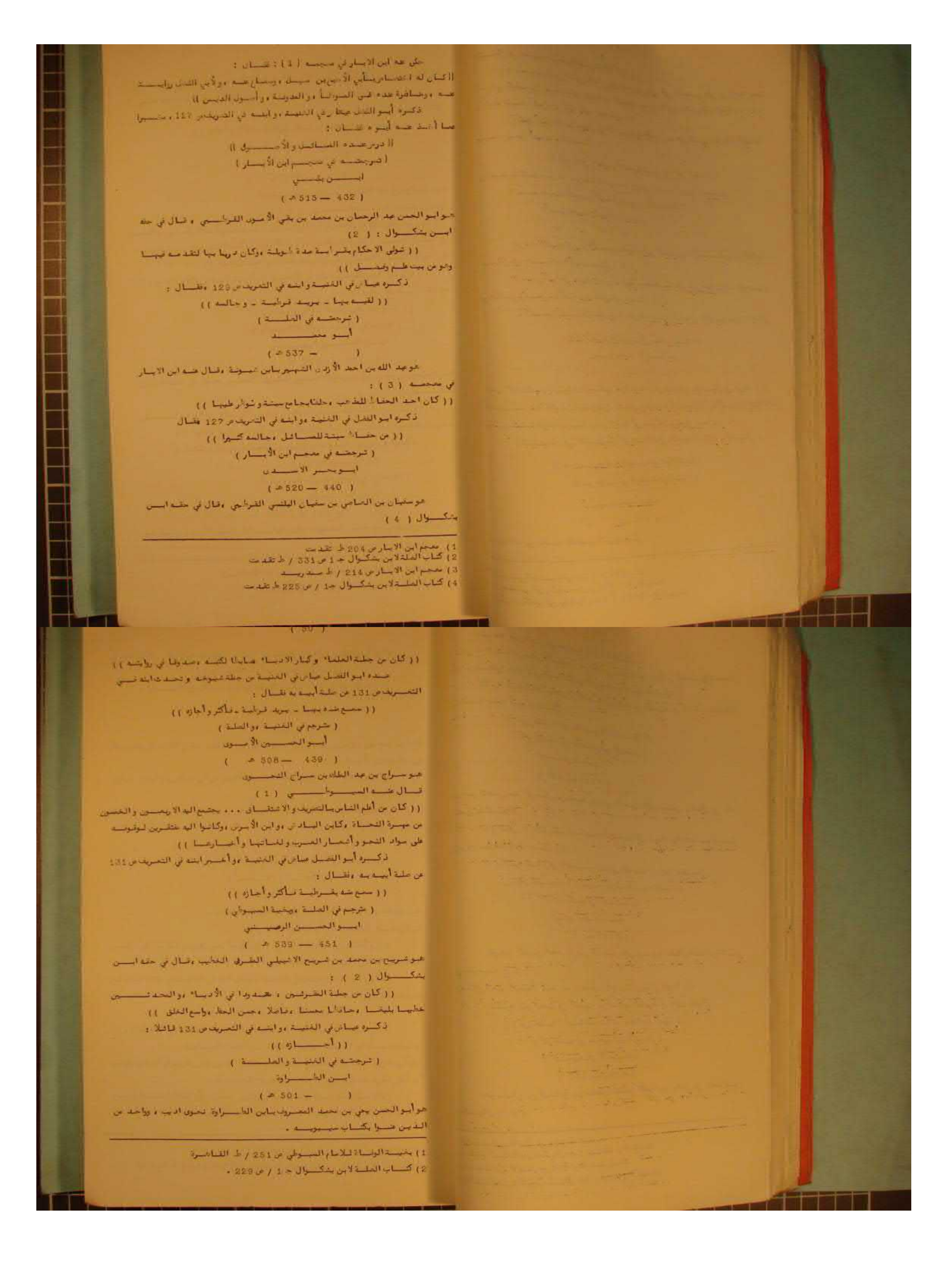
هو عبد الله بن محمد اللخمي السبتي

---

1) نفس المصدر ج1 / ص284 .

2) معجم ابن الأبار ص204 / ط تقدمت

3) كتاب الصلة لابن بشكوال ج1 / ص369 / ط تقدمت



حكى عنه ابن الابار في معجمه (1) : فقال :

((كان له اختصاص بأبي الأصبغ بن سهل ، وسماع عنه ، ولأبي الفضل روايته عنه ، ومناظرة عنده في الموطأ ، والمدونة ، وأصول الفقه))

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، وابنه في التعريف ص 127 ، مخبرا عما أخذ عنه أبوه فقال :

((دور عنده المسائل والأصول))

(ترجمته في معجم ابن الأبار)

ابـــن بقــــي

(432 — 515 هـ)

هو ابو الحسن عبد الرحمان بن محمد بن بقي الأموي القرطبي ، قال في حقه ابن بشكوال : (2)

((تولى الاحكام بقرطبة مدة طويلة ، وكان دربا بها لتقدمه فيها وهو من بيت علم وفضل))

ذكره عياض في الغنية وابنه في التعريف ص 129 ، فقال :

((لقيه بها - يريد قرطبة - وحالمه))

(ترجمته في الصلة)

أبـو محمـــد

(— 537 هـ)

هو عبد الله بن احمد الأزدي الشهير بابن عموضة ، قال عنه ابن الابار في معجمه (3) :

((كان احد الحفاظ للمذهب ، حلقا بجامع سبتة وشوار طيبها))

ذكره ابو الفضل في الغنية ، وابنه في التعريف ص 127 فقال

((من حفاظ سبتة للمسائل ، حالمه كثيرا))

(ترجمته في معجم ابن الأبار)

ابو بحر الاسدي

(440 — 520 هـ)

هو سفيان بن العاصي بن سفيان الملنبي القرطبي ، قال في حقه ابن بشكوال (4)

1) معجم ابن الابار ص 204 ط تقدمت
2) كتاب الصلة لابن بشكوال جـ 1 ص 331 / ط تقدمت
3) معجم ابن الابار ص 214 / ط مدريد
4) كتاب الصلة لابن بشكوال جـ 1 / ص 225 ط تقدمت

((كان من جلة العلماء وكبار الادباء ضابطا لكتبه ، صدوقا في روايته))

عده ابو الفضل عياض في الغنية من جلة شيوخه وتحدث ابنه في التعريف ص 131 عن صلة أبيه به فقال :

((سمع منه بها - يريد قرطبة - فأكثر وأجازه))

(مترجم في الغنية ، والصلة)

أبو الحسين الأسوى

(439 — 508 هـ)

هو سراج بن عبد الملك بن سراج النحوي

قال عنه السيوطي (1)

((كان من أعلم الناس بالتصريف والاشتقاق ... يجتمع اليه الاربعون والخمسون من مهرة النحاة ، كابن الباذش ، وابن الأبرش ، وكانوا اليه مفتقرين لوقوفه على مواد النحو وأشعار العرب ولغاتها وأخبارها))

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، وأخبر ابنه في التعريف ص 131 عن صلة أبيه به ، فقال :

((سمع منه بقرطبة فأكثر وأجازه))

(مترجم في الصلة ، وبغية السيوطي)

ابو الحسن الرصيني

(451 — 539 هـ)

هو شريح بن محمد بن شريح الاشبيلي المقرئ الخطيب ، قال في حقه ابن بشكوال (2) :

((كان من جلة المقرئين ، معدودا في الأدباء ، والمحدثين خطيبا بليغا ، حافظا محسنا ، فاضلا ، حسن الخط ، واسع الخلق))

ذكره عياض في الغنية ، وابنه في التعريف ص 131 قائلا :

((أجازه))

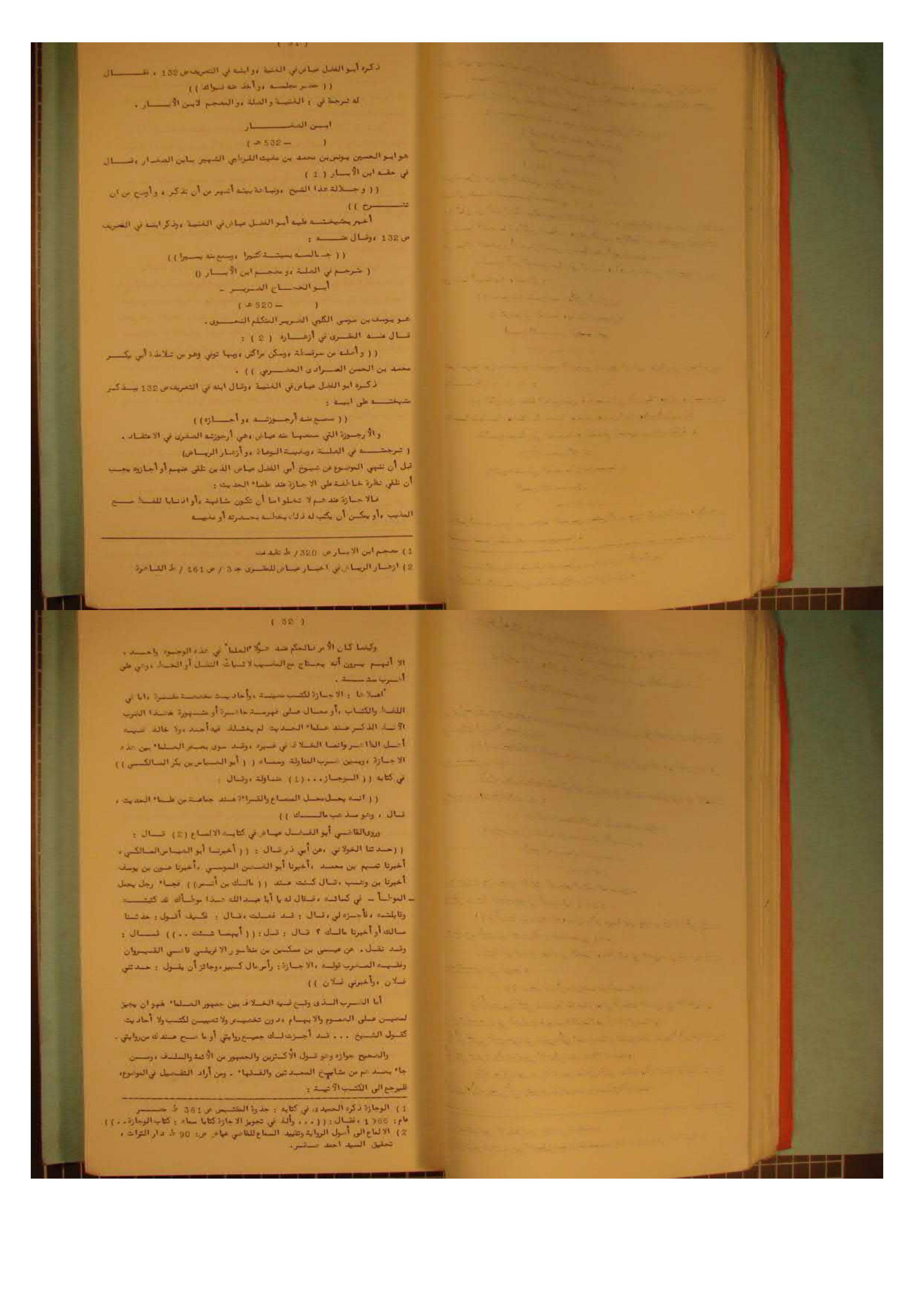
(ترجمته في الغنية والصلة)

ابن الطراوة

(— 501 هـ)

هو أبو الحسن يحي بن محمد المعروف بابن الطراوة نحوي اديب ، وواحد من الذين عنوا بكتاب سيبويه .

1) بغية الوعاة للامام السيوطي ص 251 / ط القاهرة
2) كتاب الصلة لابن بشكوال جـ 1 / ص 229 .



ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، وابنه في التعريف ص 132 ، فقال :

((حضر مجلسه ، وأخذ عنه فوائد))

له ترجمة في : الغنية والصلة ، والمعجم لابن الأبار .

ابن الصفار

(- 532 هـ)

هو أبو الحسين يونس بن محمد بن مغيث القرطبي الشهير بابن الصفار ، قال في حقه ابن الأبار (1) :

((وجلالة هذا الشيخ ، ونباهة بيته أشهر من أن تذكر ، وأوضح من أن تشرح))

أخبر بمشيخته عليه أبو الفضل عياض في الغنية ، وذكر ابنه في التعريف ص 132 ، وقال عنه :

((جالسه بسبتة كثيرا ، وسمع منه يسيرا))

(ترجمته في الصلة ، ومعجم ابن الأبار)

أبو الحجاج الضرير .

(- 520 هـ)

هو يوسف بن موسى الكلبي الضرير المتكلم النحوي .

قال عنه المقري في أزهاره (2) :

((وأصله من سرقسطة ، وسكن مراكش ، وبها توفي وهو من تلامذة أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي)) .

ذكره أبو الفضل عياض في الغنية ، وقال ابنه في التعريف ص 132 بعد ذكر مشيخته على أبيه :

((سمع منه أرجوزته ، وأجازه))

والأرجوزة التي سمعها منه عياض ، هي أرجوزته الصغرى في الاعتقاد .

(ترجمته في الصلة ، وبغية الوعاة ، وأزهار الرياض)

قبل أن ننهي الموضوع من شيوخ أبي الفضل عياض الذين تلقى عنهم أو أجازوه يجب أن نلقي نظرة خاطفة على الاجازة عند علماء الحديث :

فالاجازة عندهم لا تخلو اما أن تكون شافهة ، أو اذنا للقاء مع المغيب ، أو يمكن أن يكتب له ذلك بخطه بحضرته أو مغيبه

---

1) معجم ابن الابار ص 320 / ط تقدمت

2) ازهار الرياض في اخبار عياض للمقري ج 3 / ص 161 / ط القاهرة

وكيفما كان الأمر فالحكم عند هؤلاء العلماء في هذه الوجوه واحد ، الا أنهم يرون أنه يحتاج مع المغيب لاثبات النقل أو الخط ، وهي على أضرب ستة .

أعلاها : الاجازة لكتب معينة ، وأحاديث مخصصة مفسرة اما في اللفظ والكتاب ، أو محال على فهرسة حاضرة أو مشهورة فهذا الضرب الآنف الذكر عند علماء الحديث لم يختلف فيه أحد ، ولا خالف فيه أهل الظاهر وانما الخلاف في غيره ، وقد سوى بعض العلماء بين هذه الاجازة ، وبين ضرب المناولة وسماه ((أبو العباس بن بكر المالكي)) في كتابه ((الوجازة ... (1) مناولة ، وقال :

((انه يحل محل السماع والقراءة عند جماعة من علماء الحديث ، قال ، وهو مذهب مالك))

وروى القاضي أبو الفضل عياض في كتابه الالماع (2) قال :

((حدثنا الخولاني ، عن أبي ذر قال : ((أخبرنا أبو العباس المالكي ، أخبرنا تميم بن محمد ، أخبرنا أبو الحسن السوسي ، أخبرنا عون بن يوسف أخبرنا بن وهب ، قال كنت عند ((مالك بن أنس)) فجاء رجل يحمل - الموطأ - في كسائه ، فقال له يا أبا عبد الله هذا موطأك قد كتبته وقابلته ، فأجزه لي ، قال : قد فعلت ، قال : فكيف أقول : حدثنا مالك أو أخبرنا مالك ؟ قال : قل : ((أيهما شئت ..)) قال : وقد نقل ، عن عيسى بن مسكين بن منظور الافريقي قاضي القيروان وفقيهه المشهور قوله ، الاجازة : رأس مال كبير ، وجائز أن يقول : حدثني فلان ، وأخبرني فلان))

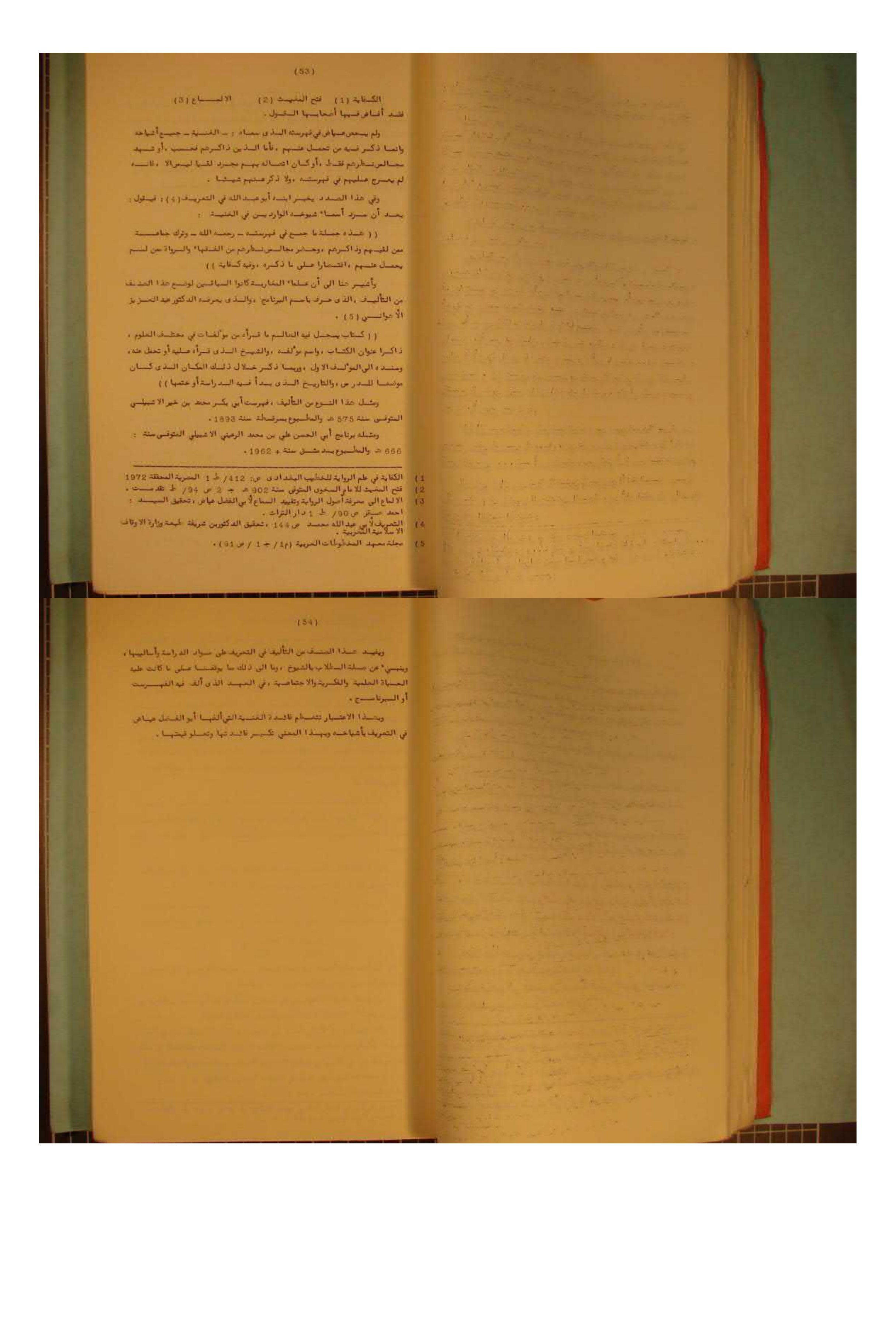
أما الضرب الذي وقع فيه الخلاف بين جمهور العلماء فهو ان يجيز لمعين على العموم والابهام ، دون تخصيص ولا تعيين لكتب ولا أحاديث كقول الشيخ ... قد أجزت لك جميع روايتي أو ما صح عندك من روايتي .

والصحيح جوازه وهو قول الأكثرين والجمهور من الأئمة والسلف ، ومن جاء بعدهم من مشايخ المحدثين والفقهاء . ومن أراد التفصيل في الموضوع، فليرجع الى الكتب الآتية :

---

1) الوجازة ذكره الحميدي في كتابه : جذوة المقتبس ص 361 ط مصر عام : 1366 ، فقال : ((... وألف في تجويز الاجازة كتابا سماه : كتاب الوجازة ..))

2) الالماع الى أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض ص: 90 ط دار التراث ، تحقيق السيد احمد صقر.



الكفاية (1)   فتح المغيث (2)   الالمـــاع (3)
فقد أفاض فيها أصحابها القول .

ولم يحص عياض في فهرسته الذى سماه : ـ الغنية ـ جميع أشياخه وانما ذكر فيه من تحمل عنهم ، فأما الذين ذاكرهم فحسب ، أو شهد مجالس تناظرهم فقط ، أو كان اتصاله بهم مجرد لقيا لهم الا ، فانه لم يعرج عليهم في فهرسته ، ولا ذكر عنهم شيئا .

وفي هذا الصدد يخبر ابنه أبو عبد الله في التعريف (4) : فيقول : بعد أن سرد أسماء شيوخه الواردين في الغنية :

((هذه جملة ما جمع في فهرسته ـ رحمه الله ـ وترك جماعة ممن لقيهم وذاكرهم ، وحضر مجالس تناظرهم من الفقهاء والرواة ممن لم يحمل عنهم ، اقتصارا على ما ذكره ، وفيه كفاية))

وأشير هنا الى أن علماء المغاربة كانوا السابقين لوضع هذا الصنف من التأليف ، الذى عرف باسم البرنامج ، والذى يعرفه الدكتور عبد العزيز الأهواني (5) .

((كتاب يسجل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم ، ذاكرا عنوان الكتاب ، واسم مؤلفه ، والشيخ الذى قرأه عليه أو تحمل عنه ، وسنده الى المؤلف الاول ، وربما ذكر خلال ذلك المكان الذى كان موضعا للدرس ، والتاريخ الذى بدأ فيه الدراسة أو ختمها))

ومثل هذا النوع من التأليف ، فهرست أبي بكر محمد بن خير الاشبيلي المتوفى سنة 575 هـ والمطبوع بسرقسطة سنة 1893 .

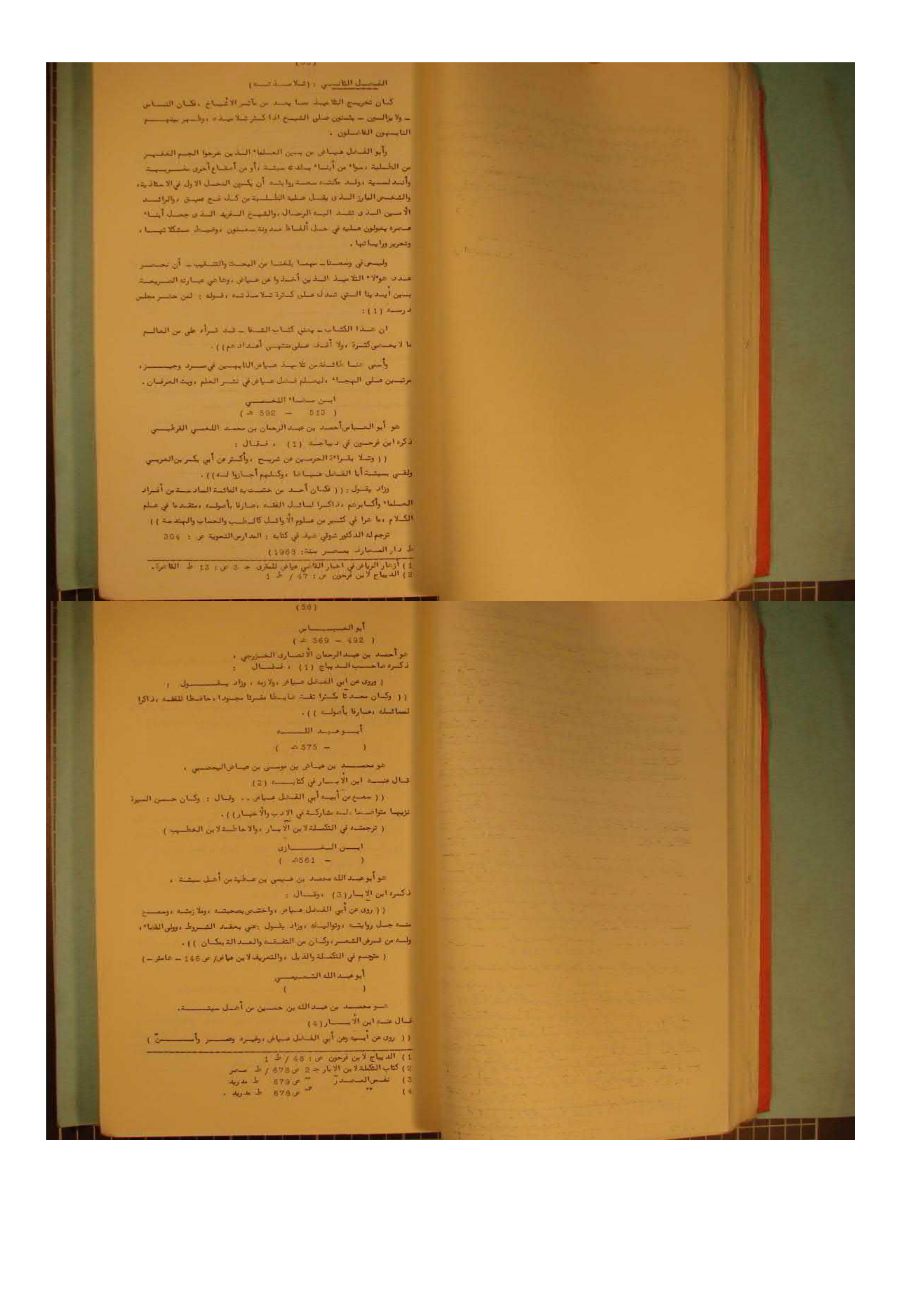
ومثله برنامج أبي الحسن علي بن محمد الرعيني الاشبيلي المتوفى سنة : 666 هـ والمطبوع بدمشق سنة + 1962 .

---

1) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادى ص: 412/ ط 1 المصرية المحققة 1972
2) فتح المغيث للامام السخوى المتوفى سنة 902 هـ ج 2 ص 94/ ط تقدمت .
3) الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع لأبي الفضل عياض ، تحقيق السيد : احمد صقر ص 90/ ط 1 دار التراث .
4) التعريف لأبي عبد الله محمد ص 144 ، تحقيق الدكتورين شريفة لجنة وزارة الاوقاف الاسلامية المغربية .
5) مجلة معهد المخطوطات العربية (م 1/ ج 1 / ص 91) .

ويفيد هذا الصنف من التأليف في التعرف على سواد الدراسة وأساليبها ، وينبيء عن صلة الطلاب بالشيوخ ، وما الى ذلك مما يوقفنا على ما كانت عليه الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية ، في العهد الذى ألف فيه الفهرست أو البرنامج .

وبهذا الاعتبار تتعاظم فائدة الغنية التي ألفها أبو الفضل عياض في التعريف بأشياخه وبهذا المعنى تكبر فائدتها وتعلو قيمتها .



الفصل الثاني : (تلامذته)

كان تخريج التلاميذ مما يعد من مآثر الأشياخ، فكان الناس - ولا يزالون - يثنون على الشيخ اذا كثر تلاميذه، وظهر بينهم النابهون الفاضلون.

وأبو الفضل عياض من بين العلماء الذين خرجوا الجم الغفير من الطلبة، سواء من أبناء بلدة سبتة، أو من أصقاع أخرى مغربية وأندلسية، ولقد مكنته سعة روايته أن يكون المحل الاول في الاستاذية، والشخص البارز الذي يقبل عليه الطلبة من كل فج عميق، والرائد الأمين الذي تشد اليه الرحال، والشيخ الفريد الذي جعل أبناء عصره يعولون عليه في حل ألفاظ مدونة سحنون، وضبط مشكلاتها، وتحرير رواياتها.

وليس في وسعنا - مهما بلغنا من البحث والتنقيب - أن نحصر عدد هؤلاء التلاميذ الذين أخذوا عن عياض، وهاهي عبارة الصريحة بين أيدينا التي تدل على كثرة تلامذته، قوله : لمن حضر مجلس درسه (1) :

ان هذا الكتاب - يعني كتاب الشفا - قد قرأه على من العالم ما لا يحصى كثرة، ولا أقف على منتهى أعدادهم)).

وأسمي هنا طائفة من تلاميذ عياض النابهين في سرد وجيز، مرتبين على الهجاء، ليعلم فضل عياض في نشر العلم، وبث العرفان.

ابن مضاء اللخمي
(513 - 592 هـ)

هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن محمد اللخمي القرطبي ذكره ابن فرحون في ديباجه (1) ، فقال :

((وتلا بقراءة الحرمين عن شريح، وأكثر عن أبي بكر بن العربي ولقي بسبتة أبا الفضل عياضا، وكلهم أجازوا له)).

وزاد يقول : ((فكان أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء وأكابرهم، ذاكرا لمسائل الفقه، عارفا بأصوله، متقدما في علم الكلام، ما عرا في كثير من علوم الأوائل كالطب والحساب والهندسة))

ترجم له الدكتور شوقي ضيف في كتابه : المدارس النحوية ص : 304 ط دار المعارف بمصر سنة: 1968)

1) أزهار الرياض في اخبار القاضي عياض للمقري ج 3 ص : 13 ط القاهرة.
2) الديباج لابن فرحون ص : 47 / ط 1

أبو العباس
(492 - 569 هـ)

هو أحمد بن عبد الرحمان الأنصاري الخزرجي ، ذكره صاحب الديباج (1) ، فقال :

(وروى عن ابي الفضل عياض، ولازمه ، وزاد يقول :

((وكان محدثا مكثرا ثقة ضابطا مقرئا مجودا، حافظا للفقه، ذاكرا لمسائله، عارفا بأصوله)).

أبو عبد الله
(- 575 هـ)

هو محمد بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ، قال عنه ابن الأبار في كتابه (2)

((سمع من أبيه أبي الفضل عياض .. وقال : وكان حسن السيرة نزيها متواضعا، له مشاركة في الادب والأخبار)).

(ترجمته في التكملة لابن الآبار، والاحاطة لابن الخطيب)

ابن الغازي
(- 561هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عطية من أهل سبتة ، ذكره ابن الابار (3) ، وقال :

((روى عن أبي الفضل عياض، واختص بصحبته، وملازمته، وسمع منه جل روايته، وتواليفه، وزاد يقول :عني بعقد الشروط، وولي القضاء، وله من قرض الشعر، وكان من التفقه والعدالة بمكان)).

(مترجم في التكملة والذيل ، والتعريف لابن عياض/ ص 146 - هامش -)

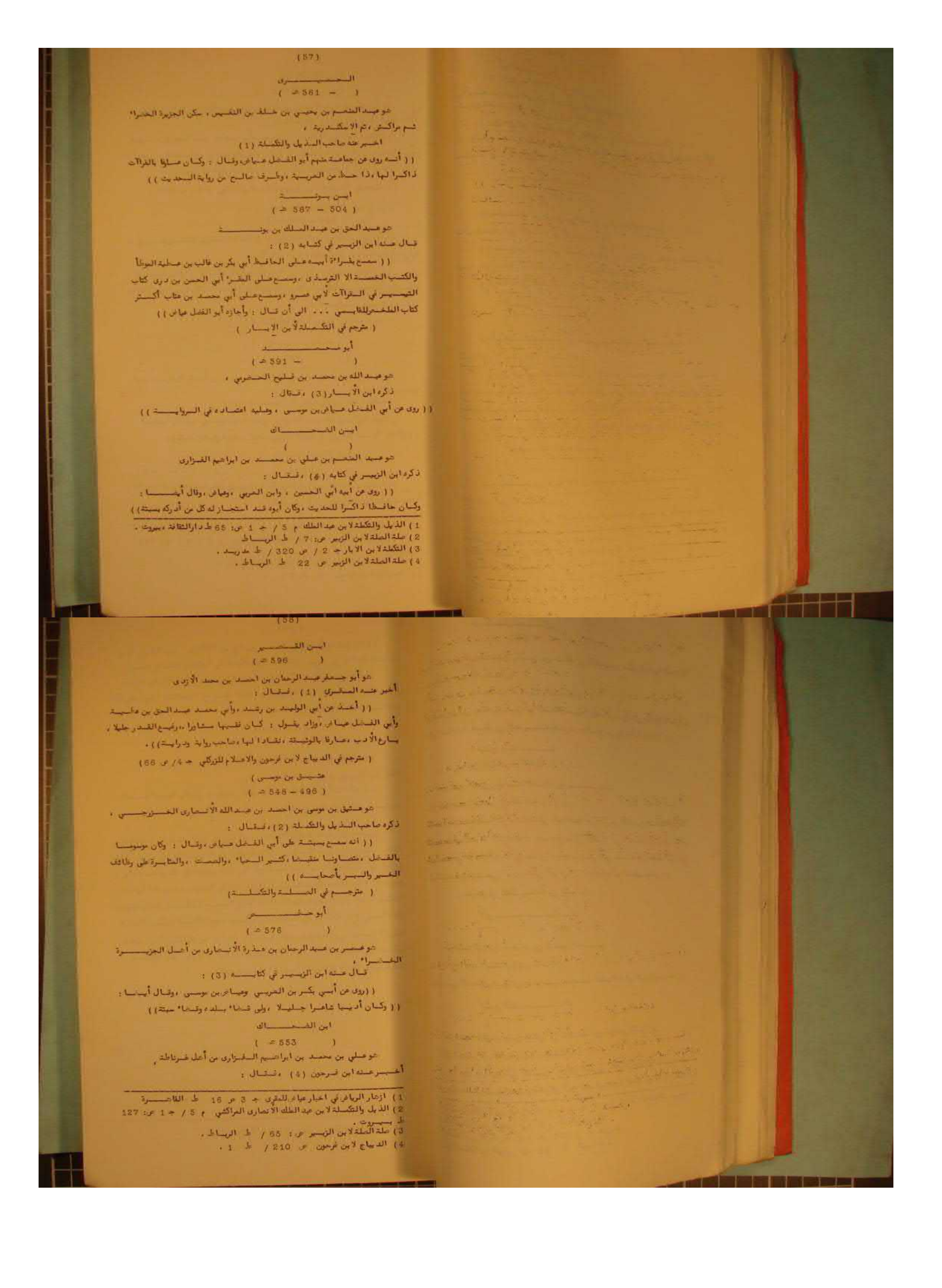
أبو عبد الله التميمي
( )

هو محمد بن عبد الله بن حسين من أهل سبتة.

قال عنه ابن الأبار (4)

((روى عن أبيه وعن أبي الفضل عياض، وغيره وعمر وأسن)

1) الديباج لابن فرحون ص : 48 / ط 1
2) كتاب التكملة لابن الابار ج 2 ص 678 / ط مصر
3) نفس المصدر " ص 679 ط مدريد
4) " " ص 678 ط مدريد .



الحميـــــري
(561 هـ -)

هو عبد المنعم بن يحيى بن خلف بن النفيس ، سكن الجزيرة الخضراء ثم مراكش ، ثم الإسكندرية ،
أخبر عنه صاحب الذيل والتكملة (1)
((أنه روى عن جماعة منهم أبو الفضل عياض ، وقال : وكان عارفا بالقراآت ذاكرا لها ، ذا حظ من العربية ، وطرف صالح من رواية الحديث))

ابـن بونـــة
(567 - 504 هـ)

هو عبد الحق بن عبد الملك بن بونـــة
قال عنه ابن الزبير في كتابه (2) :
((سمع بقراءة أبيه على الحافظ أبي بكر بن غالب بن عطية الموطأ والكتب الخمسة الا الترمذي ، وسمع على المقرئ أبي الحسن بن دري كتاب التيسير في القراآت لأبي عمرو ، وسمع على أبي محمد بن عتاب أكثر كتاب الملخص للقابسي ... الى أن قال : وأجازه أبو الفضل عياض))
(مترجم في التكملة لابن الأبار)

أبو محمـــــد
(591 هـ -)

هو عبد الله بن محمد بن فليح الحضرمي ،
ذكره ابن الأبار (3) ، فقال :
((روى عن أبي الفضل عياض بن موسى ، وعليه اعتماده في الروايـــة))

ابـن الضحـــاك
( )

هو عبد المنعم بن علي بن محمد بن ابراهيم الفزاري
ذكره ابن الزبير في كتابه (4) ، فقال :
((روى عن أبيه أبي الحسين ، وابن العربي ، وعياض ، وقال أيضـا : وكان حافظا ذاكرا للحديث ، وكان أبوه قد استجاز له كل من أدركه بسبتة))

---

1) الذيل والتكملة لابن عبد الملك م 5 / ج 1 ص: 65 ط دار الثقافة ، بيروت .
2) صلة الصلة لابن الزبير ص: 7 / ط الرباط
3) التكملة لابن الابار ج 2 / ص 320 / ط مدريد .
4) صلة الصلة لابن الزبير ص 22 ط الرباط .

ابـن القصـير
(596 هـ)

هو أبو جعفر عبد الرحمان بن أحمد بن محمد الأزدي
أخبر عنه المقري (1) ، فقال :
((أخذ عن أبي الوليد بن رشد ، وأبي محمد عبد الحق بن عطية وأبي الفضل عياض ، وزاد يقول : كان فقيها مشاورا ، رفيع القدر جليلا ، بارع الأدب ، عارفا بالوثيقة ، نقادا لها ، صاحب رواية ودراية)) .
(مترجم في الديباج لابن فرحون والاعلام للزركلي ج 4 / ص 66)

عتيق بن موسى
(548 - 496 هـ)

هو عتيق بن موسى بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الخزرجي ،
ذكره صاحب الذيل والتكملة (2) ، فقال :
((أنه سمع بسبتة على أبي الفضل عياض ، وقال : وكان موسوما بالفضل ، متصاونا منقبضا ، كثير الحياء ، والصمت ، والمثابرة على وظائف الخير والبر بأصحابـه))
(مترجم في الصلـة والتكملـة)

أبو حفـــص
(576 هـ)

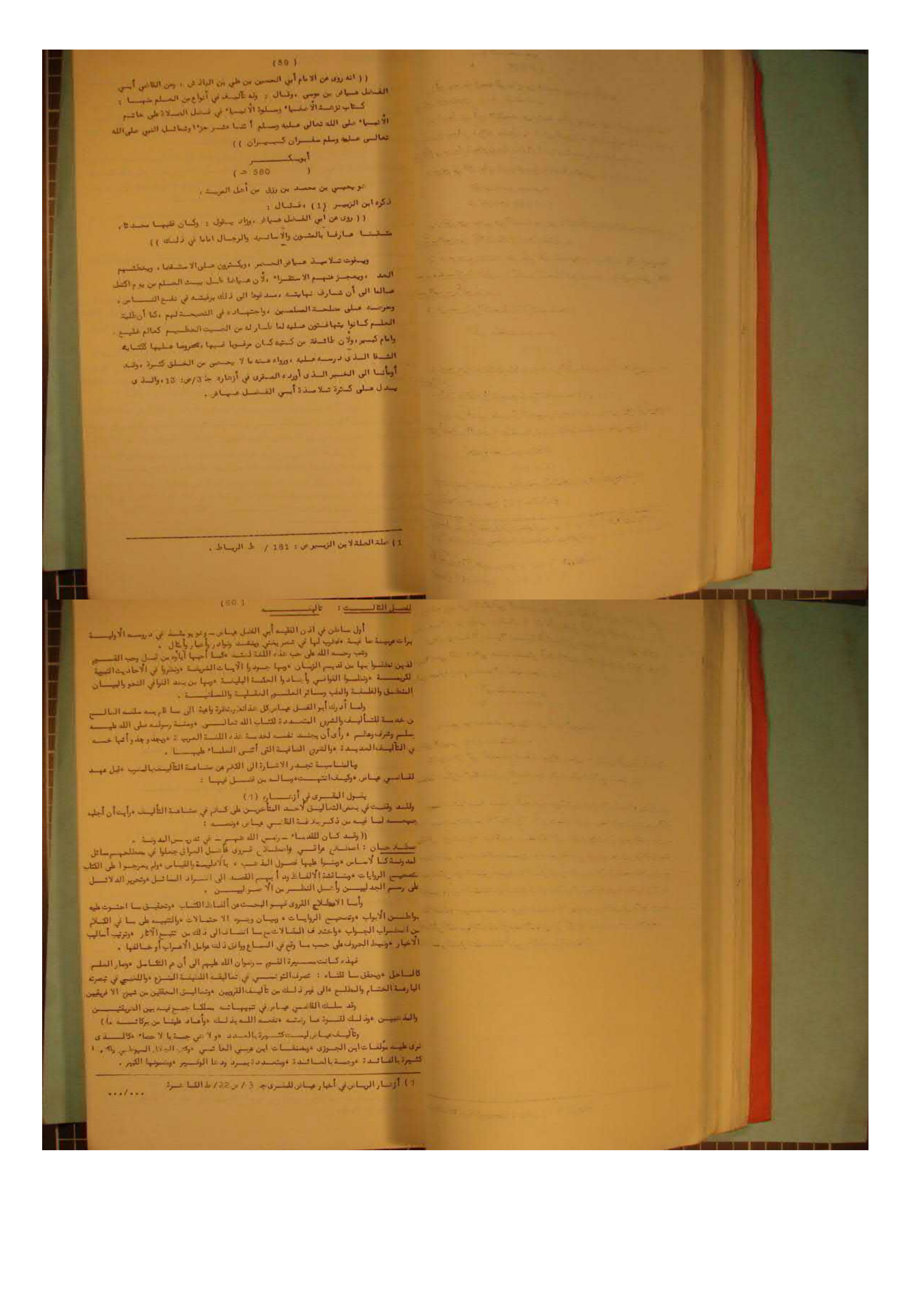
هو عمر بن عبد الرحمان بن عذرة الأنصاري من أهل الجزيـرة الخضراء ،
قال عنه ابن الزبير في كتابـه (3) :
((روى عن أبي بكر بن العربي وعياض بن موسى ، وقال أيضا :
((وكان أديبا شاعرا جليلا ، ولي قضاء بلده وقضاء سبتة))

ابن الضحـــاك
(553 هـ)

هو علي بن محمد بن ابراهيم الفزاري من أهل غرناطة ،
أخبر عنه ابن فرحون (4) ، فقال :

---

1) ازهار الرياض في اخبار عياض للمقري ج 3 ص 16 ط القاهـرة
2) الذيل والتكملة لابن عبد الملك الأنصاري المراكشي م 5 / ج 1 ص: 127 ط بيـروت .
3) صلة الصلة لابن الزبير ص: 65 / ط الرباط .
4) الديباج لابن فرحون ص 210 / ط 1 .



((انه روى عن الامام أبي الحسين بن علي بن الباذش ، وعن القاضي أبي الفضل عياض بن موسى ، وقال : وله تآليف في أنواع من العلم منها : كتاب نزهة الأصفياء وسلوة الأنبياء في فضل الصلاة على خاتم الأنبياء صلى الله تعالى عليه وسلم أثنا عشر جزءا وشمائل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سفران كبيران))

أبو بكر

(560 هـ)

هو يحيى بن محمد بن رزق من أهل المرية ،

ذكره ابن الزبير (1) ، فقال :

((روى عن أبي الفضل عياض ، وزاد يقول : وكان فقيها محدثا ، متقنا عارفا بالمتون والأسانيد والرجال اماما في ذلك))

ويفوت تلاميذ عياض الحصر ، ويكثرون على الاستقصاء ، ويخطئهم العد ، ويعجز عنهم الاستقراء ، لأن عياضا ظل يبث العلم من يوم اكتمل عالما الى أن شارف نهايته ، مدفوعا الى ذلك برغبته في نفع الناس ، وحرصه على مصلحة المسلمين ، واجتهاده في النصيحة لهم ، كما أن طلبة العلم كانوا يتهافتون عليه لما نال له من الصيت العظيم كعالم ضليع وامام كبير ، ولأن طائفة من كتبه كان مرغوبا فيها ، محروصا عليها ككتابه الشفا الذي درسه عليه ، ورواه عنه ما لا يحصى من الخلق كثرة ، وقد أومأنا الى الخبر الذي أورده المقري في أزهاره ج 3 / ص: 15 ، والذي يدل على كثرة تلامذة أبي الفضل عياض .

1) صلة الصلة لابن الزبير ص : 181 / ط الرباط .

الفصل الثالث : تآليفه

أول ما طن في اذن الفقيه أبي الفضل عياض — وهو يرشد في دروسه الأولية — برات عربية صافية ، تطرب لها في شعر يغني وينشد ونوادر وأخبار وأمثال .

وشب رحمه الله على حب هذه اللغة لشدة ما أحبها آباؤه من قبل وحب القوم الذين نطقوا بها من قديم الزمان ، وبها جودوا الآيات الشريفة ، ونشروا في الأحاديث النبوية الكريمة ، ونظموا القوافي وأسادوا الحكمة البليغة ، وبها من بعد التوا في النحو والبيان والمنطق والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية .

ولما أدرك أبو الفضل عياض كل هذا ، عن نظرة واعية الى ما تم به سلفه الصالح من خدمة للتآليف والشروح المتعددة لكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم ، رأى أن يجند نفسه لخدمة هذه اللغة العربية ، فجد وجد وأتيا خدمة في التآليف الجديدة ، والشروح الضافية التي أثنى العلماء عليها .

وبالمناسبة تجدر الاشارة الى الكلام عن صناعة التآليف بالمغرب ، قبل عهد القاضي عياض ، وكيف انتهت ، وما له من فضل فيها :

يقول المقري في أزهاره (1)

ولقد وقفت في بعض التعاليق لأحد المتأخرين على كلام في صناعة التأليف ، رأيت أن أجلبه برمته لما فيه من ذكر بلاغة القاضي عياض ، ونصه :

((وقد كان للقدماء — رضي الله عنهم — في تدريس المدونة اصطلاحان : اصطلاح عراقي واصطلاح قروي فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس ، وبنوا عليها فصول المذهب ، بالأدلة والقياس ، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ، ومناقشة الألفاظ ودأبهم القصد الى افراد المسائل ، وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين .

وأما الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب ، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب ، وتصحيح الروايات ، وبيان وجوه الاحتمالات ، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب ، واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار ، وترتيب أساليب الأخبار ، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع وافق ذلك عوامل الاعراب أو خالفها .

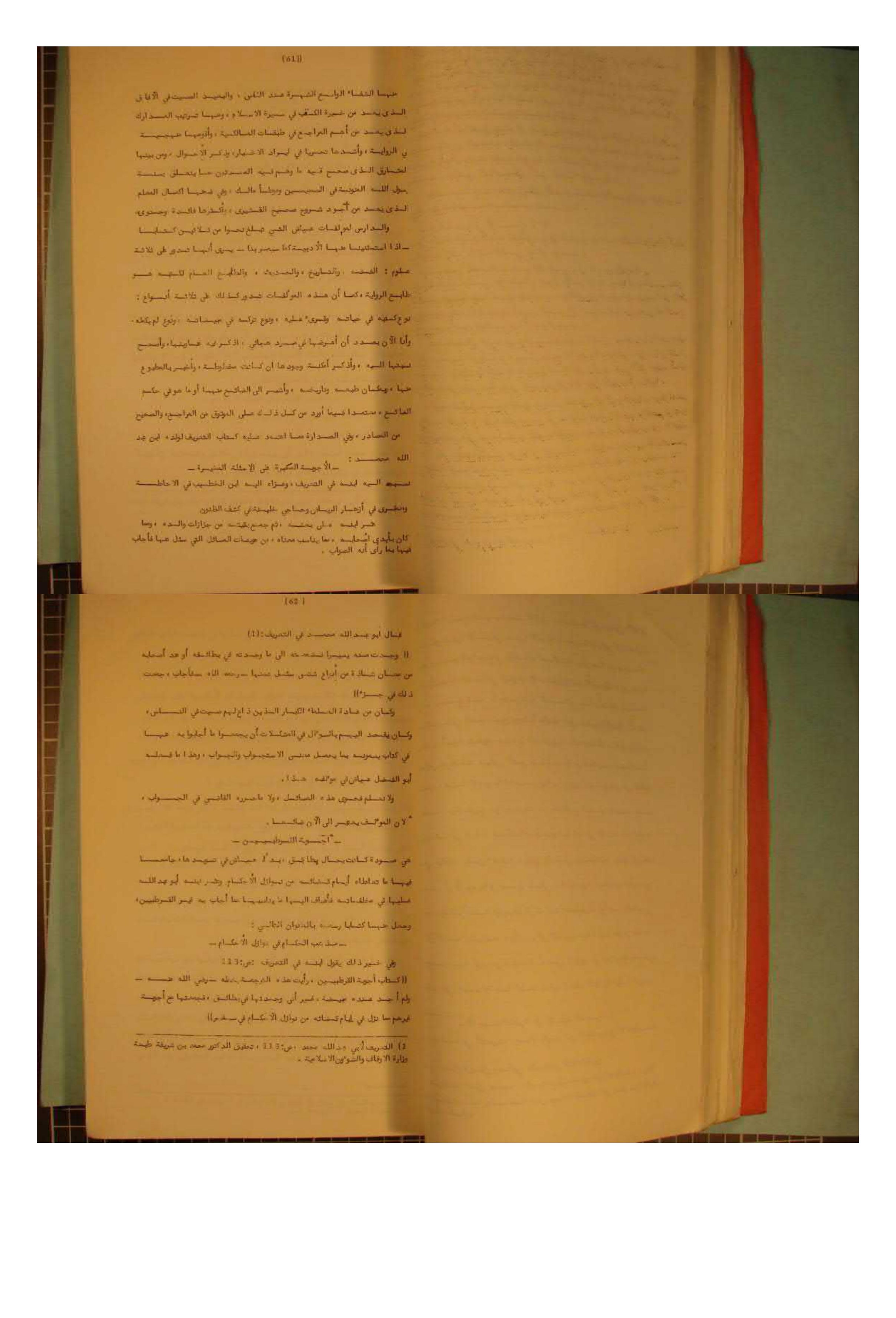
فهذه كانت سيرة القوم — رضوان الله عليهم الى أن تم التكامل ، وصار العلم كالساحل ، وحقق ما قلناه : تصرف التونسي في تعاليقه اللطيفة النزع ، واللخمي في تبصرته البارعة الختام والمطلع ، الى غير ذلك من تآليف القرويين ، وتعاليق المحققين من شيوخ الافريقيين

وقد سلك القاضي عياض في تنبيهاته مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين ، وذلك لقوة عارضته ، نفعه الله بذلك ، وأعاد علينا من بركاته ،))

وتآليف عياض ليست كثيرة بالعدد ، ولا هي جمة ما لا احصاء كالتي نرى عليه مؤلفات ابن الجوزي ، ومصنفات ابن عربي الحاتمي ، وكتب الجلال السيوطي ، ولكنها كثيرة بالفائدة ، وجمة بالعائدة ، ومتعددة بمردودها الوفير ، ومنسوبها الكبير .

1) أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري ج 3 / ص 22 / ط القاهرة

.../...



منها الشفاء الواسع الشهرة عند الناس ، والبعيد الصيت في الآفاق الذي يعد من غرر الكتب في سيرة الاسلام ، ومنها ترتيب المدارك الذي يعد من أهم المراجع في طبقات المالكية ، وأقومها منهجية في الرواية ، وأشدها تحريا في ايراد الاخبار، وذكر الأحوال ، ومن بينها المشارق الذي صحح فيه ما وقع فيه المحدثون مما يتعلق بسنة رسول الله المدونة في الصحيحين وموطأ مالك ، وفي مقدمتها اكمال المعلم الذي يعد من أجود شروح صحيح القشيري ، وأكثرها فائدة وجدوى.

والدارس لمؤلفات عياض التي تبلغ نحوا من ثلاثين كتابا - اذا استثنينا منها الأدبية كما سنعرفها - يرى أنها تدور على ثلاثة علوم : الفقه ، والتاريخ ، والحديث ، والطابع العام للجميع هو طابع الرواية ، كما أن هذه المؤلفات تدور كذلك على ثلاثة أنواع : نوع كتبه في حياته وقرئ عليه ، ونوع تركه في مبيضاته ، ونوع لم يكمله .

وأنا الآن بصدد أن أعرضها في سرد هجائي ، اذكر فيه عناوينها ، وأصحح نسبتها اليه ، وأذكر أمكنة وجودها ان كانت مخطوطة ، وأخبر بالمطبوع منها ، ومكان طبعه وتاريخه ، وأشير الى الضائع منها أو ما هو في حكم الضائع ، معتمدا فيما أورد من كل ذلك على الموثوق من المراجع والصحيح من المصادر ، وفي الصدارة مما اعتمد عليه كتاب التعريف لولده ابن عبد الله محمد :

- الأجوبة المحبرة على الأسئلة المتخيرة -

نسبه اليه ابنه في التعريف ، وعزاه اليه ابن الخطيب في الاحاطة والمقري في أزهار الرياض وحاجي خليفة في كشف الظنون.

جمع ابنه على بعضه ، ثم جمع بقيته من جزازات والده ، وما كان بأيدي أصحابه ، مما يناسب معناه ، من عويصات المسائل التي سئل عنها فأجاب فيها بما رأى أنه الصواب .

قال أبو عبد الله محمد في التعريف : (1)

((وجدت منه يسيرا فضممت الى ما وجدته في بطائقه أو عند أصحابه من مسائل شاذة من أنواع شتى سئل عنها - رحمه الله - فأجاب ، وجعلت ذلك في جزء))

وكان من عادة العلماء الكبار الذين ذاع لهم صيت في الناس ، وكان يقصد اليهم بالسؤال في المشكلات أن يجمعوا ما أجابوا به عنها في كتاب يسمونه بما يحمل معنى الاستجواب والجواب ، وهذا ما فعله أبو الفضل عياض في مؤلفه هذا .

ولا نعلم فحوى هذه المسائل ، ولا ما حرره القاضي في الجواب ، لان المؤلف يعتبر الى الآن ضائعا .

- أجوبة القرطبيين -

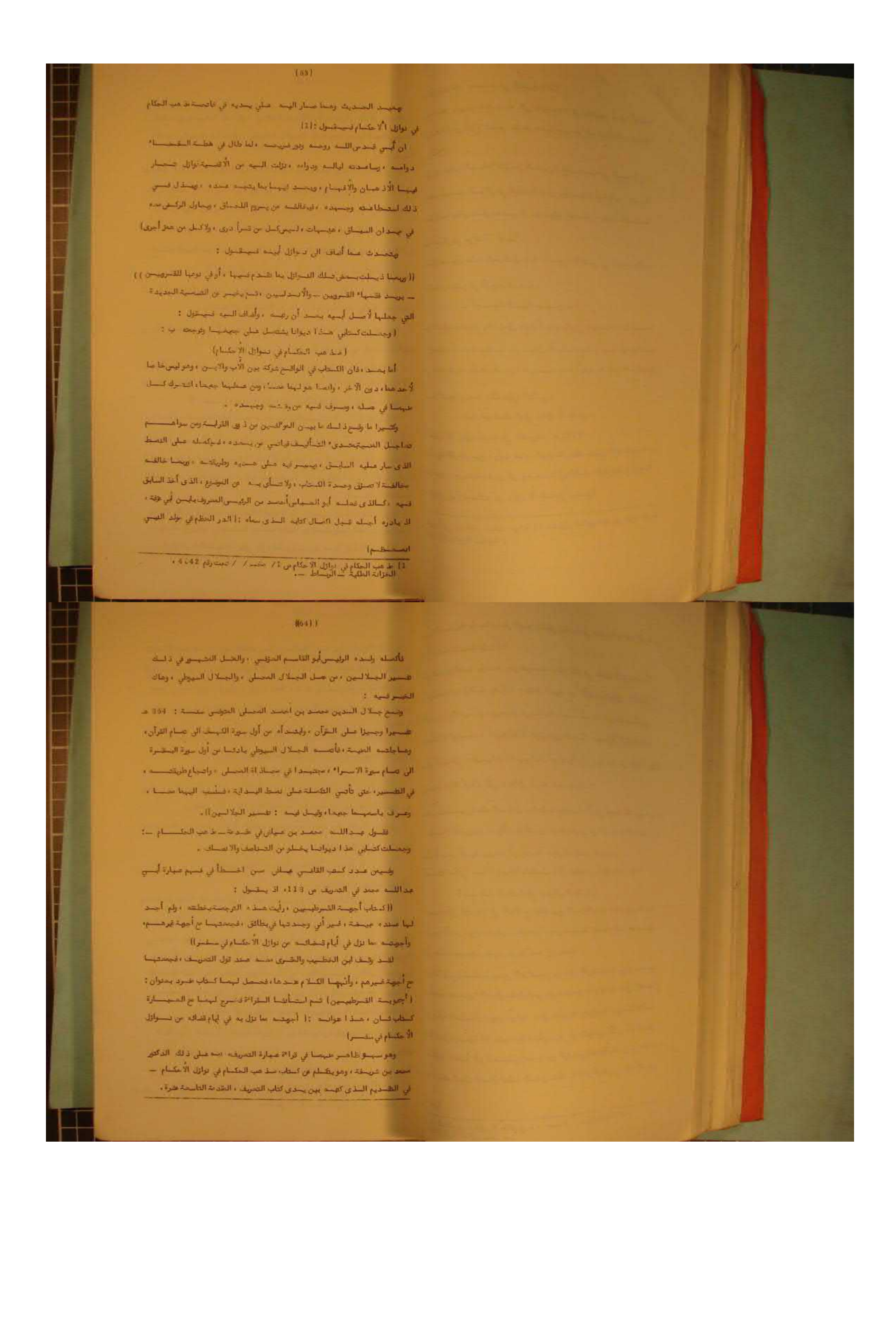
هي مسودة كانت بحال يطا لبق ، بدأ عياض في تسويدها ، جامعا فيها ما تعاطاه أيام قضائه من نوازل الأحكام ، وخرجه ابنه أبو عبد الله عليها في معلقاته ، وأضاف اليها ما يناسبها مما أجاب به غير القرطبيين ، وجعل منها كتابا رسمه بالعنوان التالي :

- مذهب الحكام في نوازل الأحكام -

وفي غير ذلك يقول ابنه في التعريف ص: 113

((كتاب أجوبة القرطبيين ، رأيت هذه الترجمة بخطه - رضي الله عنه - ولم أجد عنده مبيضة ، غير أني وجدتها في بطائق ، فجمعتها مع أجوبة غيرهم مما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام في سفر))

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ، ص: 113 ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة طبعة وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .



بعهـد الحديث وعما صار اليه على يديه في ناحية مذهب الحكام في نوازل الأحكام فيقول: (1)

ان أبي قدس الله روحه ونور ضريحه، لما طال في خطة القضاء دوامه، وساعدته لياليه وأيامه، نزلت اليه من الأقضية نوازل تحار فيها الأذهان والأفهام، ويجد ابيها بما يجيبه عنده، ويبذل في ذلك استطاعته وجهده، فيخالفه من يروم اللحاق، ويحاول الركض معه في ميدان السباق، هيهات، ليس كل من قرأ درى، ولا كل من عدا أجرى.

ويحدث عما أضاف الى نوازل أبيه فيقول:

((وربما ذيلت بعض تلك النوازل بما تقدم فيها، أو في نوعها للقرويين)) — يريد فقهاء القرويين — والأندلسيين، ثم يخبر عن التسمية الجديدة التي جعلها لأصل أبيه بعد أن رتبه، وأضاف اليه فيقول:

(وجعلت كتابي هذا ديوانا يشتمل على جميعها وترجمته ب:

(مذاهب الحكام في نوازل الأحكام)

أما بعد، فان الكتاب في الواقع شركة بين الأب والابن، وهو ليس خالصا لأحدهما، دون الآخر، وانما هو لهما معا، ومن عطلهما جميعا، اشترك كل منهما في عمله، وصرف فيه من وقته وجهده.

وكثيرا ما وقع ذلك ما بين المؤلفين من ذوي القرابة ومن سواهم فاجيل الثاني يحتذي التأليف فيأتي من بعده، فيكمله على النمط الذي سار عليه السابق، ويسير فيه على هديه وطريقته، وربما خالفه مخالفة لا تمس وحدة الكتاب، ولا تنأى به عن الموضوع، الذي أخذ السابق فيه، كالذي فعله أبو العباس أحمد بن الرئيس المعروف بابن أبي حفة، اذ بادره أجله قبل اكمال كتابه الذي سماه: (الدر المنظم في مولد النبي المعظم)

1) مذاهب الحكام في نوازل الأحكام ص 1/ مخطوط / تحت رقم 4042، الخزانة الملكية ـ الرباط ـ.

فأكمله ولده الرئيس أبو القاسم العزفي، والمثل المشهور في ذلك تفسير الجلالين، من عمل الجلال المحلي، والجلال السيوطي، وهاك الخبر فيه:

وضع جلال الدين محمد بن أحمد المحلي المتوفى سنة: 864 هـ تفسيرا وجيزا على القرآن، وابتدأه من أول سورة الكهف الى تمام القرآن، وعاجلته المنية، فأتمه الجلال السيوطي بادئا من أول سورة البقرة الى تمام سورة الاسراء، مجتهدا في محاذاة المحلي، واتباع طريقته في التفسير، حتى تأتي التكملة على نمط البداية، فنسب اليهما معا، وعرف باسمهما جميعا، وقيل فيه: (تفسير الجلالين).

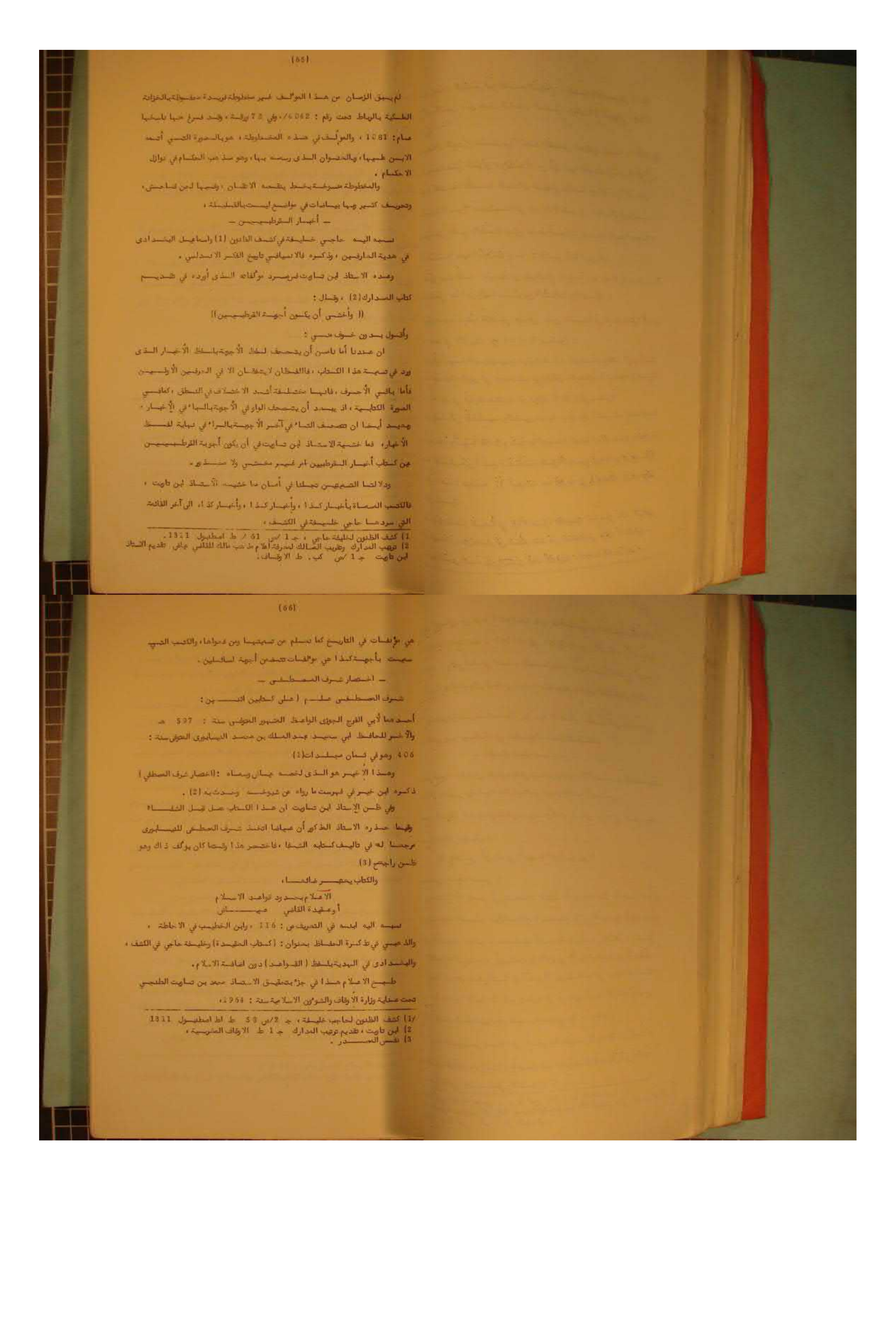
يقول عبد الله محمد بن عياض في مقدمة مذاهب الحكام: وجعلت كتابي هذا ديوانا يخلو من التناقض والاختلاف.

وليس عند كتب القاضي عياض من الخطأ في فهم عبارة أبي عبد الله محمد في التعريف ص 113، اذ يقول:

((كتاب أجوبة القرطبيين، رأيت هذه الترجمة بخطه، ولم أجد لها عنده جمعة، غير أني وجدتها في بطائق، فجمعتها مع أجوبة غيرهم، وأجوبته مما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام في سفر))

لقد وقف ابن الخطيب والمقرى عند قول التعريف، فجمعتها مع أجوبة غيرهم، وأنهيا الكلام عندها، فحصل لهما كتاب مفرد بعنوان: (أجوبة القرطبيين) ثم استأنفا القراءة فخرج لهما مع العبارة كتاب ثان، هذا عنوانه: (أجوبته مما نزل به في أيام قضائه من نوازل الأحكام في سفر)

وهو سهو ظاهر منهما في قراءة عبارة التعريف، نبه على ذلك الدكتور محمد بن شريفة، وهو يتكلم عن كتاب مذاهب الحكام في نوازل الأحكام — في التقديم الذي كتبه بين يدي كتاب التعريف، المقدمة التاسعة عشرة.



لم يبق الزمان من هذا المؤلف غير مخطوطة فريدة محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم : 6062/ ، وفي 75 ورقة ، وقد فرغ منها ناسخها عام : 1061 ، والمؤلف في هذه المخطوطة ، هو بالصورة التي أحمد الابن عليها ، بالعنوان الذي رسمه بها ، وهو مذهب الحكام في نوازل الاحكام .

والمخطوطة صريحة بخط يتقحمه الافنان ، وفيها لحن ناتئ ، وتحريف كثير وبها بياضات في مواضع ليست بالقليلة .

— أخبار القرطبيين —

نسبه اليه حاجي خليفة في كشف الظنون (1) واسماعيل البغدادي في هدية العارفين ، وذكره فالانسيا في تاريخ الفكر الاندلسي .

وعده الاستاذ ابن تاويت في سرد مؤلفاته الذي أورده في تقديم كتاب المدارك (2) ، وقال :

((وأخشى أن يكون أجوبة القرطبيين))

وأقول بدون خوف مني :

ان عندنا أمانا من أن يتصحف لفظ الأجوبة بلفظ الأخبار الذي ورد في تسمية هذا الكتاب ، فاللفظان لا يتفقان الا في الحرفين الأولين أما باقي الأحرف ، فانها مختلفة أشد الاختلاف في النطق ، وفي الصورة الكتابية ، اذ يبعد أن يتصحف الواو في الأجوبة بالباء في الأخبار ، ويبعد أيضا ان تصحف التاء في آخر الأجوبة بالراء في نهاية لفظ الأخبار ، فما خشية الاستاذ ابن تاويت في أن يكون أجوبة القرطبيين من كتاب أخبار القرطبيين أمر غير مخشي ولا محذور .

ودلالتنا التصحيفين تجعلنا في أمان مما خشيه الأستاذ ابن تاويت ، فالكتب المسماة بأخبار كذا ، وأخبار كذا ، وأخبار كذا ، الى آخر القائمة التي سردها حاجي خليفة في الكشف ،

---

1) كشف الظنون لخليفة حاجي ، ج 1 /ص 61 / ط اصطنبول 1311 .
2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض تقديم الاستاذ ابن تاويت ج 1 /ص كب . ط الاوقاف .

هي مؤلفات في التاريخ كما نعلم من تسميتها ومن محتواها ، والكتب التي سميت بأجوبة كذا هي مؤلفات تتضمن أجوبة لسائلين .

— اختصار شرف المصطفى —

شرف المصطفى علم على كتابين اثنين :

أحدهما لأبي الفرج الجوزي الواعظ الشهير المتوفى سنة : 597 هـ والآخر للحافظ أبي سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري المتوفى سنة : 406 وهو في ثمان مجلدات (1)

وهذا الأخير هو الذي لخصه عياض وسماه : (اختصار شرف المصطفى) ذكره ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه وحدث به (2) .

وفي ظن الاستاذ ابن تاويت ان هذا الكتاب عمل قبل الشفاء وهنا حذره الاستاذ المذكور أن عياضا اتخذ شرف المصطفى للنيسابوري مرجعا له في تأليف كتابه الشفا ، فاختصر هذا ربما كان يؤلف ذاك وهو ظن راجح (3)

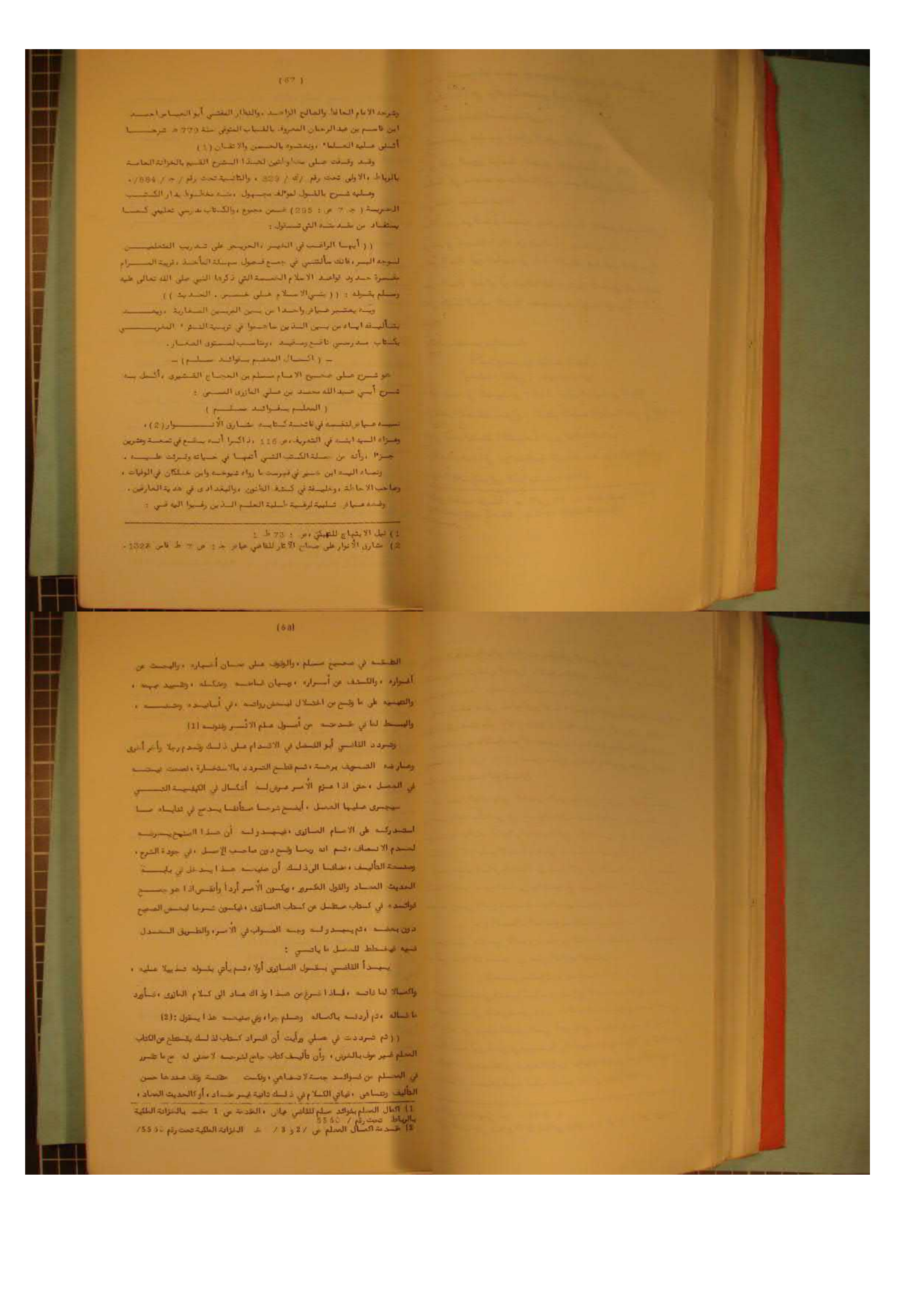
والكتاب يعتبر مفقودا .

الاعلام بحدود قواعد الاسلام
أو عقيدة القاضي عياض

نسبه اليه ابنه في التعريف ص : 116 ، وابن الخطيب في الاحاطة ، والذهبي في تذكرة الحفاظ بعنوان : (كتاب العقيدة) وخليفة حاجي في الكشف ، والبغدادي في الهدية بلفظ (القواعد) دون اضافة الاسلام .

طبع الاعلام هذا في جزء بتحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي تحت عناية وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية سنة : 1964 .

1/ كشف الظنون لحاجي خليفة ، ج 2/ص 53 ط ا ط اصطنبول 1311
2) ابن تاويت ، تقديم ترتيب المدارك ج 1 ط الاوقاف المغربية ،
3) نفس المصدر .


(67)

يشرحه الامام الحافظ والعالم الزاهد ، والنظار المفتي أبو العباس احمد ابن قاسم بن عبد الرحمان المعروف بالقباب المتوفى سنة 779 هـ شرحا أثنى عليه العلماء ، ونعتوه بالحسن والاتقان (1)

وقد وقفت على مخطوطتين لهذا الشرح القيم بالخزانة العامة بالرباط ، الاولى تحت رقم /ك/ 329 ، والثانية تحت رقم / ج / 684 .

وعليه شرح بالقول لمؤلف مجهول ، منه مخطوط بدار الكتب المصرية (ج 7 ص : 295) ضمن مجموع ، والكتاب مدرسي تعليمي كما يستفاد من مقدمته التي تقول :

((أيها الراغب في الخير ، الحريص على تدريب المتعلمين لوجه البر ، فانك سألتني في جمع فصول سهلة المأخذ ، قريبة المرام مختصرة حدود قواعد الاسلام الخمسة التي ذكرها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : ((بني الاسلام على خمس . الحديث))

وبه يعتبر عياض واحدا من بين المربين المغاربة ، ويعد بتأليفه اياه من بين الذين ساهموا في تربية النشء المغربي بكتاب مدرسي نافع ومفيد ، ومناسب لمستوى الصغار .

— (اكمال المعلم بفوائد مسلم) —

هو شرح على صحيح الامام مسلم بن الحجاج القشيري ، أكمل به شرح أبي عبد الله محمد بن علي المازري المسمى :

(المعلم بفوائد مسلم)

نسبه عياض لنفسه في فاتحة كتابه مشارق الأنوار (2) ، وعزاه اليه ابنه في التعريف ، ص 116 ، ذاكرا أنه يقع في تسعة وعشرين جزءا ، وأنه من جملة الكتب التي أتمها في حياته وقرئت عليه .

ونسبه اليه ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه وابن خلكان في الوفيات ، وصاحب الاحاطة ، وخليفة في كشف الظنون ، والبغدادي في هدية العارفين .

وقد عياض تأليفه لرغبة طلبة العلم الذين رغبوا اليه في :

1) نيل الابتهاج للتنبكتي ، ص : 73 ط 1
2) مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض ج 1 ص 3 ط فاس 1328 .

(68)

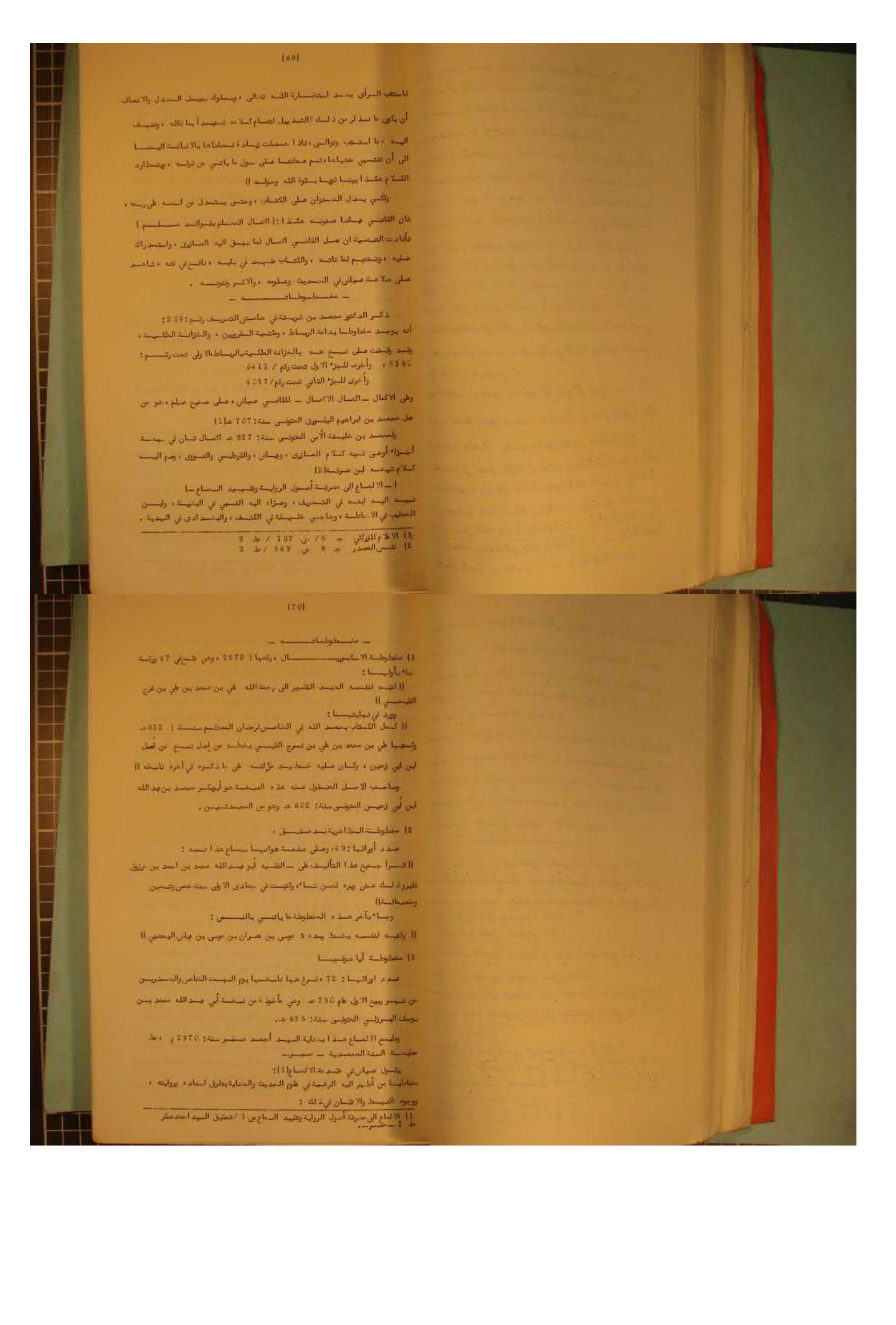
التفقه في صحيح مسلم ، والوقوف على معاني أخباره ، والبحث عن أغواره ، والكشف عن أسراره ، وبيان ناسخه ومشكله ، والتنبيه على ما وقع من اختلال لبعض رواته ، في أسانيده ومتنه ، والبسط لما في خدمته من أصول علم الاثر وفنونه (1)

وتردد القاضي أبو الفضل في الاقدام على ذلك وقدم رجلا وأخر أخرى وعارضه التسويف برهة ، ثم قطع التردد بالاستخارة ، فصحت نيته في العمل ، حتى اذا عزم الأمر عرض له أشكال في الكيفية التي سيجري عليها العمل ، أيضع شرحا مستأنفا يدمج في ثناياه ما استدركه على الامام المازري ، فيبدو له أن هذا المنهج يعرضه لعدم الانصاف ، ثم انه ربما وقع دون صاحب الاصل ، في جودة الشرح ، وحسن التأليف ، مضافا الى ذلك أن منهجه هذا يدخل في بابه الحديث المعاد والقول المكرور ، ويكون الأمر أردأ وأنقص اذا هو جمع فوائده في كتاب مستقل عن كتاب المازري ، فيكون شرحا لبعض الصحيح دون بعضه ، ثم يبدو له وجه الصواب في الأمر ، والطريق المعتدل فيه فيخطط للعمل ما يأتي :

يبدأ القاضي بقول المازري أولا ، ثم يأتي بقوله تذييلا عليه ، واكمالا لما فاته ، فاذا فرغ من هذا وذاك عاد الى كلام المازري ، فأورد ما تلاه ، ثم أردفه باكماله وهلم جرا ، وفي مقدمته هذا يقول : (2)

((ثم ترددت في عملي ورأيت أن افراد كتاب لذلك يقطع عن الكتاب المعلم غير موف بالغرض ، وأن تأليف كتاب جامع لشرحه لاحظ له مع ما تقرر في المعلم من فوائد جمة لا تتناهى ، ونكت مفتنة وقف عندها حسن التأليف وتناهى ، فيأتي الكلام في ذلك ثانية غير مفاد ، أو كالحديث المعاد ،

1) اكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ، المقدمة ص 1 مخ بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم / 5550
2) مقدمة اكمال المعلم ص / 2 و 3 / مخ الخزانة الملكية تحت رقم 5550/



فاستحب الرأي بعد استخارة الله تعالى ، وسلوك سبيل التعدل والانصاف أن يكون ما نذكر من ذلك تكملة لتمام كلامه ، مقيداً بما قاله ، ومضيفاً اليه ، ما استحسن وتوالى ، فاذا اجتمعت زيادة فصلناها بالاضافة اليه حتى الى أن ننتهي حسابها ، ثم عطفنا على نسق ما يأتي من قوله ، ويتطارد الكلام هكذا بيننا فيها بقوة الله وحوله))

ولكي يدل العنوان على الكتاب ، وحتى يستدل من اسمه على رسمه ، فان القاضي عياضا عنونه هكذا : (اكمال المعلم بفوائد مسلم) فأفادت التسمية ان عمل القاضي اكمال لما سبق اليه المازري ، واستدراك عليه ، وتتميم لما فاته ، والكتاب فريد في بابه ، نافع في فنه ، شاهد على علامة عياض في الحديث وعلومه ، والاثر وفنونه .

— مخطوطات —

ذكر الدكتور محمد بن شريفة في هامش التعريف رقم : 239 :
أنه يوجد مخطوطا بدار الكتب العامة بالرباط ، ومكتبة القرويين ، والخزانة الملكية ،
وقد وقفت على نسخ منه بالخزانة الملكية بالرباط الاولى تحت رقم : 5560 ، وأخرى للجزء الاول تحت رقم / 6411
وأخرى للجزء الثاني تحت رقم / 4037

وفي الاكمال — اكمال الاكمال — للقاضي عياض ، على صحيح مسلم ، هو من عمل محمد بن ابراهيم البقوري المتوفى سنة : 707 هـ [1]

ولمحمد بن خليفة الأبي المتوفى سنة : 827 هـ اكمال ثان في سبعة أجزاء أوعى فيه كلام المازري ، وعياض ، والقرطبي والنووي ، وضم اليه كلام شيخه ابن عرفة [2]

أ — الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع نسبه اليه ابنه في التعريف ، وعزاه اليه الضبي في البغية ، وابن الخطيب في الاحاطة ، وحاجي خليفة في الكشف ، والبغدادي في الهدية .

1) الاعلام للزركلي ج 5 / ص 137 / ط 3
2) نفس المصدر ج 6 ص 349 / ط 3

— مخطوطات —

1) مخطوطة الاسكوريال ، رقمها : 1572 ، وهي تقع في 47 ورقة جاء بأولها :
((كتبه لنفسه العبد الفقير الى رحمة الله علي بن محمد بن علي بن فرج القيسي))
وورد في نهايتها :
((كمل الكتاب بحمد الله في الخامس لرمضان المعظم سنة : 632 هـ وكتبها علي بن محمد بن علي بن فرج القيسي بخطه من اصل نسخ من أصل ابن ابي زمنين ، وكان عليه خط يد مؤلفه على ما ذكره في آخره ناسخه))

وصاحب الاصل المنقول عنه هذه النسخة هو أبوبكر محمد بن عبد الله ابن أبي زمنين المتوفى سنة : 602 هـ وهو من المحدثين .

2) مخطوطة الظاهرية بدمشق ،

عدد أوراقها : 49 ، وعلى صفحة عنوانها سماع هذا نصه :
((قرأ جميع هذا التأليف على — الفقيه أبو عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق المورد لـك على نهره لمن شاء ، وكتبت في جمادى الاولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة))
وجاء بآخر هذه المخطوطة ما يأتي بالنص :
((وكتبه لنفسه بخط يده : موسى بن عمران بن موسى بن عياض اليحصبي))

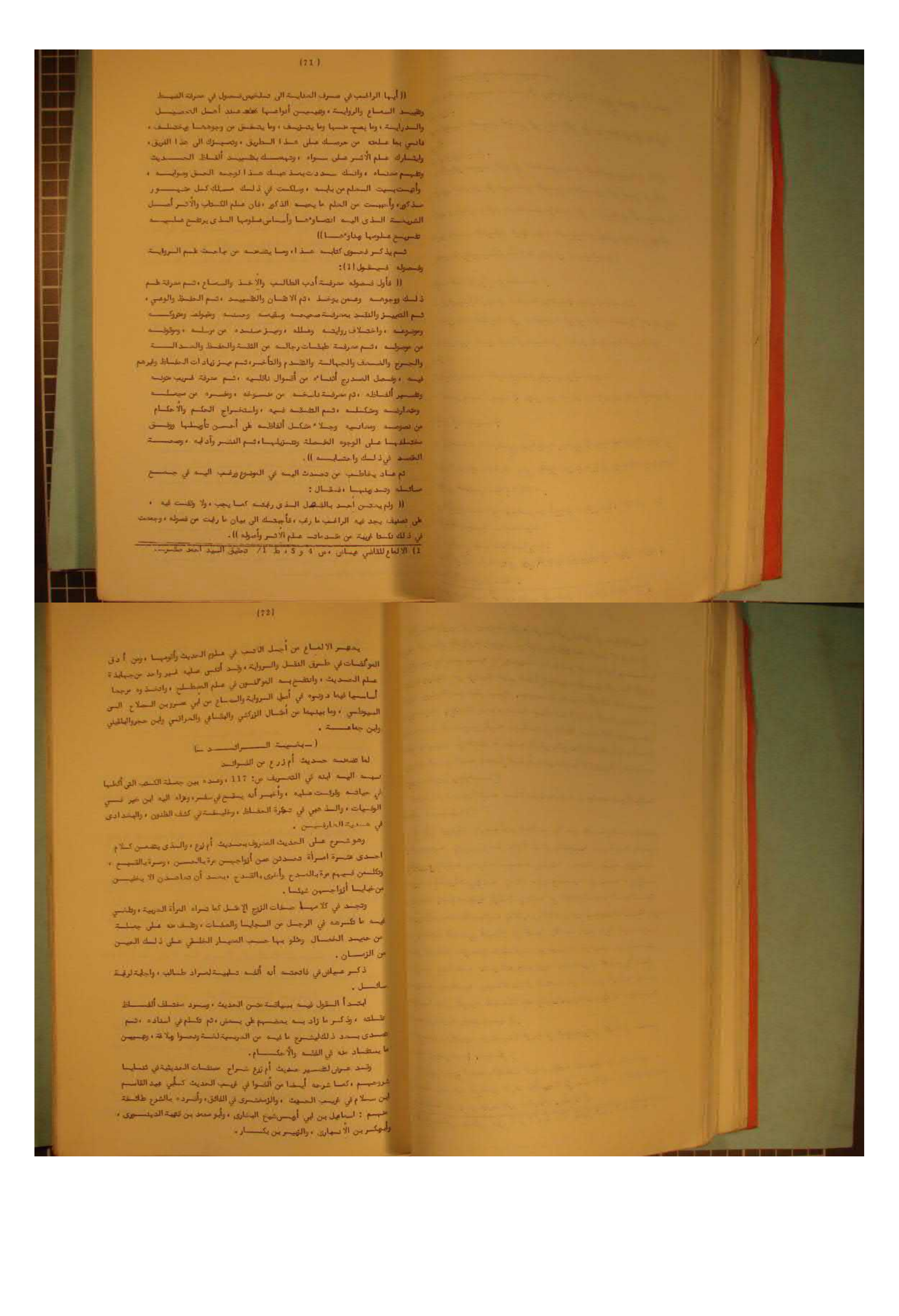
3) مخطوطة أيا صوفيا

عدد اوراقها : 72 ، فرغ منها ناسخها يوم السبت الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول عام 790 هـ وهي مأخوذة من نسخة أبي عبد الله محمد بن يوسف البرزلي المتوفى سنة : 636 هـ .

وطبع الالماع هذا بعناية السيد أحمد صقر سنة : 1970 م ، مطبعة السنة المحمدية — مصر —

يقول عياض في مقدمة الالماع [1] :
سألتها من أظهر اليه الرغبة في علم الحديث والعناية بطرق اسناده وروايته ، ووجوه الضبط والاتقان في ذلك :

1) الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ص 1 / تحقيق السيد احمد صقر ط 1 — مصر —



((أيها الراغب في صرف العناية الى تلخيص فصول في معرفة الضبط وتقييد السماع والرواية، وتبيين أنواعها عند أهل التحصيل والدراية، وما يصح منها وما يتزيف، وما يتحقق من وجوهها ويختلف، فانبي بما علمته من حرصك على هذا الطريق، وصبوك الى هذا الفريق، وايثارك علم الأثر على سواه، وتهممك بتقييد ألفاظ الحديث وتفهم معناه، وانك سددت بعد عينك هذا الوجه الحق وصوابه، وأتيت بيت العلم من بابه، وسلكت في ذلك مسلك كل خبير مذكور، وأصبت من العلم ما يجب الذكر، فان علم الكتاب والأثر أصل الشريعة الذي اليه انتهاؤها وأساس علومها الذي يرتفع عليه تفريع علومها وبناؤها))

ثم يذكر فحوى كتابه هذا، وما يتضمنه من مباحث علم الرواية وفصوله فيقول(1):

((فأول فصوله معرفة أدب الطالب والأخذ والسماع، ثم معرفة علم ذلك ووجوهه وعمن يؤخذ، ثم الاتقان والتقييد، ثم الحفظ والوعي، ثم التمييز والنقد بمعرفة صحيحه وسقيمه وحسنه ومقبوله ومتروكه وموضوعه، واختلاف روايته وعلله، وتمييز مسنده من مرسله، وموقوفه من موصوله، ثم معرفة طبقات رجاله من الثقة والحفظ والعدالة والجرح والضعف والجهالة والتقدم والتأخر، ثم تمييز زيادات الحفاظ وقرائحهم فيه، وفصل المدرج أثناءه من أقوال ناقليه، ثم معرفة غريب متونه وتفسير ألفاظه، ثم معرفة ناسخه من منسوخه، وتمييزه من محكمه ومتشابهه ومشكله، ثم التفقه فيه، واستخراج الحكم والأحكام من نصوصه ومعانيه وجلاء مشكل ألفاظه على أحسن تأويلها ووفق مختلفها على الوجوه المفصلة وتنزيلها، ثم النشر وآدابه، وصحة القصد في ذلك واحتسابه)).

ثم عاد يخاطب من تحدث اليه في الموضوع ورغب اليه في جمع مسائله وتدوينها، فقال:

((ولم يحتسن أحد بالفصل الذي رغبته كما يجب، ولا وقفت فيه على تصنيف يجد فيه الراغب ما رغب، فأجبتك الى بيان ما رغبت من فصوله، وجمعت في ذلك نكتا غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله)).

1) الالماع للقاضي عياض، ص 4 و 5، ط 1/ تحقيق السيد أحمد صقر.

يعتبر الالماع من أجل الكتب في علوم الحديث وأقومها، ومن أدق المؤلفات في طرق النقل والرواية، وقد أثنى عليه غير واحد من جهابذة علم الحديث، وانتفع به المؤلفون في علم المصطلح، واتخذوه مرجعا أساسيا فيما دونوه في أصل الرواية والسماع من أبي عمرو بن الصلاح الى السيوطي، وما بينهما من أمثال الزركشي والبقاعي والعراقي وابن حجر والبلقيني وابن جماعة.

(بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد)

نسبه اليه ابنه في التعريف ص: 117، وعده من جملة الكتب التي ألفها في حياته وقرئت عليه، وأخبر أنه يقع في سفر، وعزاه اليه ابن خير في الوفيات، والذهبي في تذكرة الحفاظ، وخليفة في كشف الظنون، والبغدادي في هدية العارفين.

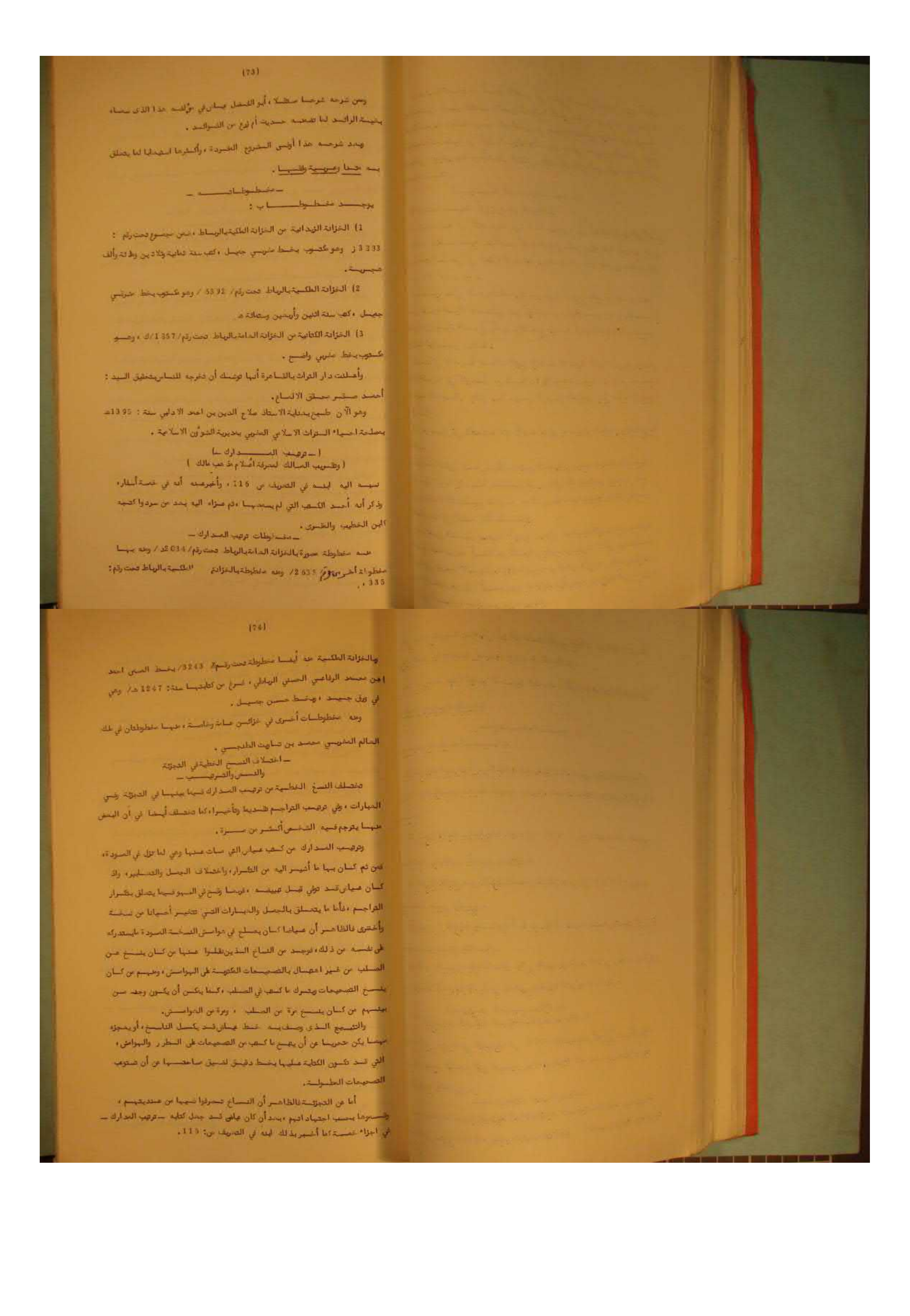
وهو شرح على الحديث المعروف بحديث أم زرع، والذي يتضمن كلام احدى عشرة امرأة تحدثن عن أزواجهن مرة بالحسن، ومرة بالقبح، وتكلمن فيهم مرة بالمدح وأخرى بالقدح، بعد أن تعاهدن الا يخفين من خبايا أزواجهن شيئا.

وتجد في كلامهن صفات الزوج الأمثل كما تراه المرأة العربية، وتلقى فيه ما تكرهه في الرجل من السجايا والصفات، وتقف منه على جملة من حميد الخصال وتلو بها حسب المعيار الخلقي على ذلك العهد من الزمان.

ذكر عياض في فاتحته أنه ألفه تلبية لمراد طالب، واجابة لرغبة سائل.

ابتدأ القول فيه بسياقة متن الحديث، وسرد مختلف ألفاظ نقلته، وذكر ما زاد به بعضهم على بعض، ثم تكلم في اسناده، ثم تصدى بعد ذلك لشرح ما فيه من العربية لغة ونحوا وبلاغة، وبيين ما يستفاد منه في الفقه والأحكام.

وقد عني بتفسير حديث أم زرع شراح المصنفات الحديثية في تضاعيف شروحهم، كما شرحه أيضا من ألفوا في غريب الحديث كأبي عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، والزمخشري في الفائق، وأفرده بالشرح طائفة منهم: اسماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري، وأبو محمد بن قتيبة الدينوري، وأبو بكر بن الأنباري، والزبير بن بكار.



ومن شرحه شرحا مستقلا ، أبو الفضل عياض في مؤلفه هذا الذي سماه بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد .

ويعد شرحه هذا أوفى الشروح المفردة ، وأكثرها استيعابا لما يتعلق به نحوا وعروبية وفقهيا .

— مخطوطـــات —

يوجـــد مخطوطـــات :

1) الخزانة الزيدانية من الخزانة الملكية بالرباط ، ضمن مجموع تحت رقم : 3333 ز وهو مكتوب بخط مشرقي جميل ، كتب سنة ثمانية وثلاثين وثلاثة وألف هجرية .

2) الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم / 5392 / وهو مكتوب بخط مشرقي جميل ، كتب سنة اثنين وأربعين وستمائة هـ .

3) الخزانة الكتانية من الخزانة العامة بالرباط تحت رقم / 1357 / ك ، وهو مكتوب بخط مغربي واضح .

وأعلنت دار التراث بالقاهرة أنها توشك أن تخرجه للناس بتحقيق السيد : أحمد صقر محقق الالماع .

وهو الآن طبع بعناية الاستاذ صلاح الدين بن احمد الادلبي سنة : 1395 هـ مصلحة احياء التراث الاسلامي المغربي بمديرية الشؤون الاسلامية .

ا — ترتيب المـــدارك —

(وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك)

نسبه اليه ابنه في التعريف ص 116 ، وأخبرنا أنه في خمسة أسفار ، وذكر أنه أحد الكتب التي لم يبيضها ، ثم عزاه اليه بعد من سودوا كتبه ابن الخطيب والمقري .

— مخطوطات ترتيب المدارك —

منه مخطوطة مصورة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم / 2034 د / ومنه بها مخطوطة أخرى رقم 2635 / ومنه مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم : 335 .

بالخزانة الملكية منه أيضا مخطوطة تحت رقم / 3243 / بخط الحسن احمد ابن محمد الرفاعي الحسني الرباطي ، فرغ من كتابتها سنة : 1247 هـ / وهي في ورق جيد ، وبخط حسن جميل .

ومنه مخطوطات أخرى في خزائن عامة وخاصة ، منها مخطوطتان في ملك العالم المغربي محمد بن تاويت الطنجي .

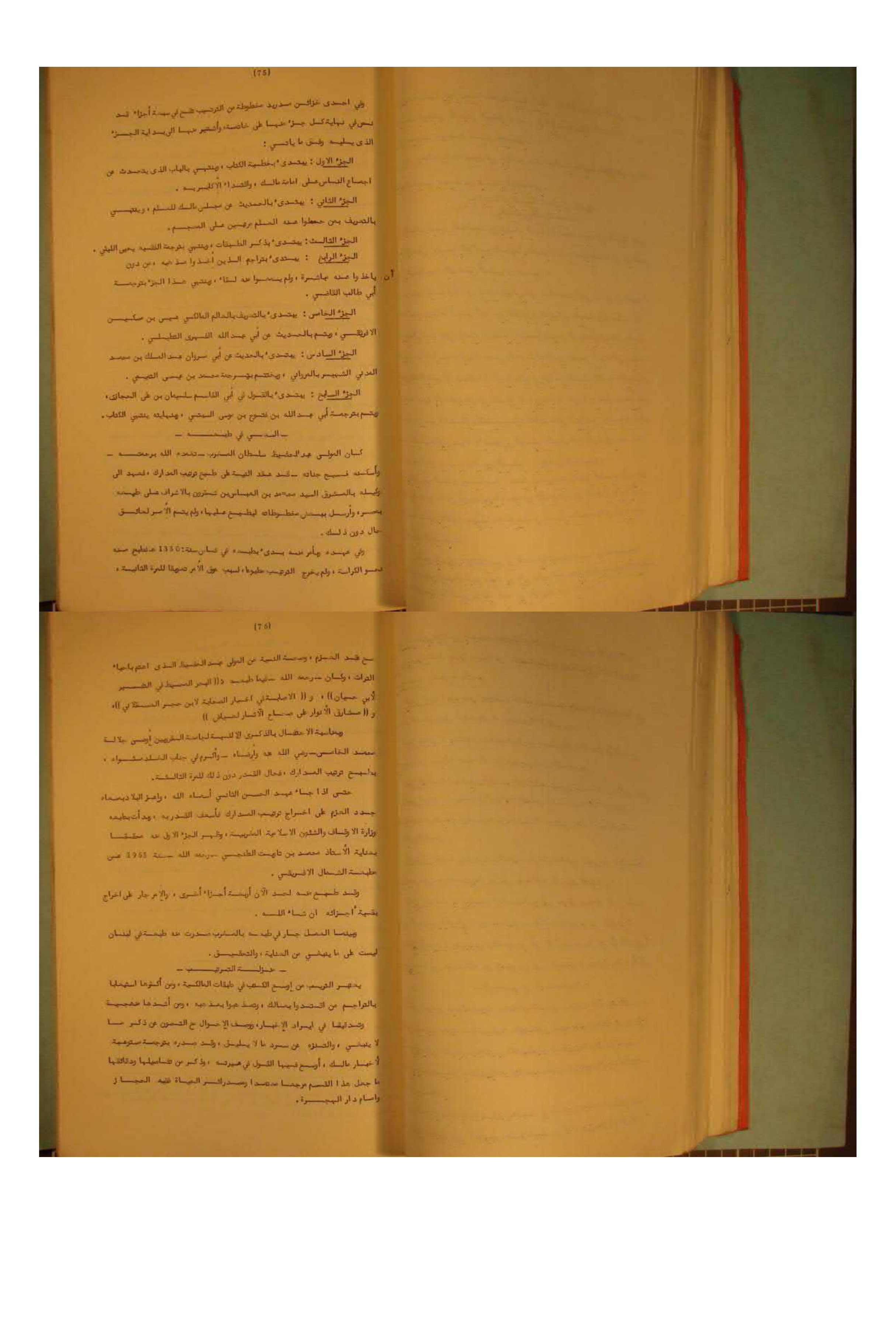
— اختلاف النسخ الخطية في التجزئة والنص والترتيب —

تختلف النسخ الخطية من ترتيب المدارك فيما بينها في التجزئة وفي العبارات ، وفي ترتيب التراجم تقديما وتأخيرا ، كما تختلف أيضا في أن البعض منها يترجم فيه الشخص أكثر من مرة .

وترتيب المدارك من كتب عياض التي مات عنها وهي لما تزل في المسودة ، ومن ثم كان بها ما أشير اليه من التكرار ، واختلاف الجمل والعبارات ، واذ كان عياض قد توفي قبل تبييضه ، فربما وقع في السهو فيما يتعلق بتكرار التراجم ، فأما ما يتعلق بالجمل والعبارات التي تتغير أحيانا من نسخة وأخرى فالظاهر أن عياضا كان يصلح في حواشي النسخة المسودة ما يستدركه على نفسه من ذلك ، فوجد من النساخ الذين نقلوا عنها من كان ينسخ عن الصلب من غير اهتمام بالتصحيحات المكتوبة على الهوامش ، ومنهم من كان ينسخ التصحيحات ويترك ما كتب في الصلب ، كما يمكن أن يكون وجد من بينهم من كان ينسخ مرة من الصلب ، ومرة من الهوامش .

والتصحيح الذي وصف به خط عياض قد يكون الناسخ ، أو يعجزه مهما يكن حريصا عن أن يجمع ما كتب من التصحيحات على السطور والهوامش ، التي قد تكون الكتابة عليها بخط دقيق لضيق مساحتها عن أن تستوعب التصحيحات المطولة .

أما عن التجزئة فالظاهر أن النساخ تصرفوا فيها من عندياتهم ، وقسموها بحسب اجتهاداتهم ، بعد أن كان عياض قد جعل كتابه — ترتيب المدارك — في اجزاء خمسة كما أخبر بذلك ابنه في التعريف ص : 116 .



وفي احدى خزائن مدريد مخطوطة من الترتيب تقع في سبعة أجزاء ، قد نص في نهاية كل جزء منها على خاصة ، وأشير منها الى بداية الجزء الذي يليه وفق ما يأتي :

الجزء الاول : يبتدئ بخطبة الكتاب ، وينتهي بالباب الذي يتحدث عن اجماع الناس على امامة مالك ، والثناء الأكثير به .

الجزء الثاني : يبتدئ بالحديث عن مجلس مالك للسلم ، وينتهي بالحديث عمن حفظوا عنه السلم برهين على الحجم .

الجزء الثالث : يبتدئ بذكر الطبقات ، وينتهي بترجمة الفقيه يحيى الليثي .

الجزء الرابع : يبتدئ بتراجم الذين أخذوا عنه ، من دون أن ياخذوا عنه مباشرة ، ولم يسمعوا منه لقاء ، وينتهي هذا الجزء بترجمة أبي طالب القاضي .

الجزء الخامس : يبتدئ بالتعريف بالعالم المالكي عيسى بن مسكين الافريقي ، ويختم بالحديث عن أبي عبد الله الفهري الطليطلي .

الجزء السادس : يبتدئ بالحديث عن أبي مروان عبد الملك بن محمد المدني الشهير بالمرواني ، ويختتم بترجمة محمد بن عيسى التميمي .

الجزء السابع : يبتدئ بالقول في أبي القاسم سليمان بن علي الحجازي ، ويختم بترجمة أبي عبد الله بن مفرج بن موسى السبتي ، وبنهايته ينتهي الكتاب .

— السعي في طبعه —

كان المولى عبد الحفيظ سلطان المغرب — تغمده الله برحمته — وأسكنه فسيح جناته — قد عقد النية على طبع ترتيب المدارك ، فعهد الى وكيله بالمشرق السيد محمد بن العباس بن شقرون بالاشراف على طبعه بمصر ، وأرسل بعض مخطوطاته ليطبع عليها ، ولم يتم الأمر لعائق حال دون ذلك .

وفي عهده وبأمر منه بدئ بطبعه في فاس سنة : 1330 هـ فطبع منه نحو الكراسة ، ولم يخرج الترتيب مطبوعا ، لسبب عوق الأمر عنها للمرة الثانية .

مع قصد العزم ، وصحة النية من المولى عبد الحفيظ الذي اهتم باحياء التراث ، وكان — رحمه الله — سابقا لطبع « البحر المحيط في التفسير لأبي حيان » ، و « الاصابة في اخبار الصحابة لابن حجر العسقلاني » ، و « مشارق الأنوار على صحاح الآثار لعياض » .

وبمناسبة الاحتفال بالذكرى الالفية لتأسيس القرويين أوصى جلالة محمد الخامس — رضي الله عنه وأرضاه — وأكرم في جنة الخلد مثواه ، بطبع ترتيب المدارك ، فحال القدر دون ذلك للمرة الثالثة .

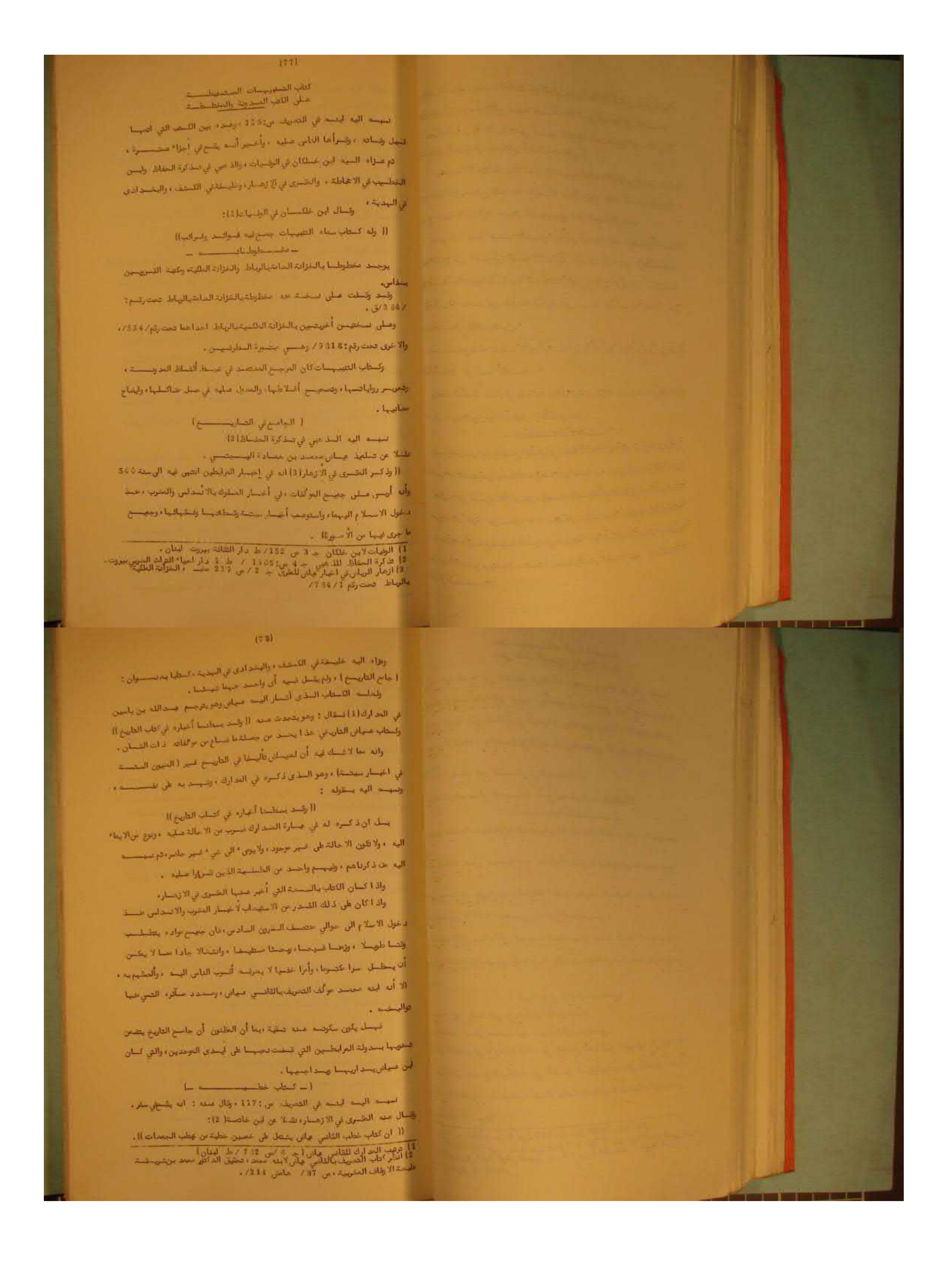
حتى اذا جاء عهد الحسن الثاني أسماه الله ، واعز البلاد بسماه جدد العزم على اخراج ترتيب المدارك بأسف القدر به ، وبدأت بطبعه وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغربية ، وظهر الجزء الاول منه محققا بعناية الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي — رحمه الله — سنة 1965 عن مطبعة الشمال الافريقي .

وقد طبع منه لحد الآن أربعة أجزاء أخرى ، والأمر جار على اخراج بقية أجزائه ان شاء الله .

وبينما العمل جار في طبعه بالمغرب صدرت منه طبعة في لبنان ليست على ما ينبغي من العناية ، والتحقيق .

— منزلة الترتيب —

يعتبر الترتيب من أوسع الكتب في طبقات المالكية ، ومن أكثرها استيعابا بالتراجم من اقتدوا بمالك ، وتمذهبوا بمذهبه ، ومن أشدها صحة وتدقيقا في ايراد الاخبار ، ووصف الاحوال مع التصون عن ذكر ما لا ينبغي ، والتنزه عن سرد ما لا يليق ، وقد صدره بترجمة مستوعبة لأخبار مالك ، أوسع فيها القول في سيرته ، وذكر من تفاصيلها ودقائقها ما جعل هذا القسم مرجعا معتمدا ومصدرا لسيرة امام الحجاز وامام دار الهجرة .



كتاب التنبيهات المستنبطة
على الكتب المدونة والمختلطة

نسبه اليه ابنه في التعريف ص: 125، وعده من الكتب التي أكملها قبل وفاته، وقرأها الناس عليه، وأخبر أنه يقع في أجزاء عشرة.

ثم عزاه اليه ابن خلكان في الوفيات، والذهبي في تذكرة الحفاظ وابن الخطيب في الاحاطة، والمقري في الأزهار، وخليفة في الكشف، والبغدادي في الهدية،

وقال ابن خلكان في الوفيات(1):

((وله كتاب سماه التنبيهات جمع فيه فوائد وغرائب))

– مخطوطاته –

يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط والخزانة الملكية ومكتبة القرويين بفاس.

وقد وقفت على نسخة منه مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 334/ق.

وعلى نسختين أخريين بالخزانة الملكية بالرباط احداهما تحت رقم/ 534/، والاخرى تحت رقم: 9318/ وهي مبتورة الطرفين.

وكتاب التنبيهات كان المرجع المعتمد في ضبط ألفاظ المدونة، وتحرير رواياتها، وتصحيح ألفاظها، والمعول عليه في حل مشاكلها، وايضاح معانيها.

(الجامع في التاريخ)

نسبه اليه الذهبي في تذكرة الحفاظ(2)
نقلا عن تلميذ عياض محمد بن حمادة السبتي.

((وذكر المقري في الأزهار(3) انه في اخبار المرابطين انتهى فيه الى سنة 540 وأنه أربى على جميع المؤلفات، في أخبار الملوك بالاندلس والمغرب، منذ دخول الاسلام اليهما، واستوعب أخبار سبتة وقضاتها وفقهائها، وجميع ما جرى فيها من الأمور)).

1) الوفيات لابن خلكان ج 3 ص 152/ ط دار الثقافة بيروت لبنان.
2) تذكرة الحفاظ للذهبي ج 4 ص: 1305 / ط 1 دار احياء التراث العربي بيروت.
3) ازهار الرياض في اخبار عياض للمقري ج 2 / ص 237 مخ، الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 1/ 734/.

وعزاه اليه خليفة في الكشف، والبغدادي في الهدية، كلاهما بعنوان: (جامع التاريخ)، ولم ينقل فيه أي واحد عنهما شيئا.

ولعله الكتاب الذي أشار اليه عياض وهو يترجم عبد الله بن ياسين في المدارك(1) فقال: وهو يتحدث عنه ((وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ)) وكتاب عياض التاريخي هذا يعد من جملة ما ضاع من مؤلفاته ذات الشأن.

وانه مما لا شك فيه أن لعياض تأليفا في التاريخ غير (العيون الستة في اخبار سبتة)، وهو الذي ذكره في المدارك، وشهد به على نفسه، ونسبه اليه بقوله:

((وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ))

يدل ان ذكره له في عبارة المدارك ضرب من الاحالة عليه، ونوع من الايماء اليه، ولا تكون الاحالة على غير موجود، ولا يومئ الى شيء غير حاضر، ثم نسبه اليه من ذكرناهم، وفيهم واحد من الطلبة الذين قرؤوا عليه.

واذا كان الكتاب بالسعة التي أخبر عنها المقري في الازهار،

واذا كان على ذلك القدر من الاستيعاب لأخبار المغرب والاندلس منذ دخول الاسلام الى حوالي منتصف القرن السادس، فان جمع مواده يتطلب وقتا طويلا، وزمنا فسيحا، وجهدا مضنيا، واشتغالا جادا مما لا يمكن أن يظل سرا مكتوما، وأمرا خفيا لا يعرفه أقرب الناس اليه، وألصقهم به، الا أنه ابنه محمد مؤلف التعريف بالقاضي عياض، ومعدد مآثره التي خلفها ومؤلفاته.

فهل يكون سكوته عنه تقية، بما أن المظنون أن جامع التاريخ يتضمن فصولها بدولة المرابطين التي انتهت دولتها على أيدي الموحدين، والتي كان ابن عياض يداريها ويداجيها.

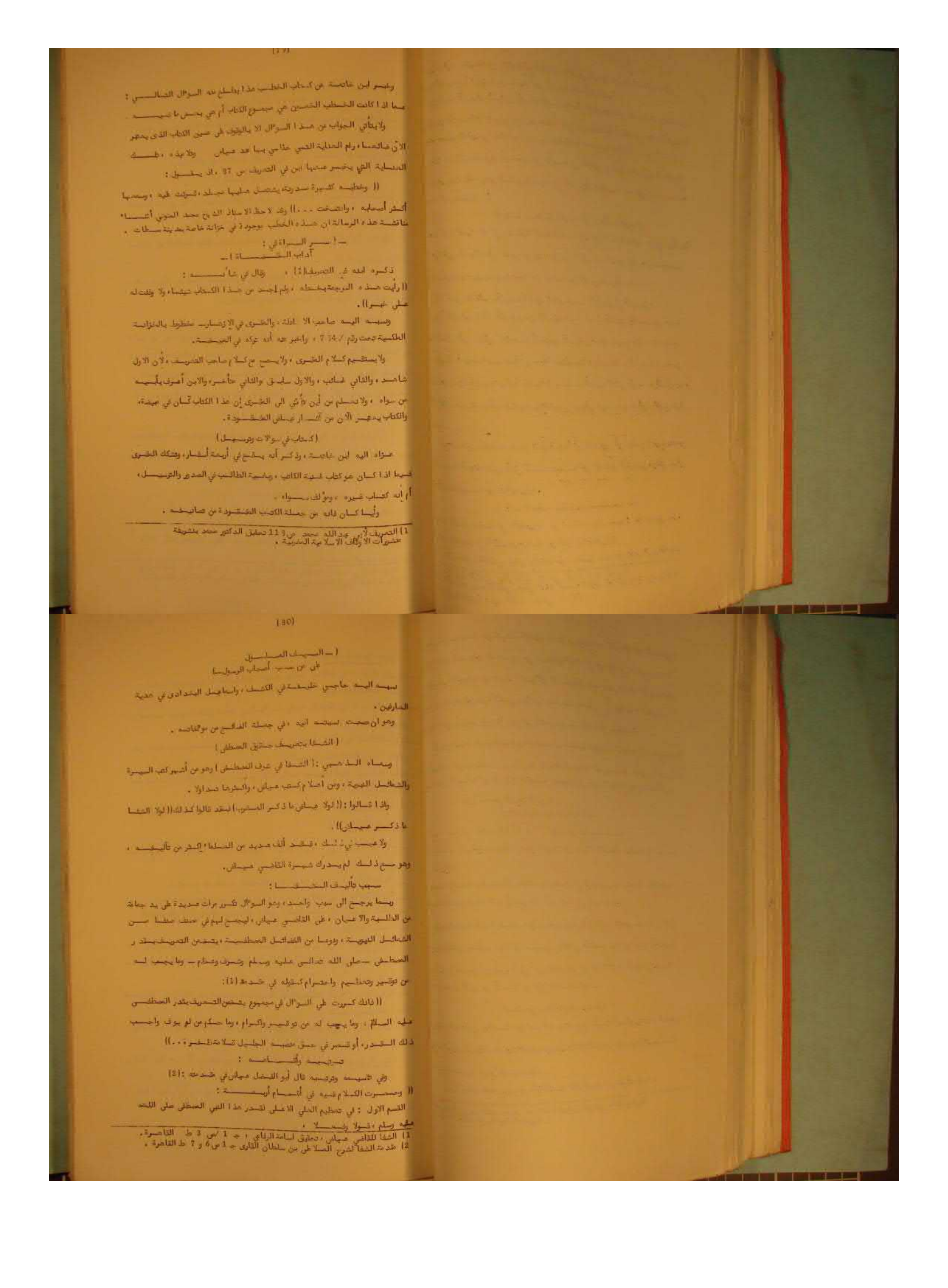
(كتاب خطب)

نسبه اليه ابنه في التعريف ص: 117، وقال عنه: انه يشتمل على سفر.

وقال عنه المقري في الازهار، نقلا عن ابن خاتمة(2):

((ان كتاب خطب القاضي عياض يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعات)).

1) ترتيب المدارك للقاضي عياض ج 4 / ص 782 / ط لبنان)
2) انظر كتاب التعريف بالقاضي عياض لابنه محمد، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة طبعة الاوقاف المغربية، ص 87 / هامش 211.



ويعتبر ابن خاصة عن كتاب الخطب هذا يطالعنا السؤال التالي :
هل إذا كانت الخطب التسعين هي مجموع الكتاب أم هي بعض ما فيه .

ولا يتأتى الجواب عن هذا السؤال إلا بالوقوف على عين الكتاب الذي يعتبر الآن مفقودا، رغم العناية التي حظي بها عند عياض وبلاده، وتلك العناية التي يخبر عنها ابن في التعريف ص 87، إذ يقول :

((وخطبه كثيرة مدونة يتصل عليها مجلد، تنوفس فيه، وحفظها أكثر أصحابه، وانتسخت ...)) وقد لاحظ الأستاذ الشيخ محمد المنوني أثناء مناقشة هذه الرسالة أن هذه الخطب موجودة في خزانة خاصة بمدينة سطات .

ـ أسـر الـرائي :
آداب الـشـفـاة ـ

ذكره ابنه في التعريف(1)، وقال في شأنه :
((رأيت هذه الترجمة بخطه، ولم أجد من هذا الكتاب شيئا، ولا وقفت له على خبر)).

وينسبه إليه صاحب الإحاطة، والقشيري في الإرشاد، مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم 7734، وأخبر عنه أنه تركه في المبيضة.

ولا يستقيم كلام القشيري، ولا يصح مع كلام صاحب التعريف، لأن الأول شاهد، والثاني غائب، والأول سابق والثاني متأخر، والابن أعرف بأبيه من سواه، ولا ندري من أين تأتى إلى القشيري أن هذا الكتاب كان في مبيضة، والكتاب يعتبر الآن من آثار عياض المفقودة.

(كتاب في سؤالات وتوسل)

عزاه إليه ابن خاصة، وذكر أنه يقع في أربعة أسفار، وشكك القشيري فيما إذا كان هو كتاب غنية الكاتب، وبغية الطالب في الصدور والترسيل، أم أنه كتاب غيره، ومؤلف سواه.

وأيا كان فإنه من جملة الكتب المفقودة من تصانيفه .

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص 11 تحقيق الدكتور محمد بنشريفة منشورات الأوقاف الإسلامية المغربية .

أ ـ السيف المسلول
على من سب أصحاب الرسول

نسبه إليه حاجي خليفة في الكشف، وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين .

وهو إن صحت نسبته إليه، في جملة الضائع من مؤلفاته .

(الشفا بتعريف حقوق المصطفى)

وسماه الذهبي : (الشفا في شرف المصطفى) وهو من أشهر كتب السيرة والشمائل النبوية، ومن أعلام كتب عياض، وأكثرها تداولا .

وإذا قالوا : ((لولا عياض ما ذكر المغرب)) فقد قالوا كذلك ((لولا الشفا ما ذكر عياض)).

ولا عجب في ذلك، فقد ألف عديد من العلماء أكثر من تأليفه، وهو مع ذلك لم يدرك شهرة القاضي عياض.

سبب تأليف الشفا :

ربما يرجع إلى سبب واحد، وهو السؤال تكررت مرات عديدة على يد جماعة من الدالسية والأعيان، على القاضي عياض، ليجمع لهم في ذلك مصنفا عن الشمائل النبوية، وما من الفضائل المصطفوية، يتضمن التعريف بقدر المصطفى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم ـ وما يجب له من توقير وتعظيم واحترام كقوله في مقدمته(1):

((فإنك كررت علي السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه السلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يوف واجب ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر...))

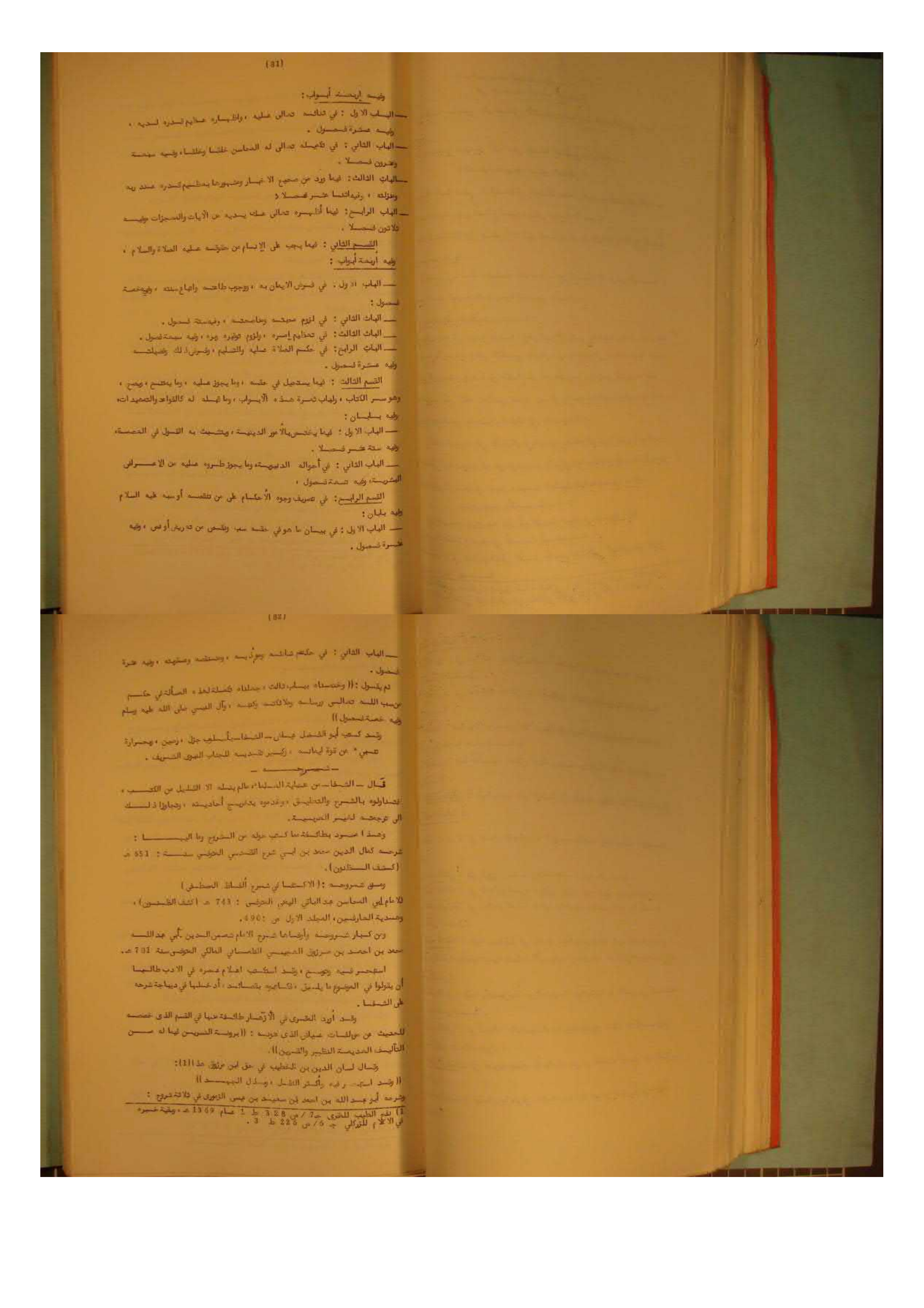
ترتيبه وأقسامه :

وفي تقسيمه وترتيبه قال أبو الفضل عياض في مقدمته :(2)

((وجعلت الكلام فيه في أقسام أربعة :

القسم الأول : في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، قولا وفعلا .

1) الشفا للقاضي عياض، تحقيق أسامة الرفاعي، ج 1/ص 3 ط القاهرة.
2) مقدمة الشفا لشرح الملا علي بن سلطان القاري ج 1 ص 6 و 7 ط القاهرة .



وفيه أربعة أبواب :

ـــ الباب الاول : في ثنائه تعالى عليه ، وإظهاره عظيم قدره لديه ، وفيه عشرة فصول .

ـــ الباب الثاني : في تكميله تعالى له المحاسن خلقا وخلقا ، وفيه سبعة وعشرون فصلا .

ـــ الباب الثالث : فيما ورد من صحيح الاخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته ، وفيه اثنا عشر فصلا .

ـــ الباب الرابع : فيما أظهره تعالى على يديه من الآيات والمعجزات وفيه ثلاثون فصلا .

القسم الثاني : فيما يجب على الانام من حقوقه عليه الصلاة والسلام ، وفيه أربعة أبواب :

ـــ الباب الاول : في فرض الايمان به ، ووجوب طاعته واتباع سنته ، وفيه خمسة فصول :

ـــ الباب الثاني : في لزوم محبته ومناصحته ، وفيه ستة فصول .

ـــ الباب الثالث : في تعظيم أمره ، ولزوم توقيره وبره ، وفيه سبعة فصول .

ـــ الباب الرابع : في حكم الصلاة عليه والتسليم ، وفرض ذلك وفضيلته وفيه عشرة فصول .

القسم الثالث : فيما يستحيل في حقه ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع ، ويصح ، وهو سر الكتاب ، ولباب ثمرة هذه الأبواب ، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات ، وفيه بابان :

ـــ الباب الاول : فيما يختص بالأمور الدينية ، ويتشبث به القول في العصمة ، وفيه ستة عشر فصلا .

ـــ الباب الثاني : في أحواله الدنيوية وما يجوز طروه عليه من الاعراض البشرية ، وفيه تسعة فصول .

القسم الرابع : في تصريف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه عليه السلام وفيه بابان :

ـــ الباب الاول : في بيان ما هو في حقه سب ونقص من تعريض أو نص ، وفيه عشرة فصول .

ـــ الباب الثاني : في حكم شانئه ومؤذيه ، ومنتقصه وعقوبته ، وفيه عشرة فصول .

ثم يقول : ((وختمناه بباب ثالث ، جعلناه تكملة لهذه المسألة في حكم من سب الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه ، وآل النبي صلى الله عليه وسلم وفيه خمسة فصول))

وقد كتب أبو الفضل عياض ـ الشفا ـ بأسلوب جزل ، رصين ، وحرارة تنم عن قوة ايمانه ، وكبير تقديسه للجناب النبوي الشريف .

ـ شـــروحـــه ـ

قال ـ الشفا ـ من عناية العلماء ، ما لم ينله الا القليل من الكتب ، فتداولوه بالشرح والتعليق ، وخدموه بتخريج أحاديثه ، وتجاوزوا ذلك الى ترجمته لغير العربية .

وهذا اعدود بطائفة مما كتب حوله من الشروح وما اليها :

شرحه كمال الدين محمد بن ابي شرع التلمساني المتوفي سنة : 651 هـ (كشف الظنون) .

ومن شروحه : (الاكتفا في شرح ألفاظ المصطفى)

للامام أبي المحاسن عبد الباقي اليمني المتوفي : 743 هـ (كشف الظنون) ، وهدية العارفين ، المجلد الاول ص : 490 .

ومن كبار شروحه وأرفعها شرح الامام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المالكي المتوفي سنة 781 هـ .

استبحر فيه وتوسع ، وقد استكتب اعلام عصره في الادب طالبها أن يقولوا في الموضوع ما يليق ، فكاتبوه بقصائد ، أدخلها في ديباجة شرحه على الشفا .

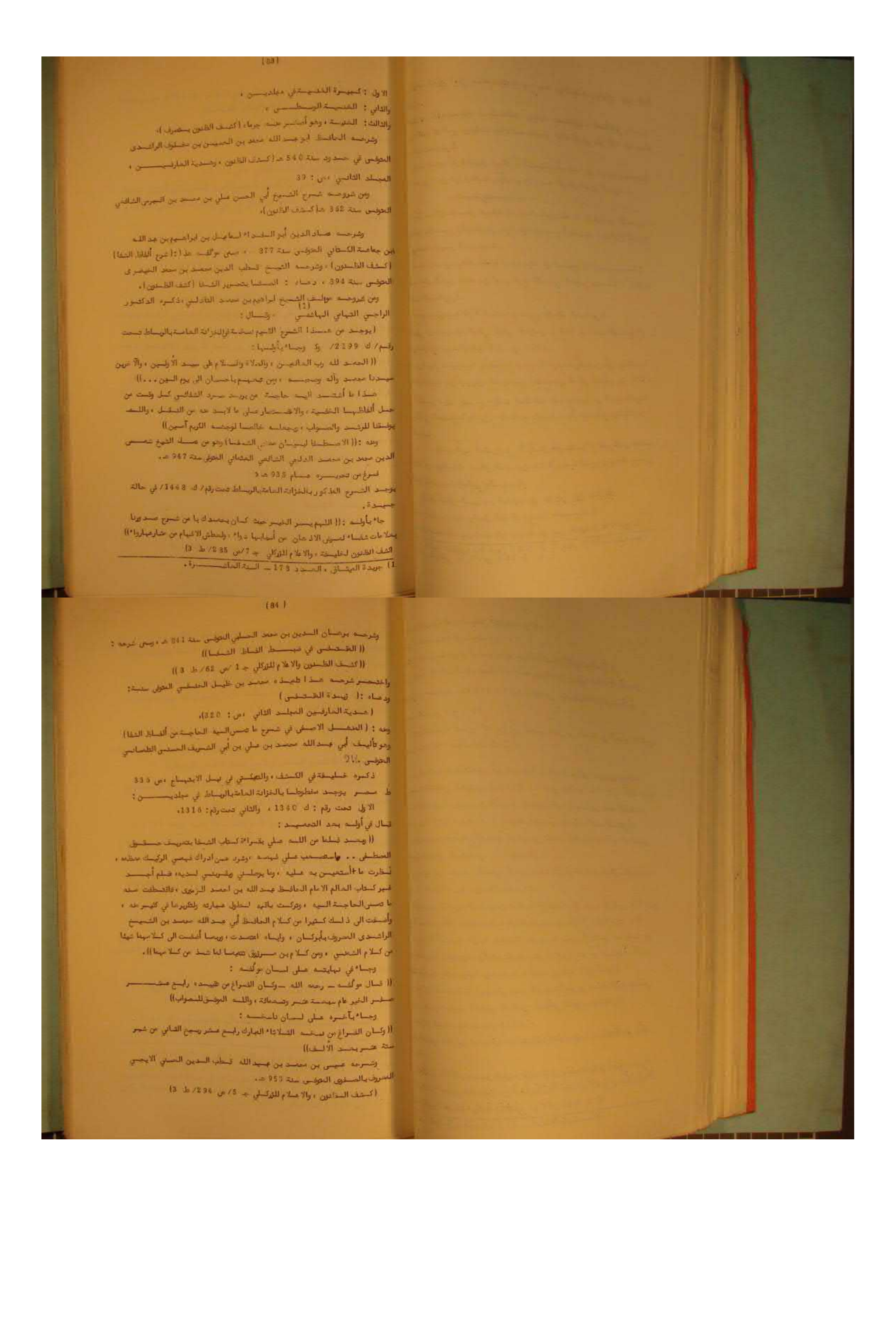
وقد أورد المقري في الأزهار طائفة منها في القسم الذي خصصه للحديث عن مؤلفات عياض الذي عنونه : ((بروضة النسرين فيما له من التآليف العديمة النظير والقرين)) .

وقال لسان الدين بن الخطيب في حق ابن مرزوق هذا(1):

((وقد استبحر فيه وأكثر النقل ، وجلب النهد))

وشرحه أبو عبد الله بن احمد بن سعيد بن عيسى الزموري في ثلاثة شروح :

1) نفح الطيب للمقري جـ 7 / ص 328 ط 1 عام 1369 هـ ، وتنظر ترجمته في الأعلام للزركلي جـ 5 / ص 225 ط 3 .

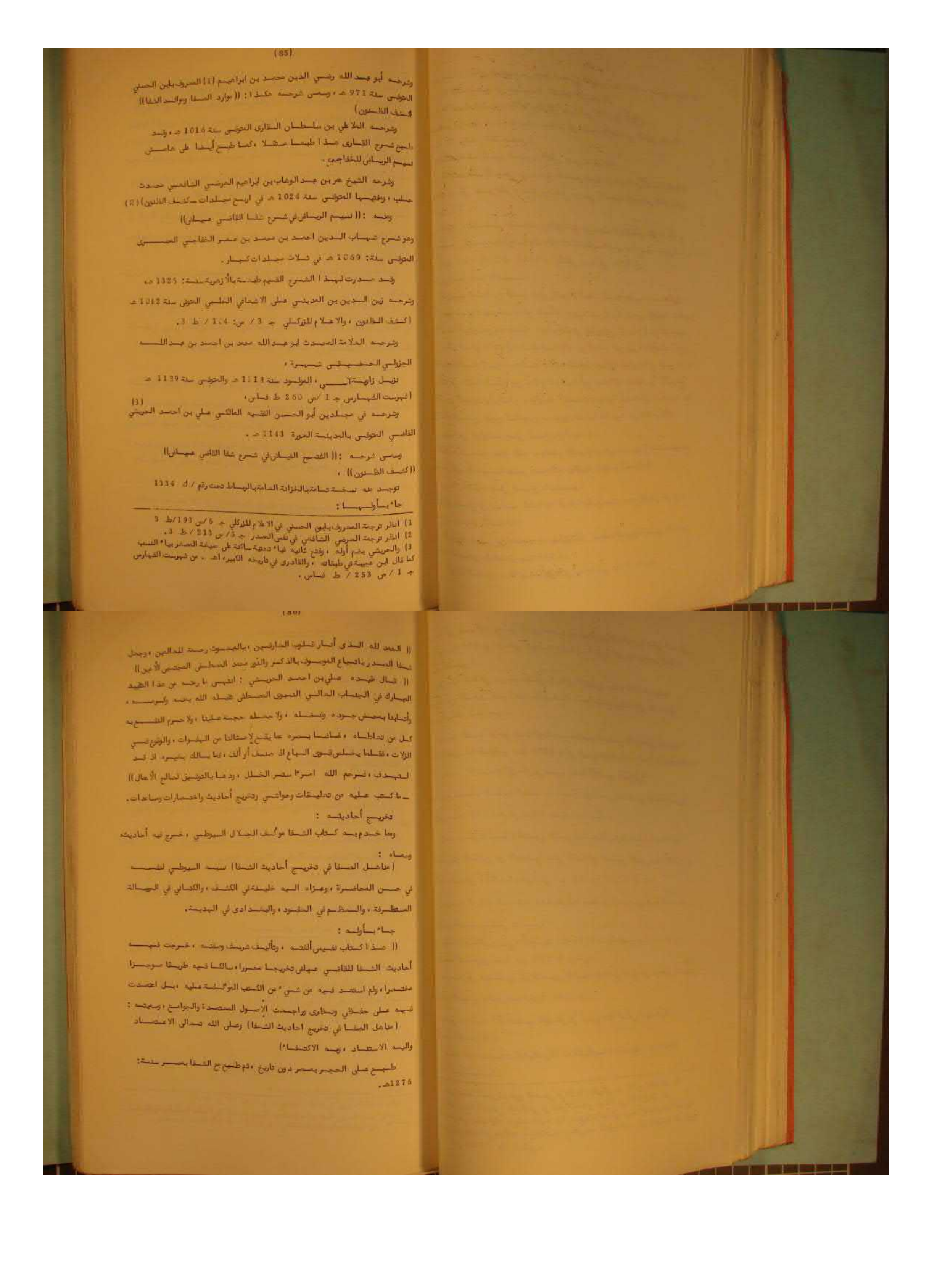


الاول : كمهيرة الخفية في مجلدين ،
والثاني : الشفية الوسطى ،
والثالث : الشفوية ، وهو أصغر منه حجما (كشف الظنون بتصرف).
وشرحه الحافظ ابو عبد الله محمد بن الحسين بن مخلوف الراشدي المتوفى في حدود سنة 540 هـ (كشف الظنون ، وهدية العارفين ، المجلد الثاني ، ص : 39
ومن شروحه شرح الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن الجوهري الشافعي المتوفى سنة 362 هـ (كشف الظنون).

وشرحه عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن ابراهيم بن عبد الله بن جماعة الكناني المتوفى سنة 377 ، سمى مؤلفه هذا (: شرح ألفاظ الشفا) (كشف الظنون) ، وشرحه الشيخ قطب الدين محمد بن محمد الخيضري المتوفى سنة 394 ، دعاه : الصفا بتحرير الشفا (كشف الظنون).
ومن شروحه مؤلف الشيخ ابراهيم بن محمد التادلي ، ذكره الدكتور الراجي التهامي الهاشمي (1) وقال :
(يوجد من هذا الشرح القيم نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم / ك 2199 / وك وجاء بأولها :
((الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين ، والآخرين سيدنا محمد وآله وصحبه ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ...))
هذا ما أقصد اليه حاجة من يريد سرد الشفا كل وقت من حل ألفاظها الخفية ، والاقتصار على ما لابد منه من النقل ، والله يوفقنا للرشد والصواب ، ويجعله خالصا لوجهه الكريم آمين))
ومنه : ((الاصطفا لبيان معاني الشفا)) وهو من عمل الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الدلجي الشافعي العثماني المتوفى سنة 947 هـ.
فرغ من تحريره عام 935 هـ
يوجد الشرح المذكور بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم / ك 1468 / في حالة جيدة .
جاء بأوله : ((اللهم يسر الخير حمدا كان بحمدك يا من شرح صدورنا بعلامات شفاء لعيون الاذهان من أدوائها دواء ، ولعطش الافهام من خارجها رواء))
كشف الظنون لخليفة ، والاعلام للزركلي ج 7 / ص 235 / ط 3)

(1) جريدة الميثاق ، العدد 175 ــ السنة العاشرة .

وشرحه برهان الدين بن محمد الحلبي المتوفى سنة 841 هـ ، وسمى شرحه :
((المقتفى في ضبط الفاظ الشفا))
((كشف الظنون والاعلام للزركلي ج 1 / ص 62 / ط 3))
واختصر شرحه هذا تلميذه محمد بن خليل المنشي المتوفى سنة : ودعاه : (زبدة المقتفى)
(هدية العارفين المجلد الثاني ، ص : 220).
ومنه : (المنهل الاصفى في شرح ما تمس اليه الحاجة من ألفاظ الشفا) وهو تأليف أبي عبد الله محمد بن علي بن أبي الشريف الحسني التلمساني المتوفى 917.
ذكره خليفة في الكشف ، والتنبكتي في نيل الابتهاج ، ص 335 ط مصر يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط في مجلدين :
الاول تحت رقم : ك 1360 ، والثاني تحت رقم : 1316.
قال في أوله بعد التحميد :
((وبعد فلما من الله علي بقراءة كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى .. ما استصعب على فهمه ، وشرد عن ادراك فهمي الركيك معظمه ، نظرت ما أستعين به عليه ، وما يوصلني ويقربني لديه ، فلم أجد غير كتاب العالم الامام الحافظ عبد الله بن احمد الزمري ، فالتقطت منه ما تمس الحاجة اليه ، وتركت باقيه لطول عبارته وتكريرها في كثير منه ، وأضفت الى ذلك كثيرا من كلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن الشيخ الراشدي المعروف بأبركان ، واياه اعتمدت ، وربما أضفت الى كلامهما شيئا من كلام الشمني ، ومن كلام بن مرزوق تتميما لما شذ من كلامهما)).
وجاء في نهايته على لسان مؤلفه :
((قال مؤلفه ــ رحمه الله ــ وكان الفراغ من تقييده رابع عشر صفر الخير عام سبعة عشر وتسعمائة ، والله الموفق للصواب))
وجاء بآخره على لسان ناسخه :
((وكان الفراغ من نسخه الثلاثاء المبارك رابع عشر ربيع الثاني من شهر ستة عشر بعد الألف))
وشرحه عيسى بن محمد بن عبيد الله قطب الدين الحسني الايجي المعروف بالصفوي المتوفى سنة 953 هـ.
(كشف الظنون ، والاعلام للزركلي ج 5 / ص 294 / ط 3)



وشرحه أبو عبد الله رضي الدين محمد بن ابراهيم (1) المعروف بابن الحنبلي المتوفى سنة 971 هـ، وسمى شرحه هكذا: ((موارد الصفا وموائد الشفا)) (كشف الظنون)

وشرحه الملا علي بن سلطان القاري المتوفى سنة 1016 هـ، وقد طبع شرح القاري هذا طبعا مستقلا، كما طبع أيضا على هامش نسيم الرياض للخفاجي.

وشرحه الشيخ عمر بن عبد الوهاب بن ابراهيم العرضي الشافعي محدث حلب، وفقيهها المتوفى سنة 1024 هـ في اربع مجلدات - كشف الظنون (2)

ومنه: ((نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض))

وهو شرح شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري المتوفى سنة: 1069 هـ في ثلاث مجلدات كبار.

وقد صدرت لهذا الشرح القيم طبعة بالأزهرية سنة: 1325 هـ

وشرحه زين الدين بن العديني علي الاشحاني الحلبي المتوفى سنة 1042 هـ (كشف الظنون، والاعلام للزركلي ج 3 / ص: 1.4 / ط 3.

وشرحه العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الله الجزولي الحضيكي شهرة، نزيل زاوية آسي، المولود سنة 1118 هـ والمتوفى سنة 1139 هـ (فهرست الفهارس ج 1 / ص 260 ط فاس،

وشرحه في مجلدين أبو الحسن الفقيه المالكي علي بن احمد الحريشي (3) الفاسي المتوفى بالمدينة المنورة 1143 هـ.

وسمى شرحه: ((الفتح الفياض في شرح شفا القاضي عياض)) ((كشف الظنون)).

توجد منه نسخة تامة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم / د 1334

جاء بأولها:

---

1) انظر ترجمة المعروف بابن الحنبلي في الاعلام للزركلي ج 6 / ص 193 / ط 3
2) انظر ترجمة العرضي الشافعي في نفس المصدر ج 5 / ص 213 / ط 3.
3) والحريشي بضم أوله، وفتح ثانيه فياء تحتية ساكنة على صيغة المصغر بياء النسب كما قال ابن عجيبة في طبقاته، والقادري في تاريخه الكبير، اهـ. من فهرست الفهارس ج 1 / ص 253 / ط فاس.

((الحمد لله الذي أنار قلوب العارفين، بالمبعوث رحمة للعالمين، وجعل شفا الصدور باتباع الموصوف بالذكر والنور محمد المصطفى المجتبى الأمين))

((قال عبده علي بن احمد الحريشي: انتهى ما رجحه عن هذا الشفا المبارك في الجناب العالي النبوي المصطفى تقبله الله بمنه وكرمه، وأثابنا بمحض جوده وفضله، ولا جعله حجة علينا، ولا حرم النفع به كل من تعاطاه، عاقيا بصره عما يقع لأمثالنا من الهفوات، والوقوع في الزلات، فقلما يخلص قوى السباع إلا صنف أو ألف، فما سالك بغيره الا قد استهدف، فرحم الله امرأ ستر الخلل، ودعا بالتوفيق لصالح الأعمال))

- ما كتب عليه من تعليقات وحواشي وتخريج أحاديث واختصارات وساعات.

تخريج أحاديثه:

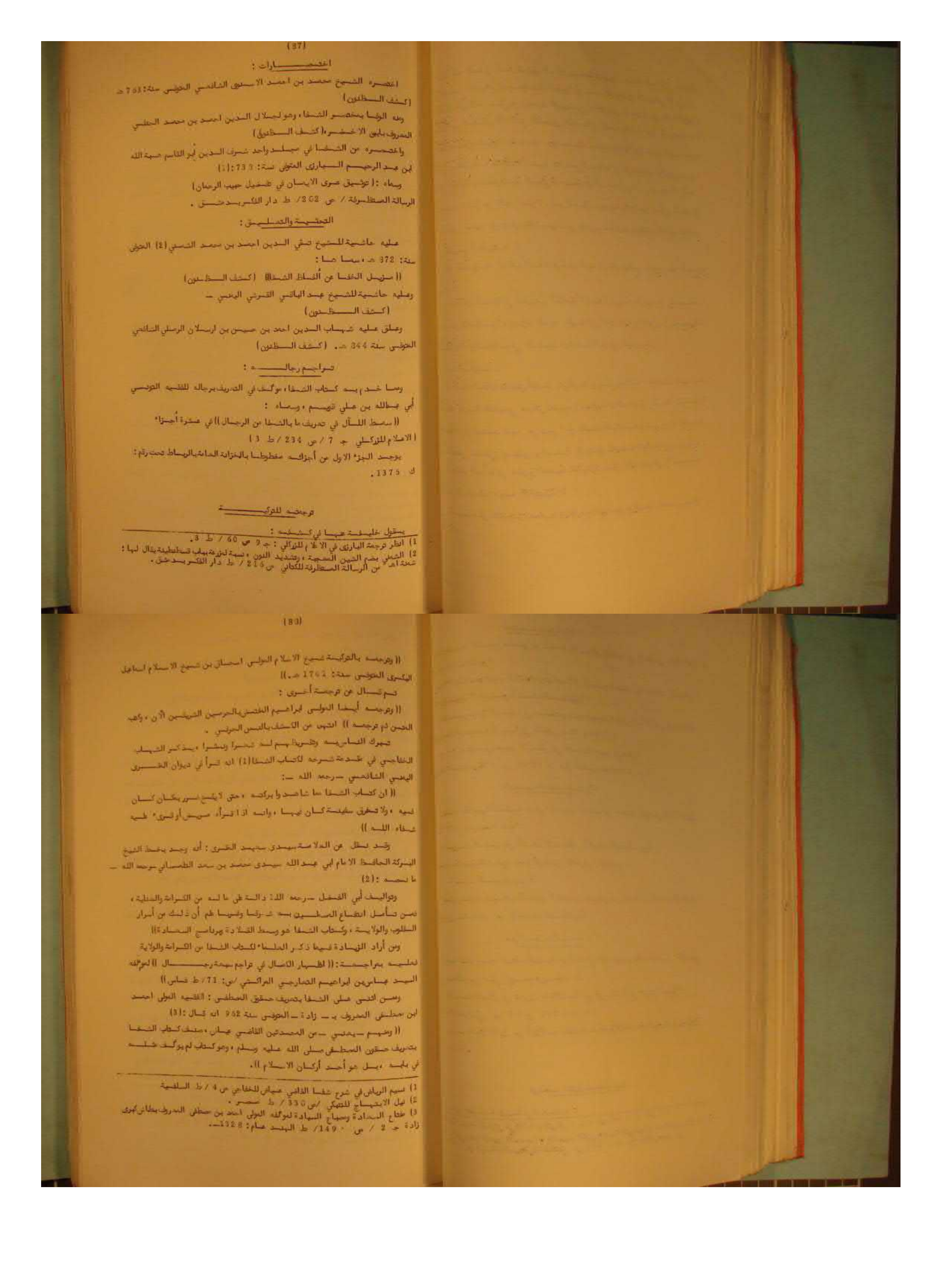
ومما خدم به كتاب الشفا مؤلف الجلال السيوطي، خرج فيه أحاديثه وسماه:

(مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) نسبه السيوطي لنفسه في حسن المحاضرة، وعزاه اليه خليفة في الكشف، والكتاني في الرسالة المستطرفة، والسنظم في العقود، والبغدادي في الهدية.

جاء بأوله:

((هذا كتاب نفيس ألفته، وتأليف شريف وضعته، خرجت فيه أحاديث الشفا للقاضي عياض تخريجا محررا، سالكا فيه طريقا موجزا مختصرا، ولم استمد فيه من شيء من الكتب المؤلفة عليه، بل اعتمدت فيه على حفظي ونظري ومراجعة الأصول المعتمدة والجوامع، وسميته: (مناهل الصفا في تخريج احاديث الشفا) وعلى الله تعالى الاعتماد واليه الاستناد، وبه الاكتفاء))

طبع على الحجر بمصر دون تاريخ، ثم طبع مع الشفا بمصر سنة: 1276 هـ.



اختصـــارات :

اختصره الشيخ محمد بن احمد الاسنوي الشافعي المتوفى سنة: 763 هـ (كشف الـظنون)

وله الوفـا بمختصر الشفا، وهو لجلال الدين احمد بن محمد الحلبي المعروف بابن الاخضر. (كشف الـظنون)

واختصره من الشـفا في مجلـد واحد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الرحيم البـارزي المتوفى سنة: 738 (1)

وسماه : (توثيق عرى الايمان في تفضيل حبيب الرحمان) الرسالة المستطرفة / ص 202 / ط دار الفكر بدمشق .

التحشية والتعليـق :

عليه حاشية للشيخ تقي الدين احمد بن محمد الشمني (2) المتوفى سنة: 872 هـ، سماها :

((مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا)) (كشف الـظنون)

وعليه حاشية للشيخ عبد الباقي القرشي اليمني ـ (كشف الـظنون)

وعلق عليه شهاب الدين احمد بن حسين بن ارسلان الرملي الشافعي المتوفى سنة 844 هـ. (كشف الـظنون)

تراجم رجالـــه :

ومما خدم به كتاب الشفا، مؤلف في التعريف برجاله للفقيه التونسي أبي عبد الله بن علي تميم، وسماه :

((سمط اللآل في تعريف ما بالشفا من الرجال)) في عشرة أجزاء (الاعلام للزركلي ج 7 / ص 234 / ط 3)

يوجد الجزء الاول من أجزائه مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: ك 1375 .

ترجمته للتركيـــة

يقول خليفة عنها في كشفه :

1) انظر ترجمة البارزي في الاعلام للزركلي : ج 9 ص 60 / ط 3 .
2) الشمني بضم الشين المعجمة، وتشديد النون، نسبة لمزرعة بباب قسنطينة يقال لها : شمنة اهـ من الرسالة المستطرفة للكتاني ص 216 / ط دار الفكر بدمشق .

((وترجمه بالتركية شيخ الاسلام المولى اسحاق بن شيخ الاسلام اسماعيل المتوفى سنة: 1162 هـ.))

ثم قال عن ترجمة أخرى :

((وترجمه أيضا المولى ابراهيم المفتش بالحرمين الشريفين الآن، والحمد لله تم ترجمته)) انتهى من الكشف بالنص الحرفي .

تبرك العارفين به وتوسلهم له شعرا ونثرا، يذكر الشهاب الخفاجي في مقدمة شرحه لكتاب الشفا (1) انه قرأ في ديوان الحضري اليمني الشافعي ـ رحمه الله ـ :

((ان كتاب الشفا مما شاهدوا بركته، حتى لا يقع ضرر بمكان كان فيه، ولا تغرق سفينة كان فيها، وانه اذا قرأه مريض أو قرئ عليه شفاه الله))

وقد نقل عن العلامة سيدي محمد الحضري : أنه وجد بخط الشيخ البركة الحافظ الامام أبي عبد الله سيدي محمد بن سعد التلمساني رحمه الله ـ ما نصه : (2)

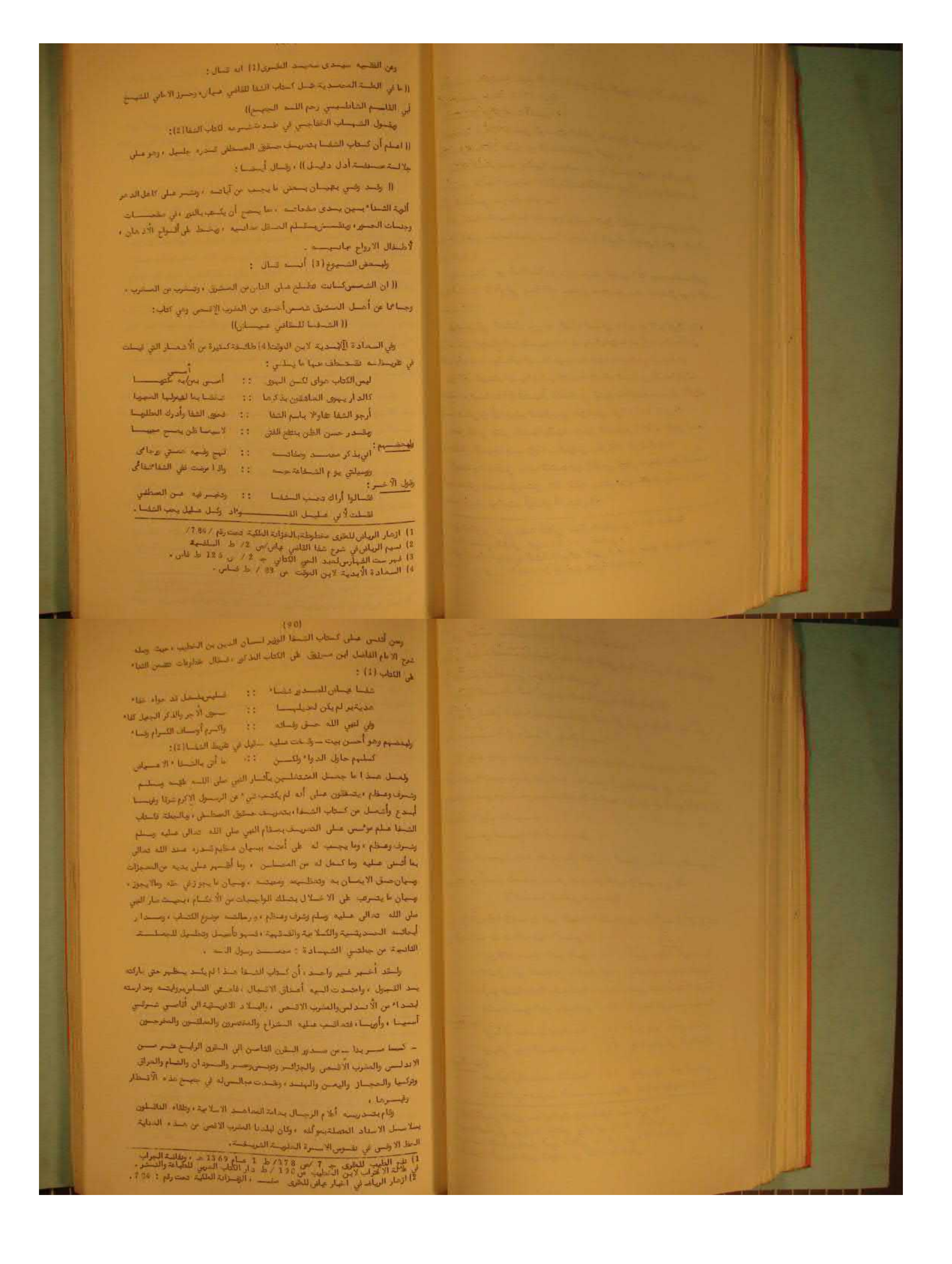
وتواليف أبي الفضل ـ رحمه الله ـ دالة على ما له من الكرامة والعناية، ومن تأمل انتفاع المسلمين به شرقا وغربا علم أن ذلك من أسرار الخلوص والولاية، وكتاب الشفا هو بسط القلادة وبرنامج السعادة))

ومن أراد الزيادة فيما ذكر العلماء لكتاب الشفا من الكرامة والولاية فعليه بمراجعة: ((اظهار الكمال في تراجم سبعة رجال)) لمؤلفه السيد عباس بن ابراهيم التعارجي المراكشي / ص: 71 / ط فاس))

وممن اثنى على الشفا بتعريف حقوق المصطفى : الفقيه المولى احمد ابن مصطفى المعروف بـ ـ زادة ـ المتوفى سنة 962 انه قال : (3)

((ومنهم ـ يحصبي ـ من المحدثين القاضي عياض، صنف كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب لم يؤلف مثله في بابه، بل هو أحد أركان الاسلام)).

1) نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض للخفاجي ص 4 / ط السلفية
2) نيل الابتهاج للتنبكتي / ص 330 / ط مصر .
3) مفتاح السعادة ومصباح السيادة لمؤلفه المولى احمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زادة ج 2 / ص 149 / ط الهند عام: 1328 هـ.



ومن الفقيه سيدي محمد الطبري(1) انه قال :

((ما في الملة المحمدية مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، وحرز الاماني للشيخ أبي القاسم الشاطبي رحمهما الله جميعا))

ويقول الشهاب الخفاجي في طالعة شرحه لكتاب الشفا(2):

((اعلم أن كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى قدره جليل ، وهو على جلالة مصنفه أدل دليل)) ، وقال أيضا :

((وقد وشى ببديع بيان بعض ما يجب من آياته ، ونشر على كاهل الدهر أبردة الشفاء بين يدي مدحاته ، مما يصح أن يكتب بالنور ، في صفحات وجنات الحور ، ويقتبس من مطلع الهلال معانيه ، ويخط على ألواح الأذهان ، لأطفال الارواح مبانيه .

ولبعض الشيوخ(3) أيضا قال :

((ان الشمس كانت تطلع على الناس من المشرق ، وتغرب من المغرب ، وجاءنا عن أهل المشرق شمس أخرى من المغرب الأقصى وهي كتاب :

((الشفا للقاضي عياض))

وفي السعادة الأبدية لابن الموقت(4) طائفة كثيرة من الأشعار التي قيلت في قريضه نقتطف منها ما يلي :

ليس الكتاب سوى لكن الهوى	::	أمسى يمن به تحصيها
كالدار يهوى العاشقون بذكرها	::	شغفا بما لقيوليها الصبيها
أرجو الشفا تفاؤلا باسم الشفا	::	فعسى الشفا وأدرك الطلبيها
ويقدر حسن الظن ينتفع الفتى	::	لاسيما ظن يصح صحيحا

ولبعضهم :

اني بذكر محمد وصفاته	::	لهج وفيه تستي ورجائي
ووسيلتي يوم الشفاعة حبه	::	واذا مرضت ففي الشفا شفائي

وقول الآخر :

فقالوا أراك تحب الشفا	::	وتخبر فيه عن المصطفى
فقلت لأني عليل الفؤاد	::	وكل عليل يحب الشفا .

1) ازهار الرياض للمقري مخطوطة بالخزانة الملكية تحت رقم / 7.84 /
2) نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض/ص 2/ ط السلفية
3) فهرست الفهارس لعبد الحي الكتاني ج 2 / ص 125 ط فاس .
4) السعادة الأبدية لابن الموقت ص 83 / ط فاس .

(90)

وممن أثنى على كتاب الشفا الوزير لسان الدين بن الخطيب ، حيث وصله شرح الامام الفاضل ابن مرزوق على الكتاب المذكور ، فقال مداعبات تضمن الثناء على الكتاب (1) :

شفا عياض للصدور شفاء	::	فليس بفضل قد حواه خفاء
هدية بر لم يكن لجزيلها	::	سوى الأجر والذكر الجميل كفاء
وفي لنبي الله حق وفائه	::	وأكرم أوصاف الكرام وفاء

ولبعضهم وهو أحسن بيت وقفت عليه قيل في تقريظ الشفا(2):

كتابهم حاول الدواء ولكن	::	ما أتى بالشفا الا عياض

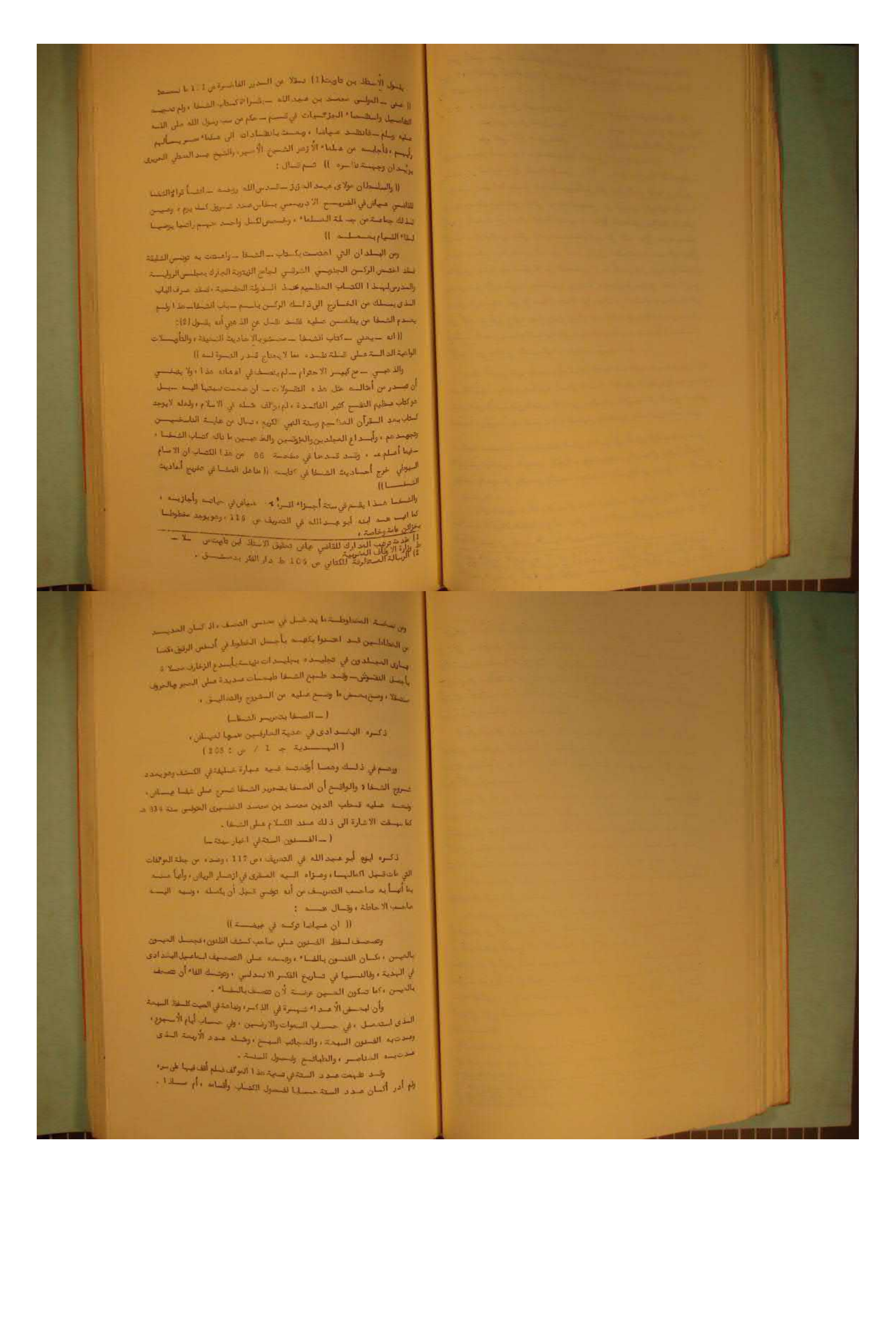
ولعل هذا ما جعل المشتغلين بآثار النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم ، يتفقون على أنه لم يكتب شيء عن الرسول الاكرم شرقا وغربا أبدع وأشمل من كتاب الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى ، وبالجملة فكتاب الشفا علم مؤسس على التعريف بمقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم ، وما يجب له على أمته ببيان عظيم قدره عند الله تعالى بما أثنى عليه وما كمل له من المحاسن ، وما أظهر على يديه من المعجزات وبيان حق الايمان به وتعظيمه ومحبته ، وبيان ما يجوز في حقه وما لا يجوز ، وبيان ما يترتب على الاخلال بتلك الواجبات من الأحكام ، بحيث صار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم ، ورسالته موضوع الكتاب ، ومدار أبحاثه الحديثية والكلامية والفقهية ، فهو تأصيل وتحليل للجملة الثانية من جملتي الشهادة : محمد رسول الله .

ولقد أخبر غير واحد ، أن كتاب الشفا هذا لم يكد يظهر حتى تاركه بعد القبول ، واعتدت اليه أعناق الاجيال ، فاعتنى الناس بروايته ودراسته ابتداء من الأندلس والمغرب الاقصى ، والبلاد الافريقية الى أقاصي شرقي آسيا ، وأوربا ، فقد انكب عليه الشراح والمختصرون والمعلقون والمخرجون

- كما سرى بدءا من صدور القرن الثامن الى القرن الرابع عشر من الاندلس والمغرب الأقصى والجزائر وتونس ومصر والسودان والشام والعراق وتركيا والحجاز واليمن والهند ، وعقدت مجالس له في جميع هذه الأقطار وغيرها ،

وقام بتدريسه أعلام الرجال بجامعة المعاهد الاسلامية ، وظفاء المتصلون بسلاسل الاسناد المتصلة بمؤلفه ، وكان لبلدنا المغرب الاقصى من هذه الدراية الحظ الاوفى في نفوس الأسرة العلوية الشريفة .

1) نفح الطيب للمقري ج 7 / ص 178 / ط 1 عام 1369 هـ ، وريحانة الكتاب في نفاضة الاجراب لابن الخطيب ص 150 / ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .
2) ازهار الرياض في أخبار عياض للمقري مخطوطة ، الخزانة الملكية تحت رقم : 7.84 .



يقول الأستاذ بن تاويت(1) نقلا عن الدرر الفاخرة ص 1 . 1 ما نصه:

((على – المولى محمد بن عبد الله – قراءة كتاب الشفا، ولم تحجبه التفاصيل واستقصاء الجزئيات في تقسيم – حكم من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم – فانتقد سياقا، وبعث بانتقادات الى علماء عصره يسألهم رأيهم، فأجابه من علماء الأزهر الشيخ الأمير، والشيخ عبد المعطي الحريري يؤيدان وجهة نظره)) ثم قال:

((والسلطان مولاى عبد الرزق – قدس الله روحه – انشأ قراءة الشفا للقاضي عياض في الضريح الادريسي بفاس عند شروق كل يوم، وعين لذلك جماعة من جلة العلماء، وخصص لكل واحد منهم راتبا يرضيه لقاء القيام بعمله))

ومن البلدان التي اهتمت بكتاب – الشفا – واعتنت به تونس الشقيقة فقد اختص الركن الجنوبي الشرقي لجامع الزيتونة المبارك بمجلس الرواية والدرس لهذا الكتاب العظيم عهد الدولة الحفصية، فقد عرف الباب الذي يسلك من الخارج الى ذلك الركن باسم – باب الشفاء – ولم يعدم الشفا من يطعن عليه فقد نقل عن الذهبي أنه يقول(2):

((انه – يعني – كتاب الشفا – محشو بالاحاديث المختلقة، والتأويلات الواهية الدالة على قلة نقد، مما لا يحتاج قدر النبوة له))

والذهبي – مع كبير الاحترام – لم ينصف في ادعائه هذا، ولا ينبغي أن يصدر من أمثاله مثل هذه المقولات – ان صحت نسبتها اليه – بل هو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة، لم يؤلف مثله في الاسلام، ولعله لا يوجد كتاب بعد القرآن العظيم وسنة النبي الكريم، نال من عناية الناسخين وتجويدهم، وابداع المجلدين والمزخرفين والمذهبين ما ناله كتاب الشفا، فيما أعلم. وقد قدمنا في صفحة 86 من هذا الكتاب ان الامام السيوطي خرج أحاديث الشفا في كتابه ((مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا))

والشفا هذا يقع في ستة أجزاء [illegible] عياض في حياته وأجازته، كما أجاز به ابنه أبو عبد الله في التعريف ص 114، وهو يوجد مخطوطا بخزائن عامة وخاصة،

1) مقدمة ترتيب المدارك للقاضي عياض تحقيق الاستاذ ابن تاويت ص [illegible] ط وزارة الاوقاف المغربية
2) الرسالة المستطرفة للكتاني ص 104 ط دار الفكر بدمشق.

ومن نسخه المخطوطة ما يدخل في عداد التحف، اذ كان العديد من الخطاطين قد اعتنوا بكتبه بأجمل الخطوط في أنفس الرقيق، كما تبارى المجلدون في تجليده بمجلدات مذهبة بأبدع الزخارف محلاة بأجمل النقوش – وقد طبع الشفا طبعات عديدة على الحجر وبالحروف مفصلا، ومع بعض ما وضع عليه من الشروح والحواشي.

(– الصفا بتحرير الشفا)

ذكره البغدادي في هدية العارفين عنها لعياض،

(الهدية ج 1 / ص : 205)

ووهم في ذلك وهما أوقعته فيه عبارة خليفة في الكشف وهو بصدد شروح الشفا، والواضح أن الصفا بتحرير الشفا شرح على شفا عياض، وضعه عليه قطب الدين محمد بن محمد الخيضري المتوفى سنة 894 هـ كما سبقت الاشارة الى ذلك عند الكلام على الشفا.

(– الفنون الستة في اخبار سبتة)

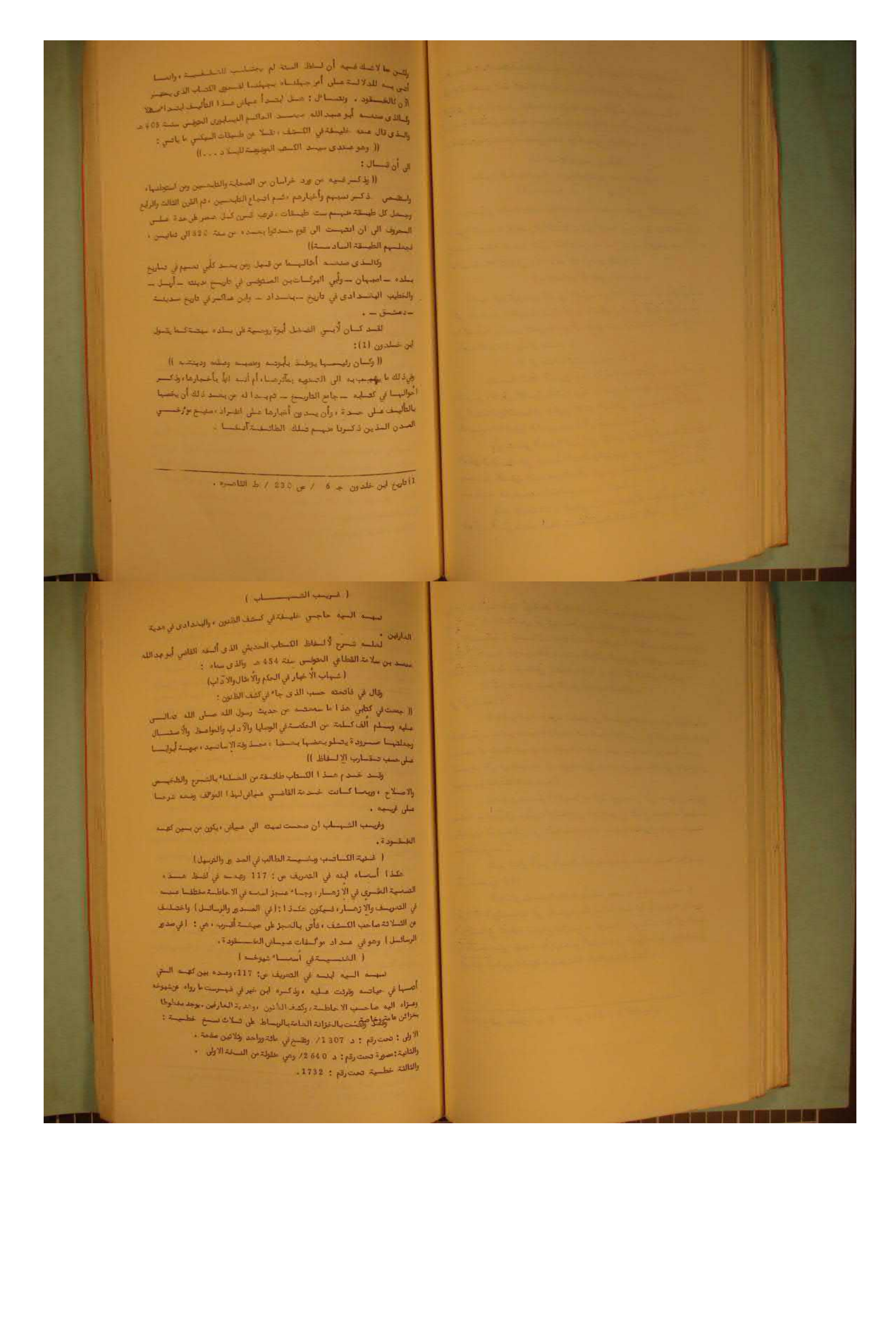
ذكره ابنه أبو عبد الله في التعريف، ص 117، وعده من جملة المؤلفات التي مات قبل اكمالها، وعزاه اليه المقري في ازهار الرياض، وأفاد عنه بما أنبأ به صاحب التعريف من أنه توفي قبل أن يكمله، ونسبه اليه صاحب الاحاطة، وقال عنه:

((ان عياضا تركه في مبيضة))

وصحف لفظ الفنون على صاحب كشف الظنون، فجعل العيون بالعين، مكان الفنون بالفاء، وتبعه على التصحيف اسماعيل البغدادي في الهدية، وبالنسيا في تاريخ الفكر الاندلسي، ووشك الفاء أن تصحف بالعين، كما تكون العين عرضة لأن تصحف بالفاء.

وأن لبعض الأعداد شهرة في الذكر، وبخاصة في الحديث للفظ السبعة الذي استعمل في حساب السموات والارضين، وفي حساب أيام الأسبوع، وعدت به الفنون السبعة، والعجائب السبع، ومثله عدد الأربعة الذي عدت به العناصر، والطبائع وفصول السنة.

وقد طمحت عدد الستة في تسمية هذا المؤلف فلم أقف فيها على سره، ولم أدر أكان عدد الستة حسابا لفصول الكتاب وأقسامه، أم ماذا.



ولكن مما لاشك فيه أن لفظ الستة لم يختص بالتاريخ، وإنما أتى به للدلالة على أمر جهلناه بجهلنا لمضمون الكتاب الذي يعتبر الآن كالمفقود. ونتساءل: هل ابتدأ عياض هذا التأليف ابتداء أصلا كالذي صنفه أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابوري المتوفى سنة 405 هـ والذي قال عنه خليفة في الكشف، نقلا عن طبقات السبكي ما يأتي:

((وهو عندي سيد الكتب الموضوعة للبلاد ...))

الى أن قال:

((يذكر فيه من ورد خراسان من الصحابة والتابعين ومن استوطنها، واستقصى ذكر نسبهم وأخبارهم، ثم اتباع التابعين، ثم القرن الثالث والرابع وجعل كل طبقة منهم ست طبقات، ورتب قرن كل عصر على حدة على الحروف الى ان انتهت الى قوم حدثوا بعده من سنة 320 الى ثمانين، تجعلهم الطبقة السادسة))

وكالذي صنفه أمثالهما من قبل ومن بعد كأبي نعيم في تاريخ بلده – اصبهان – وأبي البركات بن المستوفي في تاريخ مدينته – أربل – والخطيب البغدادي في تاريخ – بغداد – وابن عساكر في تاريخ مدينة – دمشق –.

لقد كان لأبي الفضل أبوة روحية على بلده سبتة كما يقول ابن خلدون (1):

((وكان رئيسها بوحدة بأبوته ومنصبه وعلمه وديانته))

في ذلك ما يذهب به الى التنويه بمآثرها، أو أنه اهتم بأخبارها، وذكر أحوالها في كتابه – جامع التاريخ – ثم بدا له من بعد ذلك أن يخصها بالتأليف على حدة، وأن يدون أخبارها على انفراد، مثل مؤرخي المدن الذين ذكرنا منهم تلك الطائفة آنفا.

(1) تاريخ ابن خلدون جـ 6 / ص 230 / ط القاهرة.

(غريب الشهاب)

نسبه اليه حاجي خليفة في كشف الظنون، والبغدادي في هدية العارفين.

لعله شرح لألفاظ الكتاب الحديثي الذي ألفه القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المتوفى سنة 454 هـ والذي سماه:

(شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب)

وقال في فاتحته حسب الذي جاء في كشف الظنون:

((جمعت في كتابي هذا مما سمعته من حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألف كلمة من الحكمة في الوصايا والآداب والمواعظ والأمثال وجعلتها مسرودة يتلو بعضها بعضا، محذوفة الإسانيد، مبينة أبوابها على حسب تقارب الألفاظ))

وقد خدم هذا الكتاب طائفة من العلماء بالشرح والتلخيص والاصلاح، وربما كانت خدمة القاضي عياض لهذا المؤلف وضعه شرحا على غريبه.

وغريب الشهاب ان صحت نسبته الى عياض، يكون من بين كتبه المفقودة.

(غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل)

هكذا أسماه ابنه في التعريف ص: 117 ونجده في لفظ هذه التسمية المقري في الأزهار، وجاء عجز اسمه في الاحاطة مخالفا عنه في التعريف والأزهار، فيكون هكذا: (في الصدور والرسائل) واختلف عن الثلاثة صاحب الكشف، فأتى بالعجز على صيغة أقرب، هي: (في صدور الرسائل) وهو في عداد مؤلفات عياض المفقودة.

(الغنية في أسماء شيوخه)

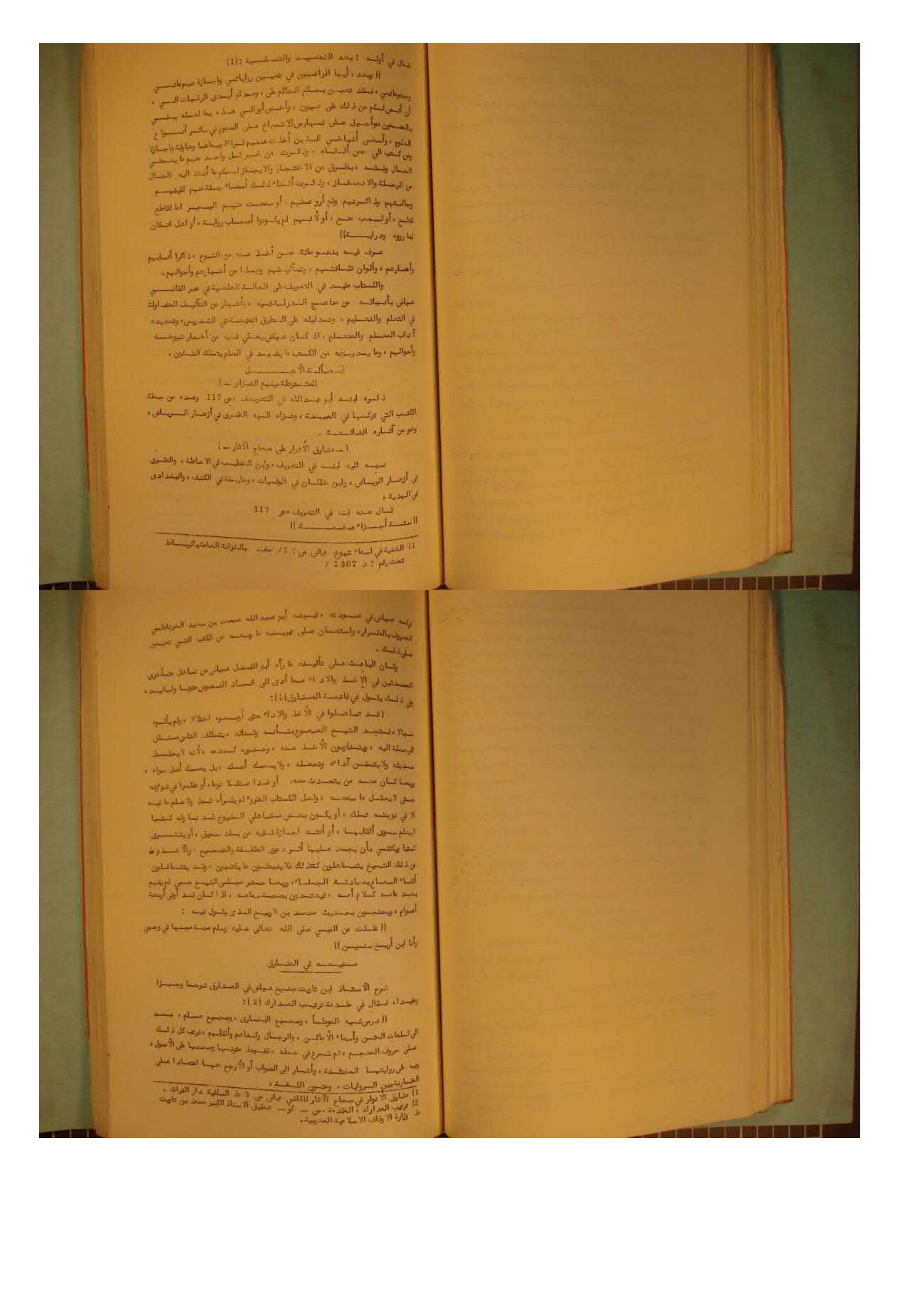
نسبه اليه ابنه في التعريف ص: 117، وعده بين كتبه التي أتمها في حياته وقرئت عليه، وذكره ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه وعزاه اليه صاحب الاحاطة، وكشف الظنون، وهدية العارفين، يوجد مخطوطا بخزائن عامة وخاصة.

وقد وقفت بالخزانة العامة بالرباط على ثلاث نسخ خطية:

الأولى: تحت رقم: د 1307/، وتقع في مائة وواحد وثلاثين صفحة.

والثانية: مصورة تحت رقم: د 2640/ وهي منقولة من النسخة الأولى.

والثالثة خطية تحت رقم: 1732.



قال في أوله : بعد التحميد والتصلية :(1)

((وبعد ، أيها الراغبون في تعيين رواياتي وإجازة مسموعاتي ومجموعاتي ، فقد تعين بحكم الحاكم علي ، وبحكم أيدي الرغبات التي إن أبى لكم من ذلك على جبون ، وأحسن أوانيي عنده بما تعلله بحقي بالصون ، وأحيل على فهارس الأشياخ على العلوم في سائر أنواع العلوم ، وأسمي أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعا ومناولة وإجازة ومن كتب الي من الآفاق ، وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يحتمله الحال ونقله ، بطريق من الاختصار والايجاز لحكم ما أدت اليه الحال من الرحلة والاحتفاز ، وذكرت أثناء ذلك أسماء جملة منهم لقيتهم وجالستهم وذاكرتهم ولم أرو عنهم ، أو سمعت منهم اليسير اما لقاطع قطع ، أو لسبب منع ، أو لأنهم لم يكونوا أصحاب رواية ، أو أهل اتقان لما رووه ودراية))

عرف فيه بمجموعة ممن أخذ عنه من الشيوخ ، ذاكرا أسانيدهم وأمصارهم ، وألوان ثقافتهم ، ومؤلفاتهم ، وبعضا من أخبارهم وأحوالهم .

والكتاب مفيد في التعريف على الحالة العلمية في عصر القاضي عياض بأسبانيا عن مناهج الدراسة فيه ، وأخبار عن التآليف المتداولة في التعلم والتعليم ، وتدليله على الطرق المتبعة في التدريس ، وتحديده لآداب المعلم والمتعلم ، اذ كان عياض يحكي فيه عن أخبار شيوخه وأحوالهم ، وما يدرسونه من الكتب ما يفيد في العلم بتلك الشئون .

(مسألة الأهل
المشترطة بينهم الصغار ـ)

ذكره ابنه أبو عبد الله في التعريف ، ص 117 وعده من جملة الكتب التي تركها في المسودة ، وعزاه اليه المقري في أزهار الرياض ، وهو من آثاره الضائعة .

(مشارق الأنوار على صحاح الآثار ـ)

نسبه اليه ابنه في التعريف ، وابن الخطيب في الاحاطة ، والمقري في أزهار الرياض ، وابن خلكان في الوفيات ، وخليفة في الكشف ، والبغدادي في الهدية ،

قال عنه ابنه في التعريف ، ص 117

((سبعة أجزاء ضخمة))

1) الغنية في أسماء شيوخ عياض ص : 2 / مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : د 1307 /

وتركه عياض في مسودته ، فبيضه أبو عبد الله محمد بن سعيد المرباطي المعروف بالطراز ، واستحسان على مريضه ما يحمله من الكتب التي تحتاج الى ذلك .

وكان الباعث على تأليفه ما رآه أبو الفضل عياض من تساهل متأخري المحدثين في الأخذ والأداء مما أدى الى افساد النصوص متونا وأسانيد ، وفي ذلك يقول في فاتحة المشارق(1) :

(قد تساهلوا في الأخذ والأداء حتى أوسعوه اختلالا ، ولم يألوه خبالا ، فتجد الشيخ المسموع منه بشأنه وحاله ، يتكلف الناس مشاق الرحلة اليه ، ويتنافسون الأخذ عنه ، ويحضرونه كمدده ، لأنه لا يحفظ حديثه ولا يتقن أداءه وتحمله ، ولا يمسك أصله ، بل يمسك أصل سواه ، وربما كان منه من يتحدث معه ، أو غدا مشتغلا نوما ، أو مكثرا في شؤونه حتى لا يعقل ما سمعه ، ولعل الكتاب المقروء لم يقرأ قط ولا علم ما فيه الا في نوبته تلك ، أو يكون بعض متساهلي الشيوخ قد بدا له كتبا لا يعلم سوى أثباتها ، أو أثبته اجازة ثقة من بلد سحيق ، أو يشترى كتبا يكتفي بأن يجد عليها أثر دعوى المقابلة والتصحيح ، والآخذون من ذلك الشيوخ يتساهلون كذلك فلا يضبطون ما يكتبون ، وقد يتشاغلون أثناء السماع بمحادثة الجلساء ، وربما حضر مجلس الشيخ صبي لم يفهم بعد عامة كلام أحد ، فيعتدون بصحة سماعه ، اذ كان قد أوفى أربعة أعوام ، ويحتجون بحديث محمود بن الربيع الذي يقول فيه :

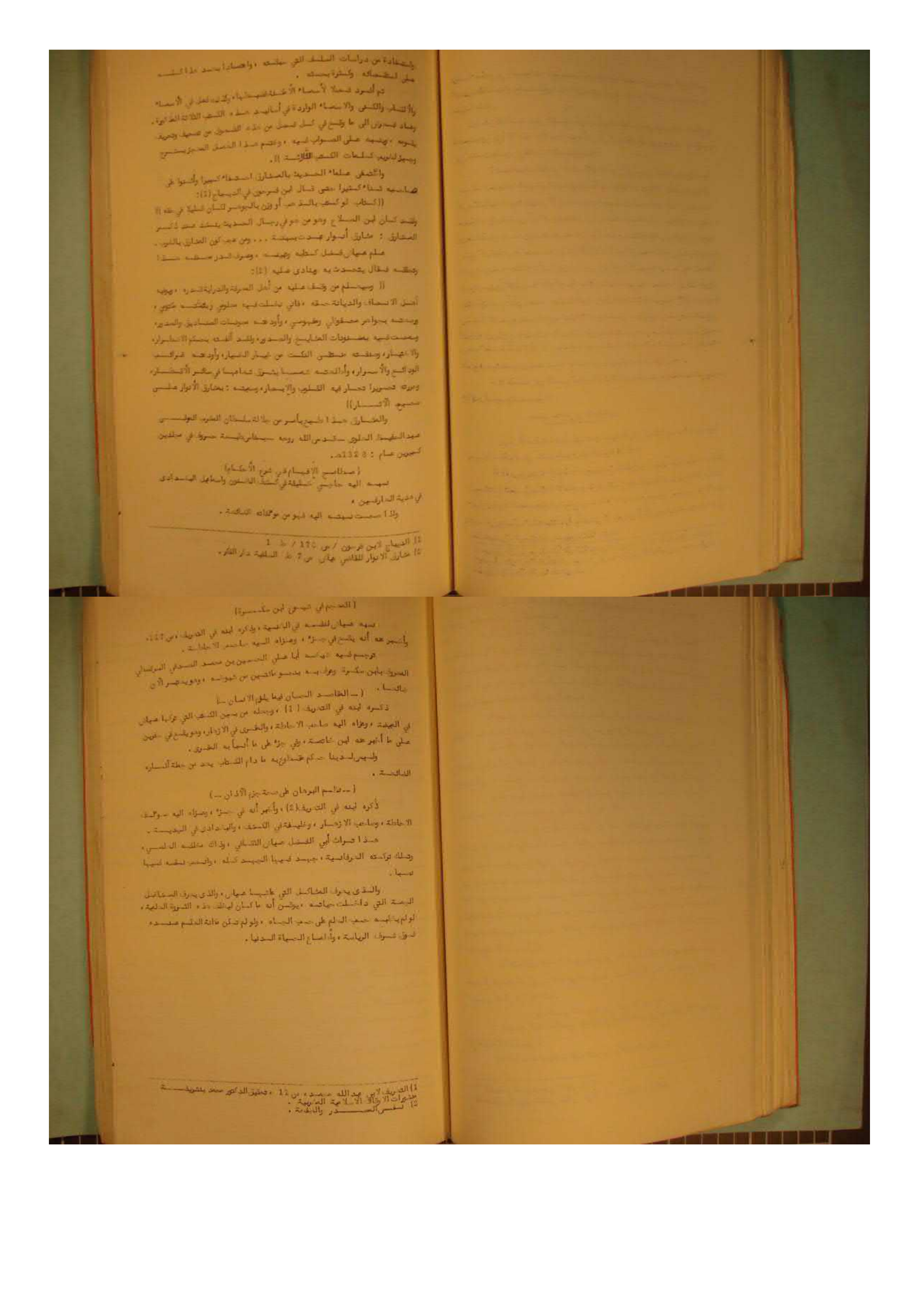
((عقلت من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مجة مجها في وجهي وأنا ابن أربع سنين))

منهجه في المشارق

شرح الأستاذ ابن تاويت منهج عياض في المشارق شرحا وجيزا وجيدا ، فقال في مقدمة ترتيب المدارك (2) :

((درس فيه الموطأ ، وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، عمد الى كلمات المتن وأسماء الأماكن ، والرجال وكناهم وألقابهم ، فرتب كل ذلك على حروف المعجم ، ثم شرع في عمله ، فضبط متونها وصححها على الأصول وبناه على روايتها المختلفة ، وأشار الى الصواب أو الأرجح منها اعتمادا على المقارنة بين الروايات ، وعلى اللغة ،

1) مشارق الأنوار في صحاح الآثار للقاضي عياض ص 3 ط المكتبة العتيقة دار التراث .
2) ترتيب المدارك ، المقدمة ، ص ـ كو ـ تحقيق الأستاذ الكبير محمد بن تاويت ط وزارة الأوقاف الاسلامية المغربية .



والاستفادة من دراسات السلف التي سبقته ، واعتبارا [illegible]
على [illegible] وكثرة بحثه .

ثم أورد فصلا لأسماء الأمكنة المشتبهة ، وكذلك لغلط في الأسماء والألقاب والكنى والأنساب الواردة في أسانيد هذه الكتب الثلاثة [illegible] ، [illegible] الى ما وقع في كل فصل من هذه الفصول من تصحيف وتحريف [illegible] على الصواب فيه ، واختتم هذا الفصل [illegible] كلمات الكتب الثلاثة)) .

واحتفى علماء الحديث بالمشارق احتفاء كبيرا وأثنوا على صاحبه ثناء كثيرا حتى قال ابن فرحون في الديباج (1) :

((كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلا في حقه)) [illegible] ابن الصلاح وهو من هو في رجال الحديث [illegible] المشارق : مشارق أنوار [illegible] ... ومن عجب كون المشارق بالمغرب .

[illegible] فقال يتحدث به وينادي عليه (2) :

(([illegible] من وقف عليه من أهل المعرفة والدراية [illegible] أهل الانصاف والديانة حقه ، فاني [illegible] ، وأودعته [illegible] والمدى ، [illegible] والأسرار ، [illegible] النكت [illegible] والأسرار ، [illegible] وعرّفه [illegible] : مشارق الأنوار على صحيح الآثار))

والمشارق [illegible] بأمر من جلالة سلطان المغرب [illegible] عبد الحفيظ العلوي [illegible] الله روحه [illegible] عام : 1328 هـ .

(مطالع الأفهام في شرح الأحكام)

نسبه اليه [illegible] واسماعيل [illegible] في هدية العارفين .

ولذا [illegible] اليه [illegible] من مؤلفاته [illegible] .

(1) الديباج لابن فرحون / ص 170 / ط 1
(2) مشارق الأنوار للقاضي عياض ص 7 ط [illegible] دار الفكر .

([illegible] في شيوخ ابن سكرة)

نسبه عياض [illegible] ، وذكره ابنه في التعريف ، ص [illegible] ، وأشار [illegible] أنه [illegible] في جزء ، وعزاه اليه صاحب الاحاطة .

[illegible] أبا علي الحسين بن محمد [illegible] الصدفي [illegible] المعروف بابن سكرة [illegible] من شيوخه ، [illegible] الآن [illegible] .

([illegible] فيما يلزم الانسان [illegible])

ذكره ابنه في التعريف (1) ، [illegible] من [illegible] الكتب التي [illegible] عياض في [illegible] ، وعزاه اليه صاحب الاحاطة ، [illegible] في الازهار ، [illegible] على ما أشار [illegible] .

[illegible] ما دام [illegible] من [illegible] النافعة .

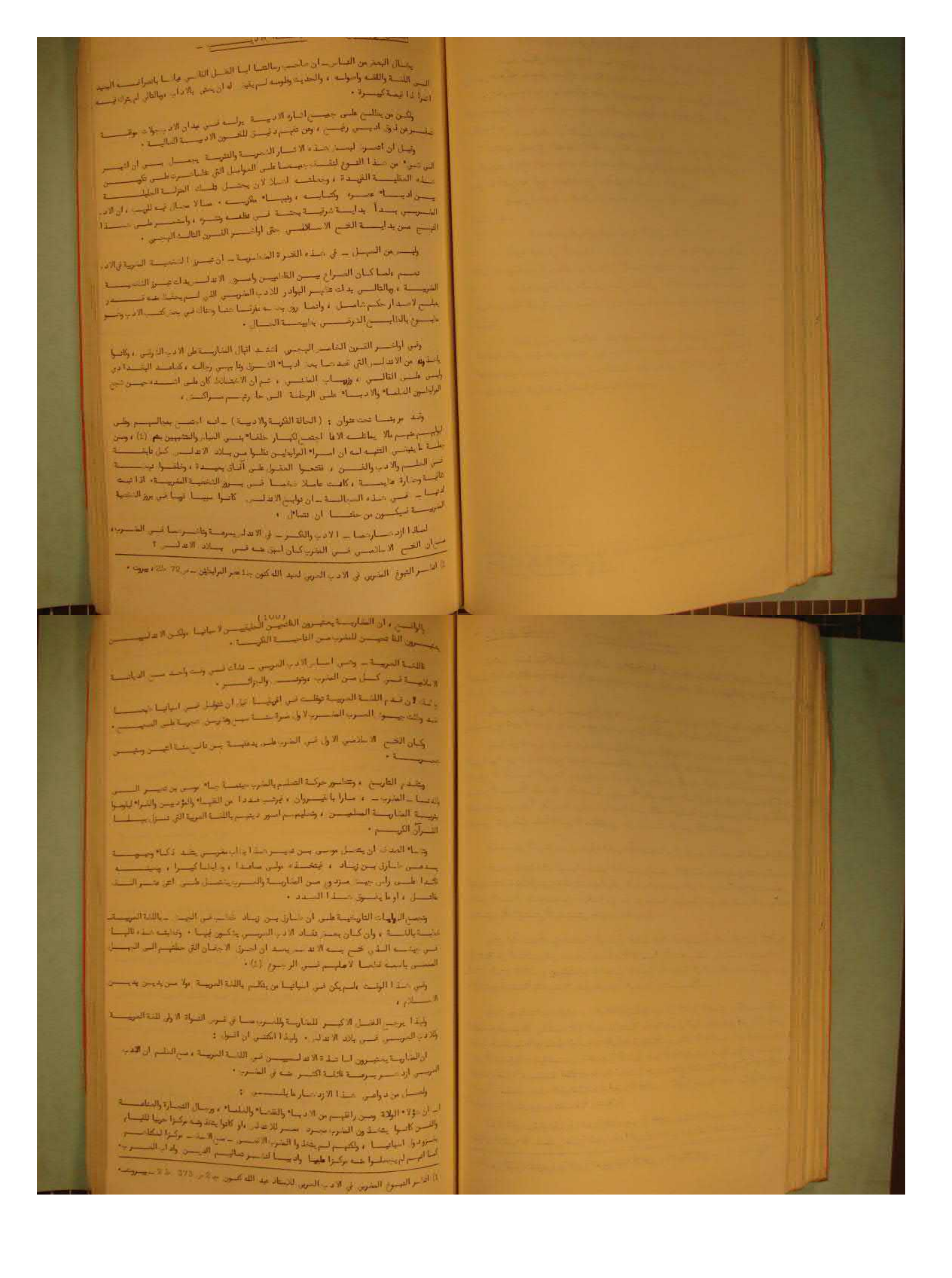
([illegible] البرهان على صحة جزم الأذان [illegible])

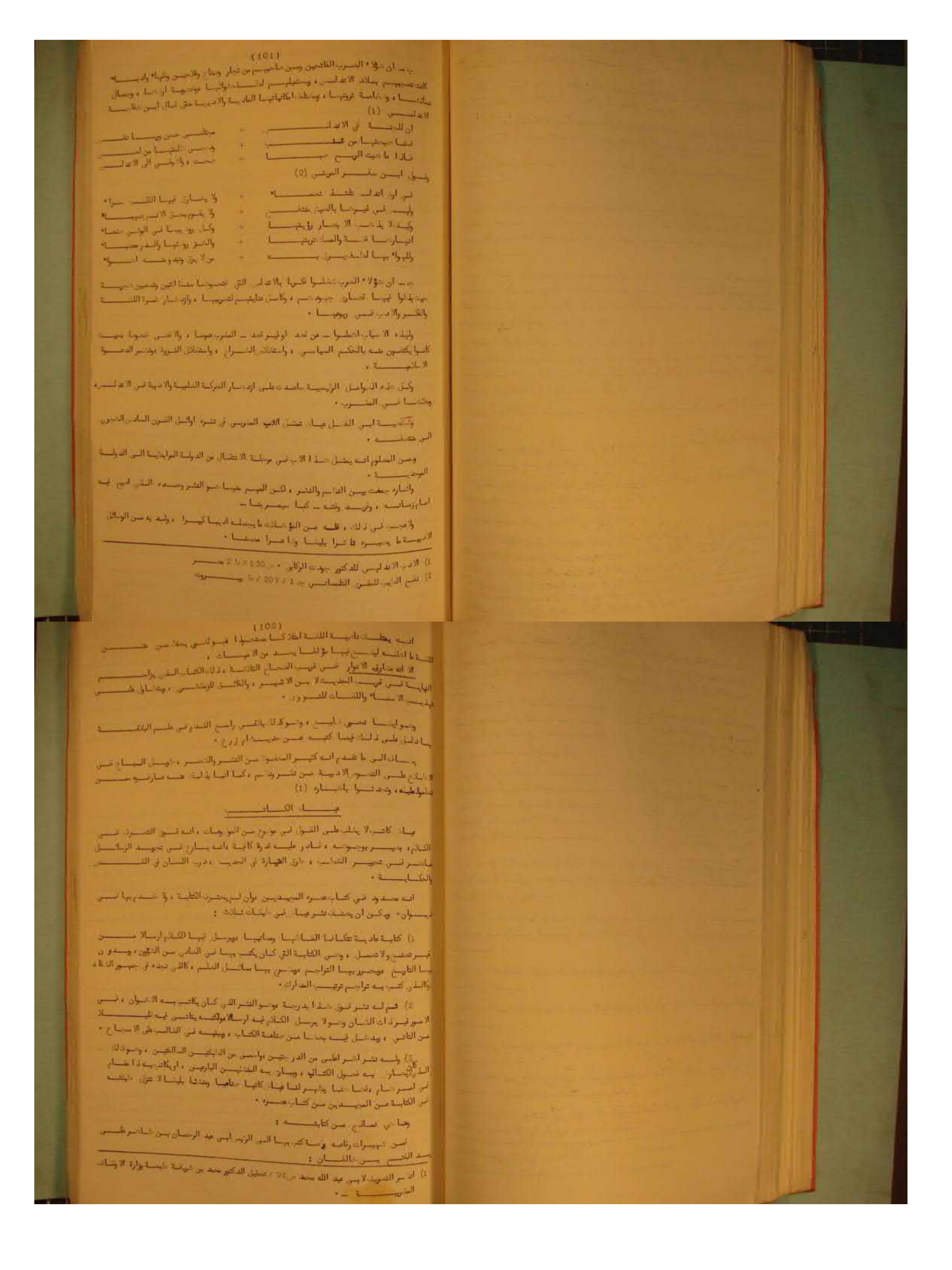
ذكره ابنه في التعريف (2) ، وأشار أنه في جزء ، وعزاه اليه [illegible] الاحاطة ، وصاحب الازهار ، [illegible] والبغدادي في الهدية .

هذا [illegible] أبي الفضل عياض [illegible] ، وذلك [illegible] وتلك [illegible] ، [illegible] .

والذي يعرف المشاكل التي [illegible] عياض ، والذي يعرف [illegible] التي [illegible] حياته ، يوقن أنه ما كان [illegible] هذه [illegible] ، لولم [illegible] ، ولولم [illegible] فوق [illegible] الرياسة ، [illegible] الحياة الدنيا .

(1) التعريف لابن [illegible] عبد الله محمد ، ص 11 ، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة ، منشورات الاوقاف الاسلامية المغربية .
(2) نفس المصدر والصفحة .





[illegible] أن هؤلاء العرب الفاتحين ومن [illegible] من تجار وصناع والفلاحين وعلماء وادباء [illegible] بلاد الاندلس ، [illegible] لمناخها [illegible] ازهارها ، وجمال [illegible] ، و [illegible] ، و [illegible] امكانياتها المادية والادبية حتى قال ابن خفاجة الاندلسي (1)

ان للجنة في الاندلس [illegible] + [illegible]
[illegible] + [illegible]
[illegible] + [illegible] الى الاندلس

ويقول ابن سعيد المغربي (2)

[illegible] + لا يفارق فيها القلب سراء
[illegible] + لا يخلو [illegible]
[illegible] + [illegible]
[illegible] + [illegible]
[illegible] + [illegible]

[illegible] أن هؤلاء العرب [illegible] بالاندلس التي [illegible] بذلوا فيها [illegible] ، وكان [illegible] ، وازدهار ثمرة الفكر والادب في ربوعها .

ولهذه الاسباب [illegible] عن قصد او غير قصد — العرب [illegible] ، والاعاجم [illegible] كانوا يكنون [illegible] بالحكم السياسي ، واستقلال [illegible] ، واستقلال [illegible] الدعوة الاسلامية .

وكل هذه العوامل الرئيسية ساعدت على ازدهار الحركة العلمية والادبية في الاندلس [illegible] .

[illegible] ابي الفضل [illegible] الادب [illegible] في [illegible] القرن السادس الهجري الى [illegible] .

ومن المعلوم انه يمثل هذا الادب في مرحلة الانتقال من الدولة المرابطية الى الدولة الموحدية .

وآثاره جمعت بين النظم والنثر ، لكن [illegible] النثر [illegible] امام رسائله ، [illegible] كما [illegible] .

[illegible] في ذلك ، [illegible] من المؤلفات [illegible] أدبيا كبيرا ، [illegible] من الوسائل الادبية ما [illegible] .

1) الادب الاندلسي للدكتور جودت الركابي ، ص 130 / 2 [illegible]
2) نفح الطيب للمقري التلمساني ج 1 / 207 / ط [illegible]

انه [illegible] اللغة [illegible] الاندلس [illegible] من الاهمات .

الا انه [illegible] الانوار [illegible] الصحاح الثلاثة ، وذلك الكتاب الذي [illegible] النهاية في غريب الحديث لابن الاثير ، والفائق للزمخشري ، [illegible] الاسماء واللغات للنووي .

[illegible] ، وهو كذلك [illegible] راسخ القدم في علم البلاغة [illegible] على ذلك فيما كتبه عن حديث ام زرع .

[illegible] ما تقدم انه كثير [illegible] من النثر والشعر ، [illegible] الى [illegible] الادبية من [illegible] ، كما [illegible] (1)

[illegible] الكاتب

[illegible] كاتب لا [illegible] في موضوع من الموضوعات ، انه [illegible] في الكلام ، [illegible] ، [illegible] عليه قدرة كاتبة [illegible] في [illegible] الرسائل [illegible] في [illegible] ، [illegible] العبارة في الحديث ، [illegible] اللسان في [illegible] والحكاية .

انه [illegible] في كتاب عصره الموحدين [illegible] الكتابة ، [illegible] ديوان ، ويمكن ان [illegible] في [illegible] ثلاث :

1) كتابة عادية [illegible] ومعانيها ، [illegible] فيها الكلام ارسالا [illegible] ولا [illegible] ، [illegible] الكتابة التي كان يكتب بها في [illegible] من [illegible] ، [illegible] التاريخ [illegible] التراجم [illegible] ، كالذي [illegible] والذي كتب به تراجم [illegible] المدارك .

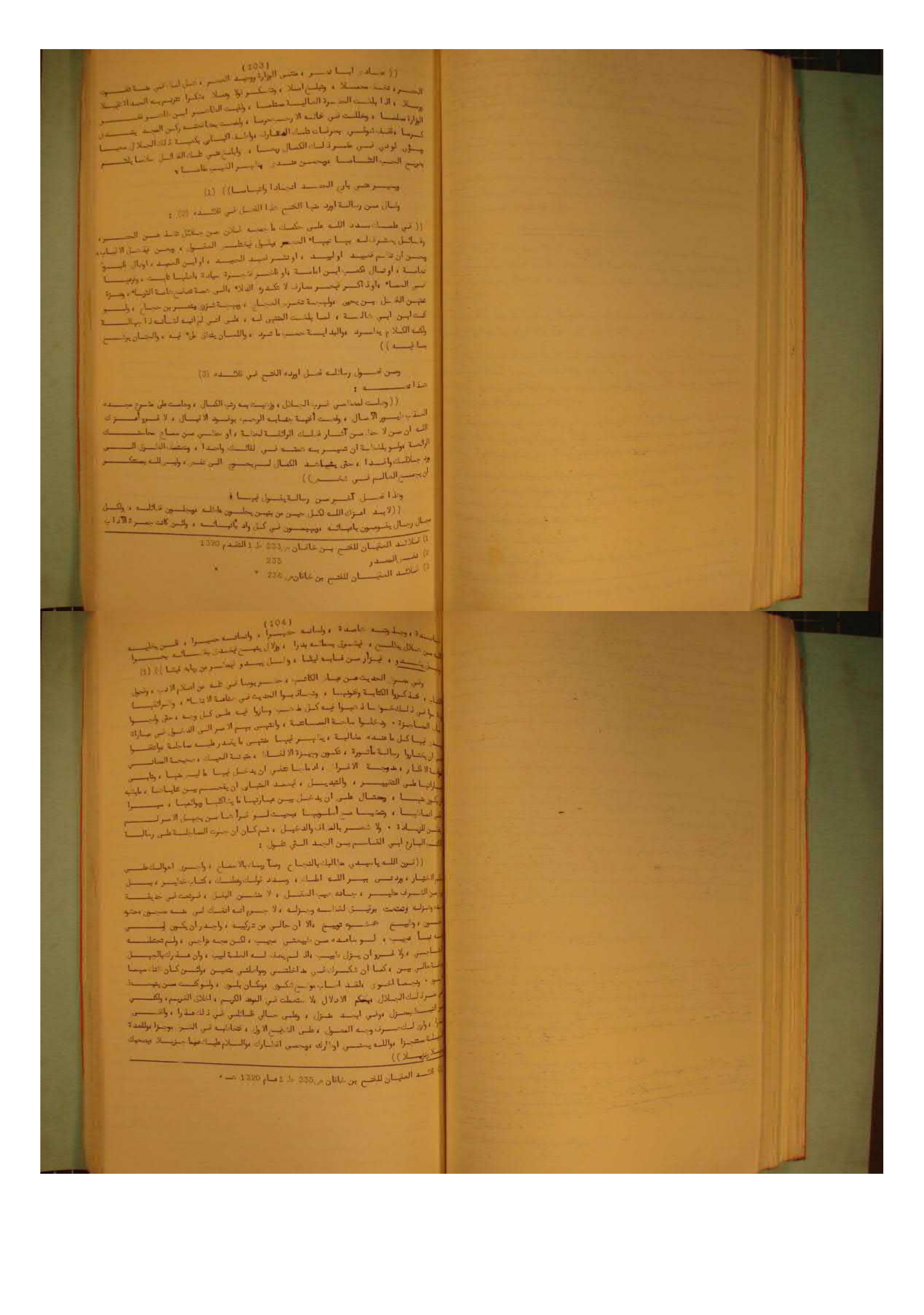
2) [illegible] نثر [illegible] بدرجة وهو النثر الذي كان يكاتب به الاخوان ، [illegible] الامور [illegible] اللسان [illegible] الكلام فيه ارسالا [illegible] من الناس ، [illegible] في الغالب على الاسجاع .

3) [illegible] نثر [illegible] من الدرجتين [illegible] من [illegible] ، وهو كذلك الذي [illegible] به [illegible] الكتاب ، [illegible] به [illegible] ، [illegible] في [illegible] كانها [illegible] لا [illegible] من الكتابة من الموحدين من كتاب عصره .

[illegible] نماذج من كتابته :

[illegible] ابي عبد الرحمن بن [illegible] عبد [illegible] :

1) [illegible] لابي عبد الله محمد ص 90 / تحقيق الدكتور محمد بن [illegible] طبعة وزارة الاوقاف [illegible] .



[illegible]

وقال من رسالة اورد منها الفتح هذا الفصل في قلائده (2) :

[illegible]

ومن فصول رسائله فصل اورده الفتح في قلائده (3) هذا نصه :

[illegible]

وهذا فصل آخر من رسالة يقول فيها :

[illegible]

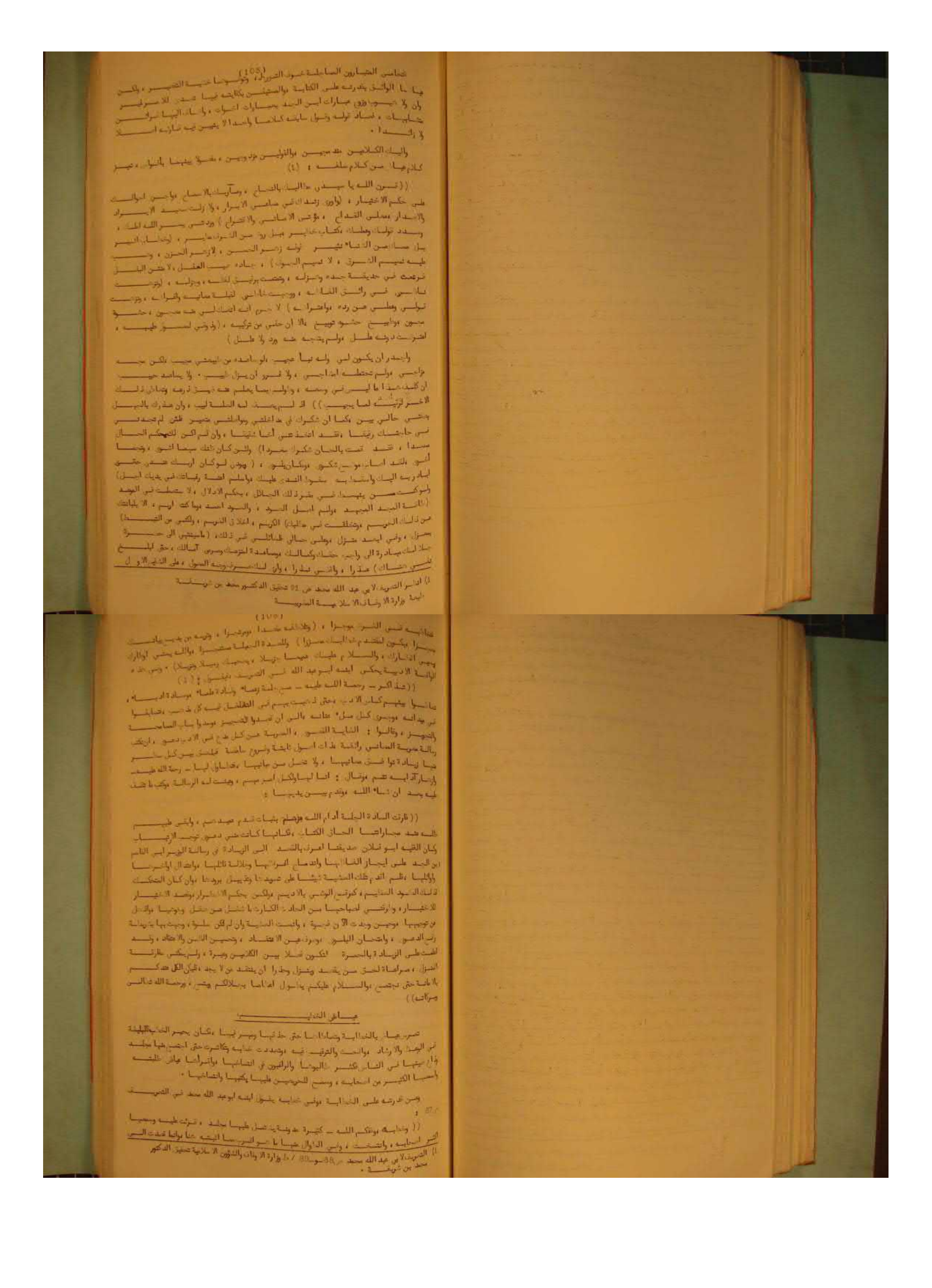
1) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 233 ط 1 القاهرة 1320
2) نفس المصدر 233
3) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 224 .

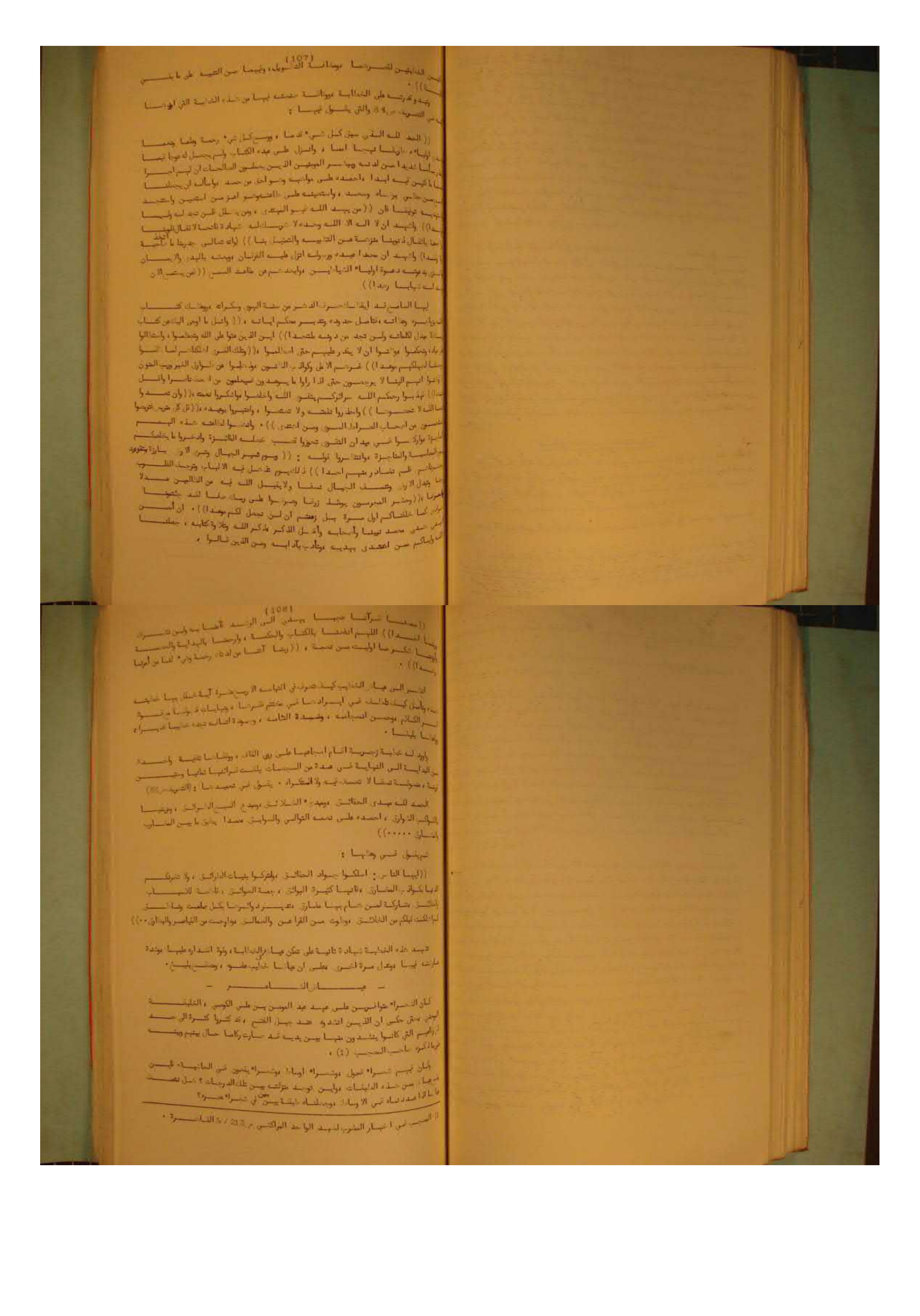
[illegible]

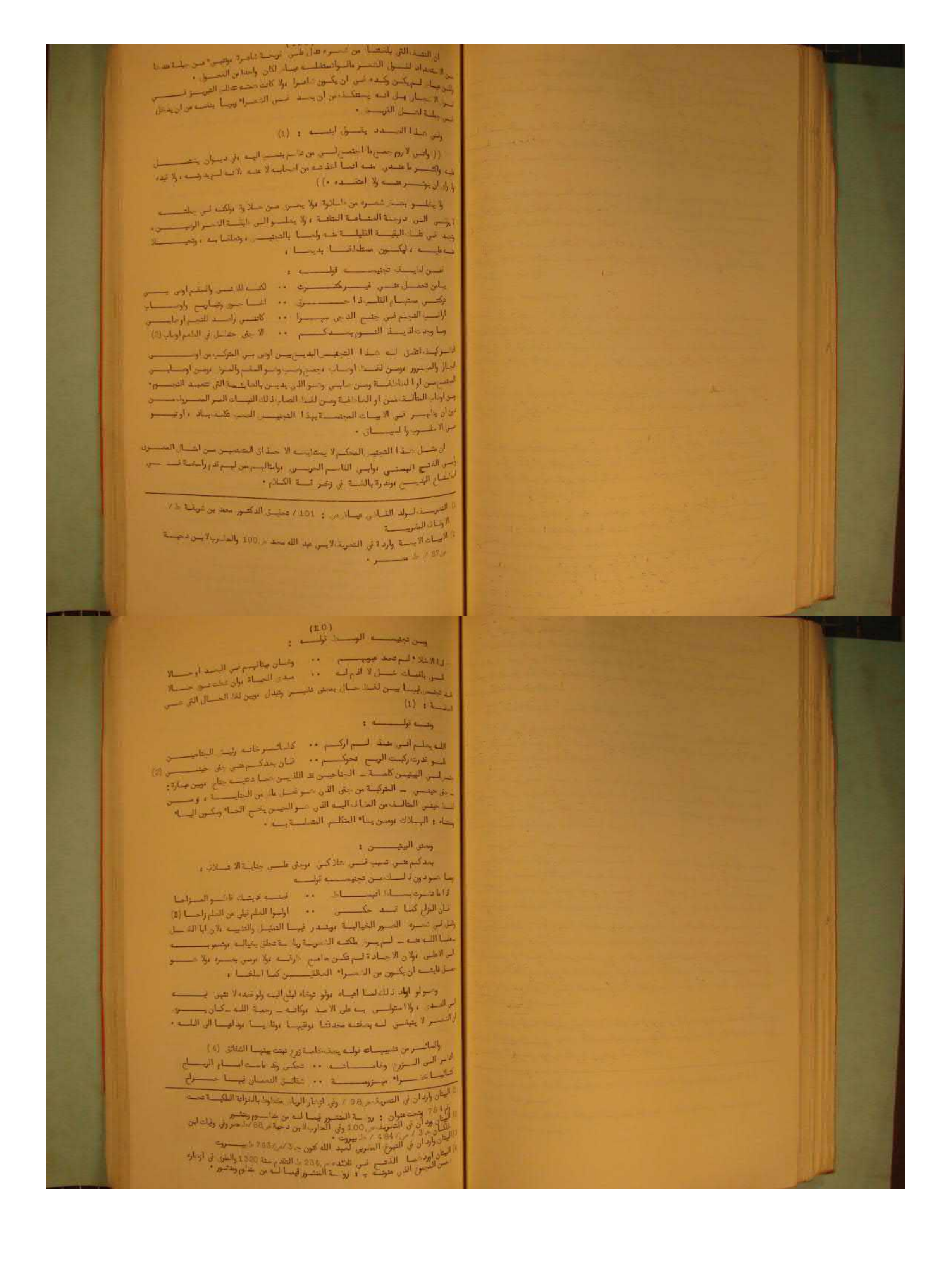
البارع ابي القاسم بن الجد التي يقول :

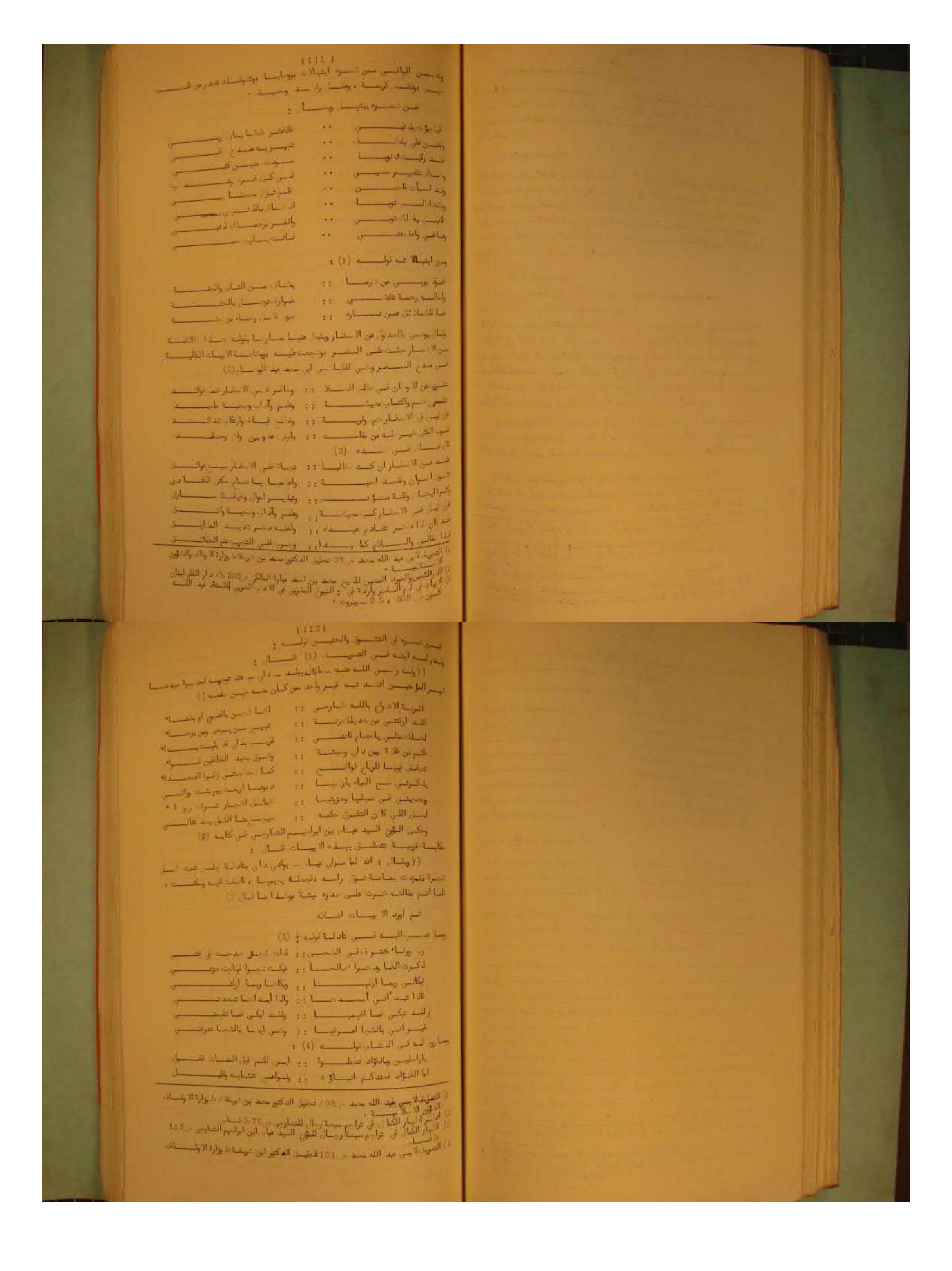
[illegible]

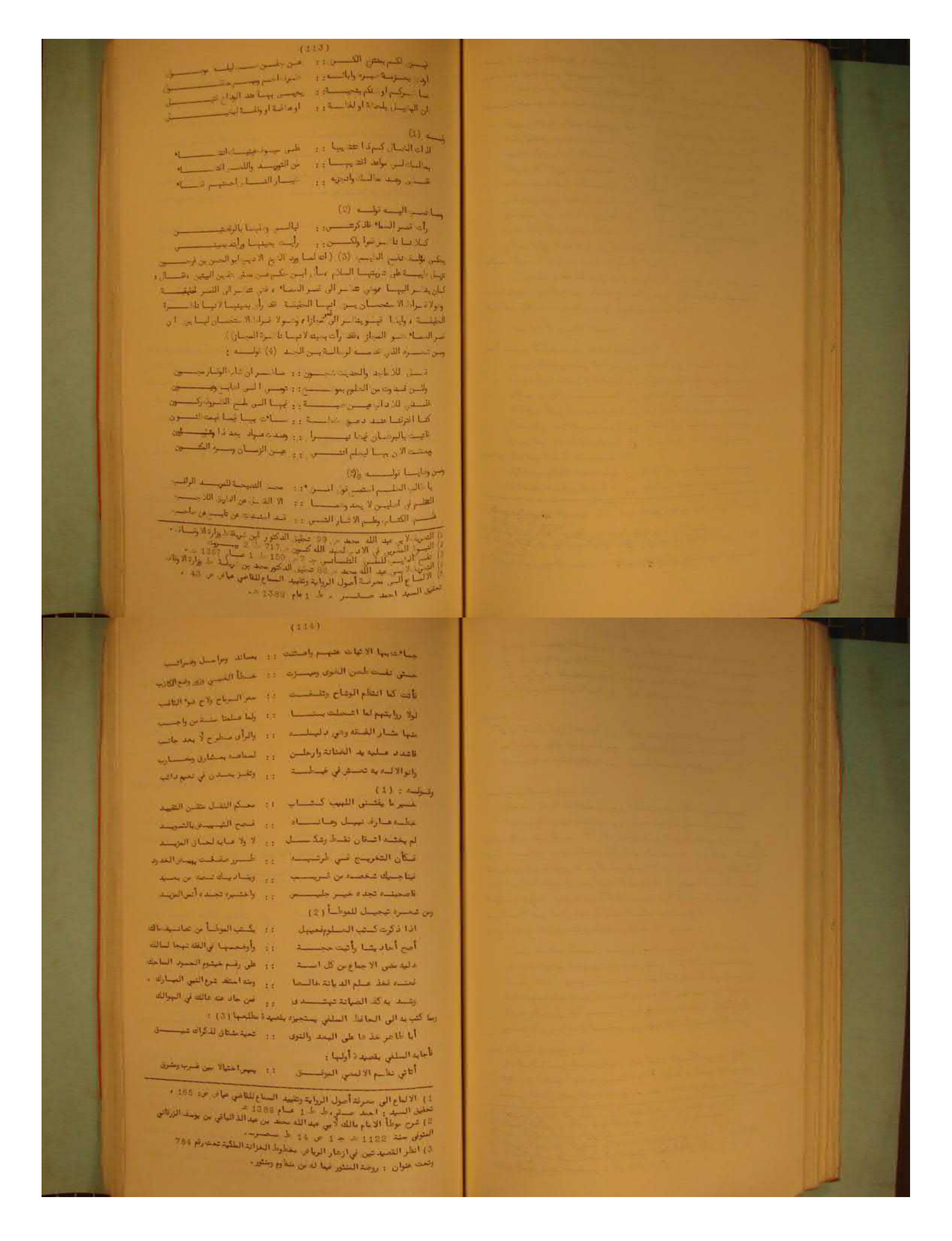
قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 235 ط 1 عام 1320 هـ .











[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

قوله (1)

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: من التوحيد واللحن [illegible]

[illegible] :: [illegible]

ومما نسب اليه قوله (2)

رأت قمر السماء فأذكرتني :: ليالي وصلنا بالرقمتين

كلانا ناظر قمرا ولكن :: رأيت بعينها ورأت بعيني

حكى مؤلف نفح الطيب (3) (أنه لما ورد [illegible] الأديب أبو الحسن بن [illegible] [illegible] السلام [illegible] فقال: كان ينظر اليها وهي تنظر الى قمر السماء، فهي تنظر الى القمر الحقيقة [illegible] الاستحسان [illegible] الحقيقة قد رأى بعينيها لأنها ناظرة الحقيقة، وأيضا [illegible] الى قمر مجازا، [illegible] الاستحسان [illegible] قمر السماء [illegible] المجاز، فقد رأت بعينه لأنها ناظرة المجاز)

ومن شعره الذي [illegible] (4) قوله:

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

ومن وثائها قوله (5)

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

---

1) التمهيد لأبي عبد الله محمد ص 99 تحقيق الدكتور [illegible] ط وزارة الأوقاف.
2) [illegible] في الأدب [illegible] عبد الله كنون [illegible] ص 717 [illegible] بيروت
3) نفح الطيب للمقري التلمساني ج 7 ص 150 ط 1 عام 1367 هـ.
4) التمهيد لأبي عبد الله محمد ص 88 تحقيق الدكتور محمد بن [illegible] ط وزارة الأوقاف.
5) الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض ص 43، تحقيق السيد أحمد صقر، ط 1 عام 1389 هـ.

جاءت بها الاثبات عنهم واصبحت :: [illegible] وبراهين [illegible]

حتى [illegible] الهوى [illegible] :: [illegible]

[illegible] كما انتظم الوشاح [illegible] :: [illegible]

لولا روايتهم لما [illegible] :: [illegible]

[illegible] :: والرأي [illegible] لا بعد جانب

[illegible] :: [illegible] بمشارق ومغارب

[illegible] :: [illegible]

وقوله: (1)

[illegible] اللهيب [illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible] بالتوحيد

لم [illegible] :: لا ولا [illegible]

فكأن [illegible] :: [illegible] الخدود

[illegible] :: [illegible]

[illegible] :: [illegible]

ومن شعره تبجيل للموطأ (2)

اذا ذكرت كتب العلوم فحيهل :: بكتب الموطأ من تصانيف مالك

أصح أحاديثا وأثبت حجة :: وأوضحها في الفقه نهجا لسالك

عليه مضى الاجماع من كل أمة :: على رغم [illegible] الحسود المماحك

[illegible] علم الديانة خالصا :: ومنه استفدنا شرع النبي المبارك

[illegible] الصيانة [illegible] :: فمن حاد عنه [illegible] في المهالك

وما كتب به الى الحافظ السلفي يستجيزه بقصيدة مطلعها (3):

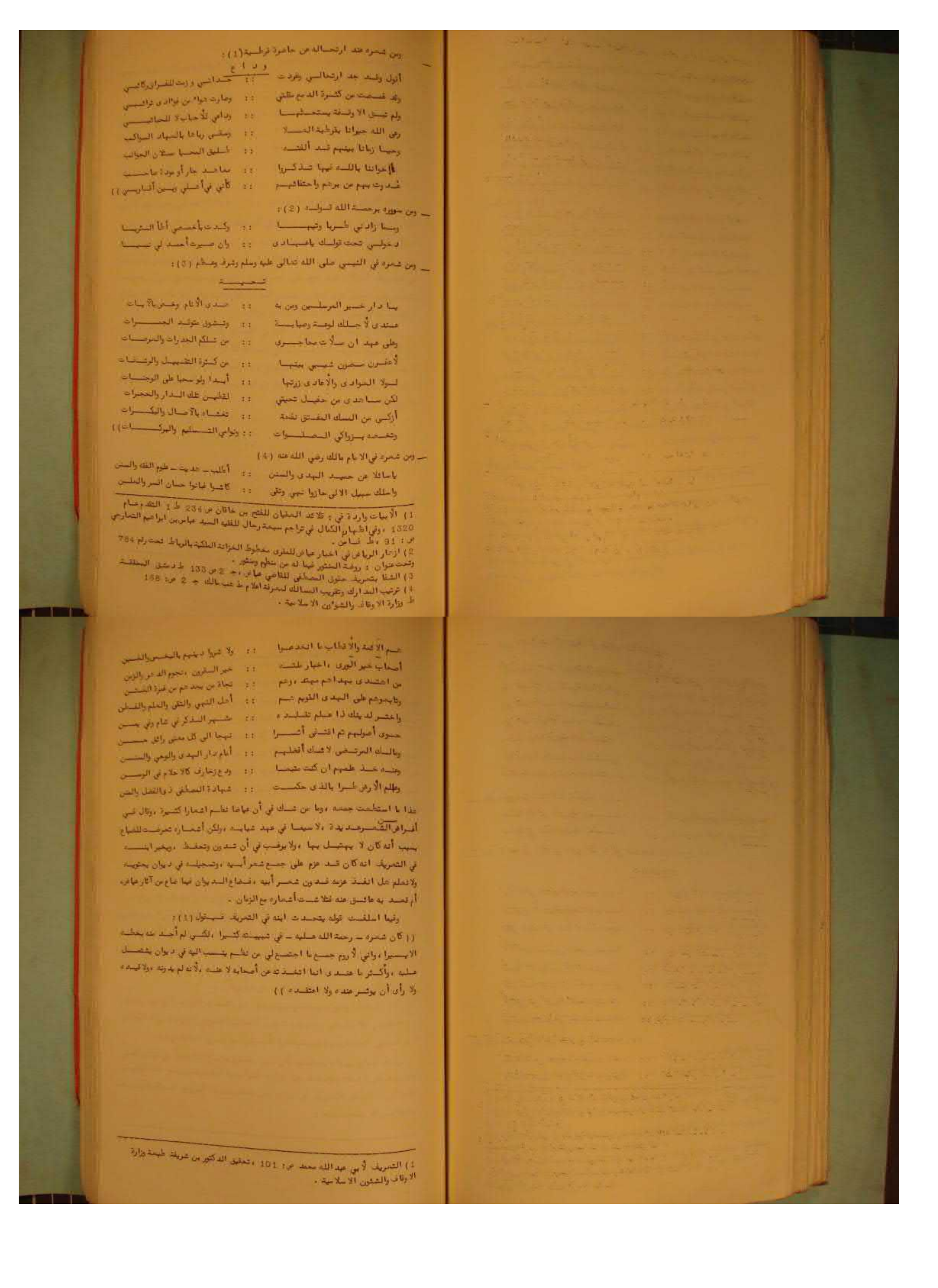
أيا [illegible] على البعد والنوى :: تحية مشتاق لذكراك شيق

فأجابه السلفي بقصيدة أولها:

[illegible] :: [illegible] بين غرب وشرق

---

1) الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض ص 165، تحقيق السيد: أحمد صقر، ط 1 عام 1389 هـ.
2) شرح موطأ الامام مالك لأبي عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المتوفى سنة 1122 هـ ج 1 ص 14 ط مصر.
3) انظر القصيدتين في أزهار الرياض، مخطوط الخزانة الملكية تحت رقم 784 وتحت عنوان: روضة المنثور فيما له من منظوم ومنثور.



ومن شعره عند ارتحاله عن حاضرة قرطبة (1) :

وداع

أقول وقد جد ارتحالي وغردت :: حداتي وزمت للفراق ركائبي
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي :: وصارت هواء من فؤادي ترائبي
ولم يبق الا وقفة يستحثها :: وداعي للأحباب لا للحبائب
رعى الله جيرانا بقرطبة العلا :: وسقى رباها بالسحاب السواكب
وحيا زمانا بينهم قد ألفته :: طليق المحيا مستلان الجوانب
أإخواننا بالله فيها تذكروا :: معاهد جار أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفائهم :: كأني في أهلي وبين أقاربي))

ومن سوره برحمة الله قوله (2) :

وما زادني طربا وتيها :: وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي :: وأن صيرت أحمد لي نبيا

ومن شعره في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم (3) :

تحية

يا دار خير المرسلين ومن به :: هدى الأنام وخص بالآيات
عندي لأجلك لوعة وصبابة :: وتشوق متوقد الجمرات
وعلى عهد ان ملأت محاجري :: من تلكم الجدرات والعرصات
لأعفرن مصون شيبي بينها :: من كثرة التقبيل والرشفات
لولا العوادي والأعادي زرتها :: أبدا ولو سحبا على الوجنات
لكن سأهدي من حفيل تحيتي :: لقطين تلك الدار والحجرات
أزكى من المسك المفتق نفحة :: تغشاه بالآصال والبكرات
وتخصه بزواكي الصلوات :: ونوامي التسليم والبركات))

ومن شعره في الامام مالك رضي الله عنه (4)

ياسائلا عن جميع الهدى والسنن :: أطلب — هديت — علوم الفقه والسنن
واسلك سبيل الالى حازوا نهى وتقى :: كانوا غياثا حسان السر والعلن

1) الأبيات واردة في : قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 234 ط 1 التقدم عام 1320 ، وفي اظهار الكمال في تراجم سبعة رجال للفقيه السيد عباس بن ابراهيم التعارجي ص : 91 ، ط فاس .
2) ازهار الرياض في اخبار عياض للمقرى مخطوط الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 784 وتحت عنوان : روضة المنثور فيما له من منظوم ومنثور .
3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، ج 2 ص 133 ط دمشق المحققة .
4) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ج 2 ص 158 ط وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .

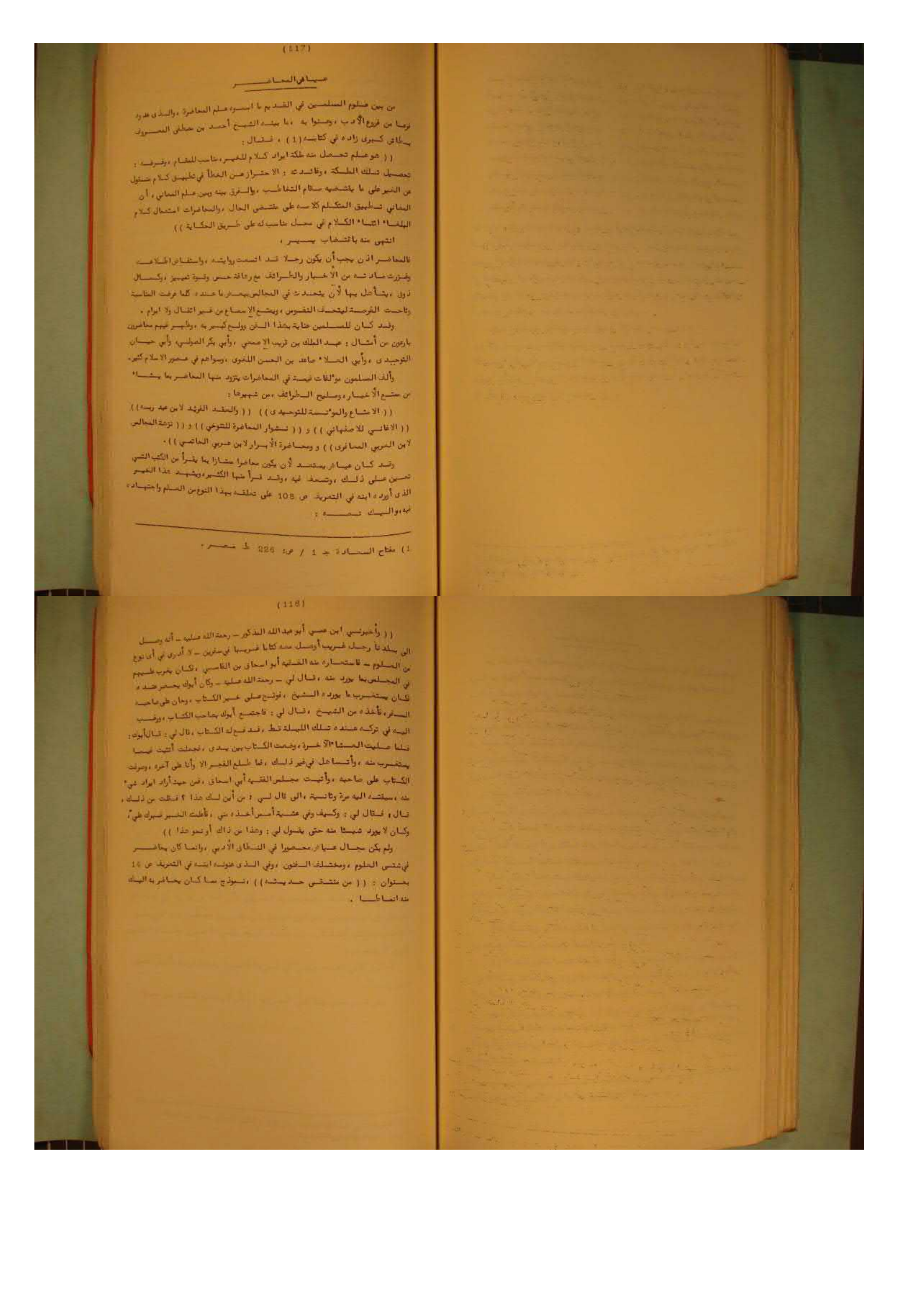
هم الأئمة والأقطاب ما ابتدعوا :: ولا شروا دينهم بالبخس والغبن
أصحاب خير الورى ، اخيار طلبته :: خير القرون ، نجوم الدهر والزمن
من اقتدى بهداهم مهتد ، وهم :: نجاة من بعدهم من فتنة الفتن
وتابعوهم على الهدى القويم هم :: أهل النهى والتقى والحلم والفطن
واختر لدينك ذا علم تقلده :: مشهور الذكر في علم وفي سنن
حوى أصولهم ثم اقتفى أثرا :: نهجا الى كل معنى رائق حسن
ومالك المرتضى لا شك أفضلهم :: امام دار الهدى والوحي والسنن
وخذ علمهم ان كنت متبعا :: ودع زخارف كالأحلام في الوسن
وطلم الأرض طرا بالذي حكمت :: شهادة المصطفى ذي الفضل والمنن

هذا ما استطعت جمعه ، وما من شك في أن عياضا نظم اشعارا كثيرة ، وقال في أغراض الشعر عديدة ، لا سيما في عهد شبابه ، ولكن أشعاره تعرضت للضياع بسبب أنه كان لا يحتفل بها ، ولا يرغب في أن تدون وتحفظ ، ويخبر ابنه في التعريف انه كان قد عزم على جمع شعر أبيه ، وتسجيله في ديوان يحتويه ولا تعلم هل انفذ عزمه فدون شعر أبيه ، فضاع الديوان فيما ضاع من آثار عياض ، أم قصد به عائق عنه فتلاشت أشعاره مع الزمان .

وفيما اسلفت قوله يتحدث ابنه في التعريف فيقول (1) :

((كان شعره — رحمة الله عليه — في شبيبته كثيرا ، لكني لم أجد منه بخطه الا يسيرا ، واني لأروم جمع ما اجتمع لي من نظم ينسب اليه في ديوان يشتمل عليه ، وأكثر ما عندي انما اتخذته عن أصحابه لا عنه ، لأنه لم يدونه ، ولا قيده ، ولا رأى أن يؤثر عنه ، ولا اعتقده))

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص: 101 ، تحقيق الدكتور بن شريفة طبعة وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية .



عياض المحاضر

من بين علوم المسلمين في القديم ما اسموه علم المحاضرة ، والذي عدوه فرعا من فروع الأدب ، وعنوا به ، ما بينه الشيخ أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده في كتابه (1) ، فقال :

((هو علم تحصل منه ملكة ايراد كلام للغير مناسب للمقام ، وغرضه : تحصيل تلك الملكة ، وفائدته : الاحتراز عن الخطأ في تطبيق كلام منقول من الغير على ما يقتضيه مقام التخاطب ، والفرق بينه وبين علم المعاني ، أن المعاني تطبيق المتكلم كلامه على مقتضى الحال ، والمحاضرات استعمال كلام البلغاء اثناء الكلام في محل مناسب له على طريق الحكاية))

انتهى منه باقتضاب يسير ،

فالمحاضر اذن يجب أن يكون رجلا قد اتسعت روايته ، واستفاض اطلاعه ، وغزرت مادته من الأخبار والطرائف مع رقة حس وقوة تمييز ، وكمال ذوق ، يتأهل بها لأن يتحدث في المجالس بحضار ما عنده ، كلما عرفت المناسبة وتاحت الفرصة لينتحف النفوس ، ويمتع الاسماع من غير اثقال ولا ابرام .

وقد كان للمسلمين عناية بهذا الفن وولع كبير به ، وظهر فيهم محاضرون بارعون من أمثال : عبد الملك بن قريب الاصمعي ، وأبي بكر الصولي ، وأبي حيان التوحيدي ، وأبي العلاء صاعد بن الحسن اللغوي ، وسواهم في عصور الاسلام كثير .

وألف المسلمون مؤلفات قيمة في المحاضرات يتزود منها المحاضر بما يشاء من ممتع الأخبار ، ومليح الطرائف ، من شهيرها :

((الامتاع والمؤانسة للتوحيدي)) ((والعقد الفريد لابن عبد ربه))

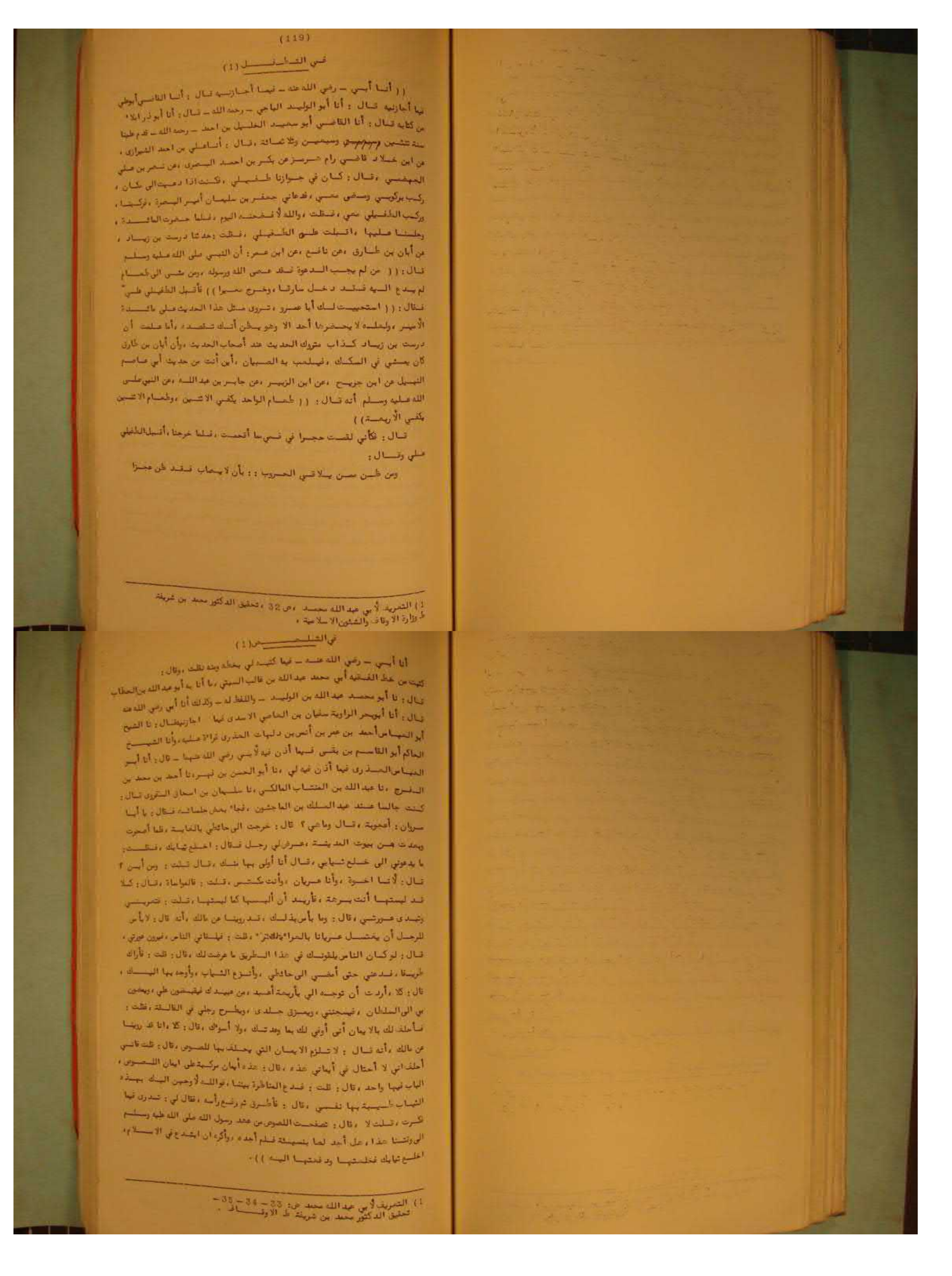
((الاغاني للاصفهاني)) و ((نشوار المحاضرة للتنوخي)) و ((نزهة المجالس لابن العربي المعافري)) و ومحاضرة الأبرار لابن عربي الحاتمي)) .

وقد كان عياض يستعد لأن يكون محاضرا ممتازا بما يقرأ من الكتب التي تعين على ذلك ، وتصنف فيه ، وقد قرأ منها الكثير ، ويشهد هذا الخبر الذي أورده ابنه في التعريف ص 108 على تعلقه بهذا النوع من العلم واجتهاده فيه ، واليك نصه :

1) مفتاح السعادة جـ 1 / ص: 226 ط مصر .

((وأخبرني ابن عمي أبو عبد الله المذكور – رحمة الله عليه – أنه وصل الى بلدنا رجل غريب أوصل منه كتابا غريبا في سفرين – لا أدري في أي نوع من العلوم – فاستعاره منه الفقيه أبو اسحاق بن الفاسي ، فكان يغرب عليهم في المجلس بما يورد منه ، قال لي – رحمة الله عليه – وكان أبوك يحضر عنده فكان يستغرب ما يورده الشيخ ، فوقع على خبر الكتاب ، وعلى طي صاحبه السفر ، فأخذه من الشيخ ، قال لي : فاجتمع أبوك بصاحب الكتاب ، ورغب اليه في تركه عنده تلك الليلة فقط ، فدفع له الكتاب ، قال لي : قال أبوك : فلما صليت العشاء الآخرة ، وضعت الكتاب بين يدي ، فجعلت أثبت فيما يستغرب منه ، وأتساهل في غير ذلك ، فما طلع الفجر الا وأنا على آخره ، وصرفت الكتاب على صاحبه ، وأتيت مجلس الفقيه أبي اسحاق ، فمن حيث أراد ايراد شيء منه ، سبقته اليه مرة وثانية ، الى قال لي : من أين لك هذا ؟ فقلت من ذلك ، قال ، فقال لي : وكيف وفي عشية أمس أخذه مني ، فأعلمته الخبر فسرك على ، وكان لا يورد شيئا منه حتى يقول لي : وهذا من ذاك أو نحو هذا))

ولم يكن مجال عياض محصورا في النطاق الأدبي ، وانما كان يحاضر في شتى العلوم ، ومختلف الفنون ، وفي الذي عنونه ابنه في التعريف ص 14 بعنوان : ((من منتقى حديثه)) ، نموذج مما كان يحاضر به الهالة منه اتصالا .



في التطفيل (1)

((أنا أبي – رضي الله عنه – فيما أجازنيه قال : أنا القاضي أبو علي فيما أجازنيه قال : أنا أبو الوليد الباجي – رحمه الله – قال : أنا أبو ذر إملاء من كتابه قال : أنا القاضي أبو سعيد الخليل بن احمد – رحمه الله – قدم علينا سنة ثنتين وسبعين وثلاثمائة ، قال : أنا علي بن احمد الشيرازي ، عن ابن خلاد قاضي رام هرمز عن بكر بن احمد البصري ، عن نصر بن علي الجهضمي ، قال : كان في جوارنا طفيلي ، فكنت اذا دعيت الى مكان ، ركب بركوبي ومضى معي ، فدعاني جعفر بن سليمان أمير البصرة ، فركبنا ، وركب الطفيلي معي ، فقلت ، والله لأفضحنه اليوم ، فلما حضرت المائدة ، وجلسنا عليها ، اقبلت على الطفيلي ، فقلت : حدثنا درست بن زياد ، عن أبان بن طارق ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله ، ومن مشى الى طعام لم يدع اليه فقد دخل سارقا ، وخرج مغيرا)) فأقبل الطفيلي علي فقال : ((استحييت لك أبا عمرو ، تروى مثل هذا الحديث على مائدة الأمير ، ولعله لا يحضرنا أحد الا وهو يظن أنك تقصده ، أما علمت أن درست بن زياد كذاب متروك الحديث عند أصحاب الحديث ، وأن أبان بن طارق كان يمشي في السكك ، فيلعب به الصبيان ، أين أنت من حديث أبي عاصم النبيل عن ابن جريج ، عن ابن الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة))

قال : فكأني لقمت حجرا في فمي مما أفحمت ، فلما خرجنا ، أقبل الطفيلي علي وقال :

ومن ظن ممن يلاقي الحروب :: بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

---

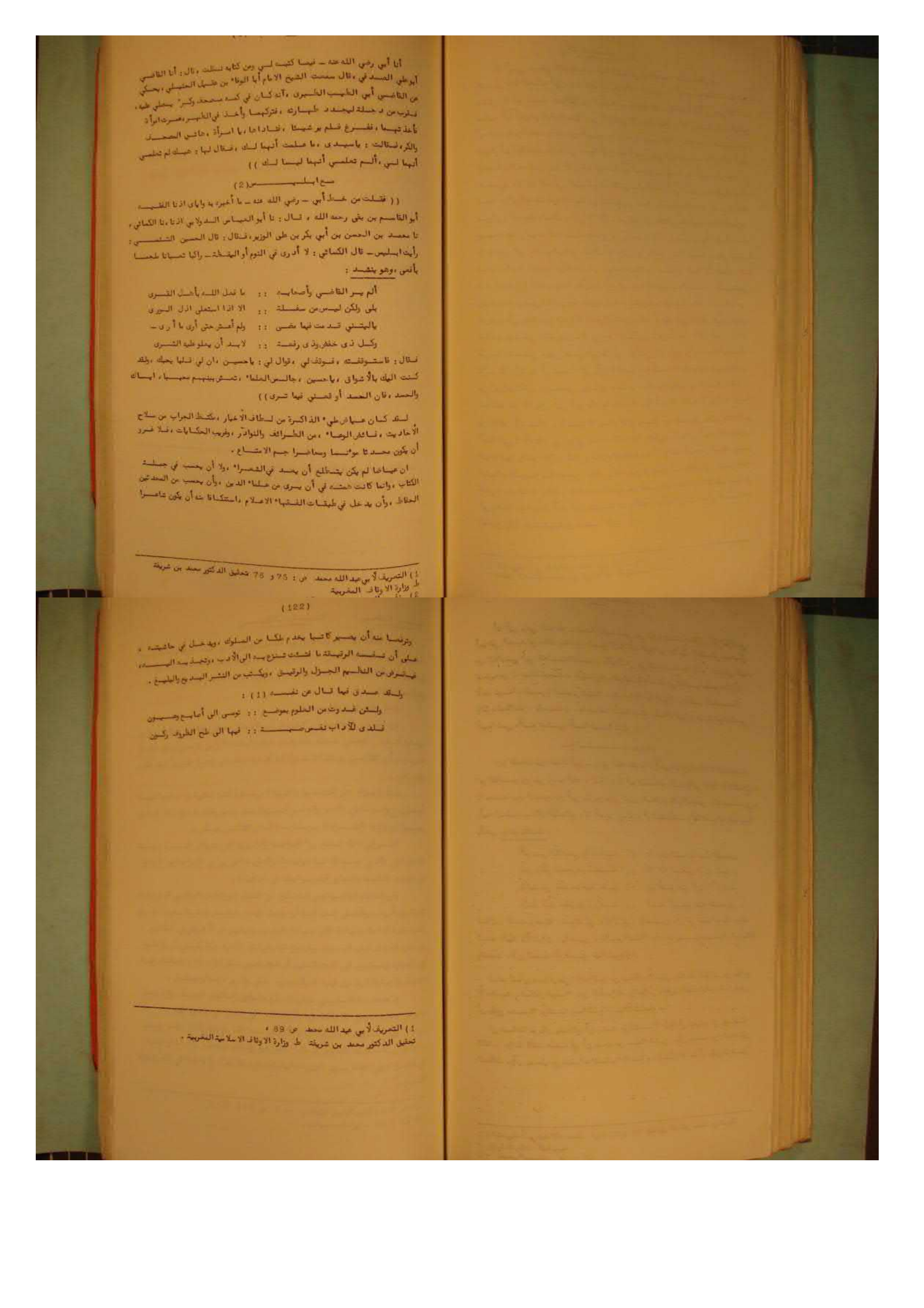
1) التعريف لأبي عبد الله محمد ، ص 32 ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية .

في اللصوص (1)

أنا أبي – رضي الله عنه – فيما كتبه لي بخطه ومنه نقلت ، وقال : كتبته من خط الفقيه أبي محمد عبد الله بن غالب السبتي ، نا أنا به أبو عبد الله بن الخطاب قال : نا أبو محمد عبد الله بن الوليد – واللفظ له – وكذلك أنا أبي رضي الله عنه قال : أنا أبو بحر الزاوية سفيان بن العاصي الاسدى فيما اجازنيه قال : نا الشيخ أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاث العذري قراءة عليه ، وأنا الشيخ الحاكم أبو القاسم بن بقي فيما أذن فيه لأبي رضي الله عنهما – قال : أنا أبو العباس العذري فيما أذن فيه لي ، نا أبو الحسن بن فهر ، نا أحمد بن محمد بن الفرج ، نا عبد الله بن المنتاب المالكي ، نا سليمان بن اسحاق السترى قال : كنت جالسا عند عبد الملك بن الماجشون ، فجاء بعض جلسائه فقال : يا أبا مروان : أعجوبة ، قال وما هي ؟ قال : خرجت الى حائطي بالغابة ، فلما أصحرت وبعدت عن بيوت المدينة ، عرض لي رجل فقال : اخلع ثيابك ، فقلت : ما يدعوني الى خلع ثيابي ، قال أنا أولى بها منك ، قال قلت : ومن أين ؟ قال : لأننا اخوة ، وأنا عريان ، وأنت مكتس ، قلت : فالمواساة ، قال : كلا قد لبستها أنت برهة ، فأريد أن ألبسها كما لبستها ، قلت : فتعريني وتبدى عورتي ، قال : وما بأس بذلك ، قد روينا عن مالك ، أنه قال : لا بأس للرجل أن يغتسل عريانا بالعراء ، قلت : فيلقاني الناس ، فيرون عورتي ، قال : لو كان الناس يلقونك في هذا الطريق ما عرضت لك ، قال : قلت : فأراك ظريفا ، فدعني حتى أمضي الى حائطي ، وأنزع الثياب ، وأوجه بها اليك ، قال : كلا ، أردت أن توجه الي بأربعة أعبد ، من عبيدك فيقبضون علي ، ويحملوني الى السلطان ، فيحبسني ، ويمزق جلدي ، ويطرح رجلي في القالقة ، قلت : فأحلف لك بالايمان أني أوفي لك بما وعدتك ، ولا أسوءك ، قال : كلا ، انا قد روينا عن مالك ، أنه قال : لا تلزم الايمان التي يحلف بها للصوص ، قال : قلت فاني أحلف اني لا أحتال في أيماني هذه ، قال : هذه أيمان مركبة على ايمان اللصوص ، الباب فيها واحد ، قال : قلت : فدع المناظرة بيننا ، فوالله لأوجهن اليك بهذه الثياب طيبة بها نفسي ، قال : فأطرق ثم رفع رأسه ، فقال لي : تدري فيما فكرت ، قلت لا ، قال : تصفحت اللصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى وقتنا هذا ، فلم أجد لصا بنسيئة فلم أجده ، وأكره ان ابتدع في الاسلام ، اخلع ثيابك فخلعتها ودفعتها اليه)) .

---

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص : 33 – 34 – 35 –
تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط الاوقاف .



أنا أبي رضي الله عنه – فيما كتبه لي ومن كتابه نقلت، قال: أنا القاضي أبو علي الصدفي، قال سمعت الشيخ الامام أبا الوفاء بن عقيل الحنبلي، يحكي عن القاضي أبي الطيب الطبري، أنه كان في كمه منديل وكرز يصلي عليه، فقرب من دجلة ليجدد طهارته، فتركهما وأخذ في الطهر، فمرت امرأة فأخذتهما، ففرغ فلم ير شيئا، فنادا ها: يا امرأة، حاشي المنديل والكرز، فقالت: يا سيدي، ما علمت أنهما لك، فقال لها: حسبك لم تعلمي أنهما لي، ألم تعلمي أنهما ليسا لك))

مع ابليس (2)

((فقلت من خط أبي – رضي الله عنه – ما أخبره به واياي أذنا الفقيه أبو القاسم بن بقي رحمه الله، قال: نا أبو العباس الدولابي اذنا، نا الكسائي، نا محمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي الوزير، فقال: قال الحسن الشافعي: رأيت ابليس – قال الكسائي: لا أدري في النوم أو اليقظة – راكبا شيطانا طحانا بأنس، وهو ينشد:

ألم ير القاضي وأصحابه ::	ما فعل الله بأهل القرى
بلى ولكن ليس من سفلة ::	الا اذا استعلى اذل الورى
ياليتني قدمت فيما مضى ::	ولم أعثر حتى أرى ما أرى –
وكل ذي خفض وذي رفعة ::	لابد أن يعلو عليه الثرى

قال: فاستوقفته، فتوقف لي، وقال لي: يا حسين، ان لي قبلها يحبك، ولقد كنت اليك بالأشواق، يا حسين، جالس العلماء، تعش بينهم محببا، اياك والحسد، فان الحسد أوقعني فيما ترى))

لقد كان عياض علي الذاكرة من لطائف الأخبار، حاضر الجواب من ملاح الأحاديث، فائق الوصاء، من الطرائف والنوادر، وغريب الحكايات، فلا غرو أن يكون محدثا مؤنسا ومحاضرا جم الامتاع.

ان عياضا لم يكن يستطيع أن يعد في الشعراء، ولا أن يحسب في جملة الكتاب، وانما كانت همته في أن يرى من علماء الدين، وأن يحسب من المحدثين الحفاظ، وأن يدخل في طبقات الفقهاء الاعلام، استنكافا منه أن يكون شاعرا

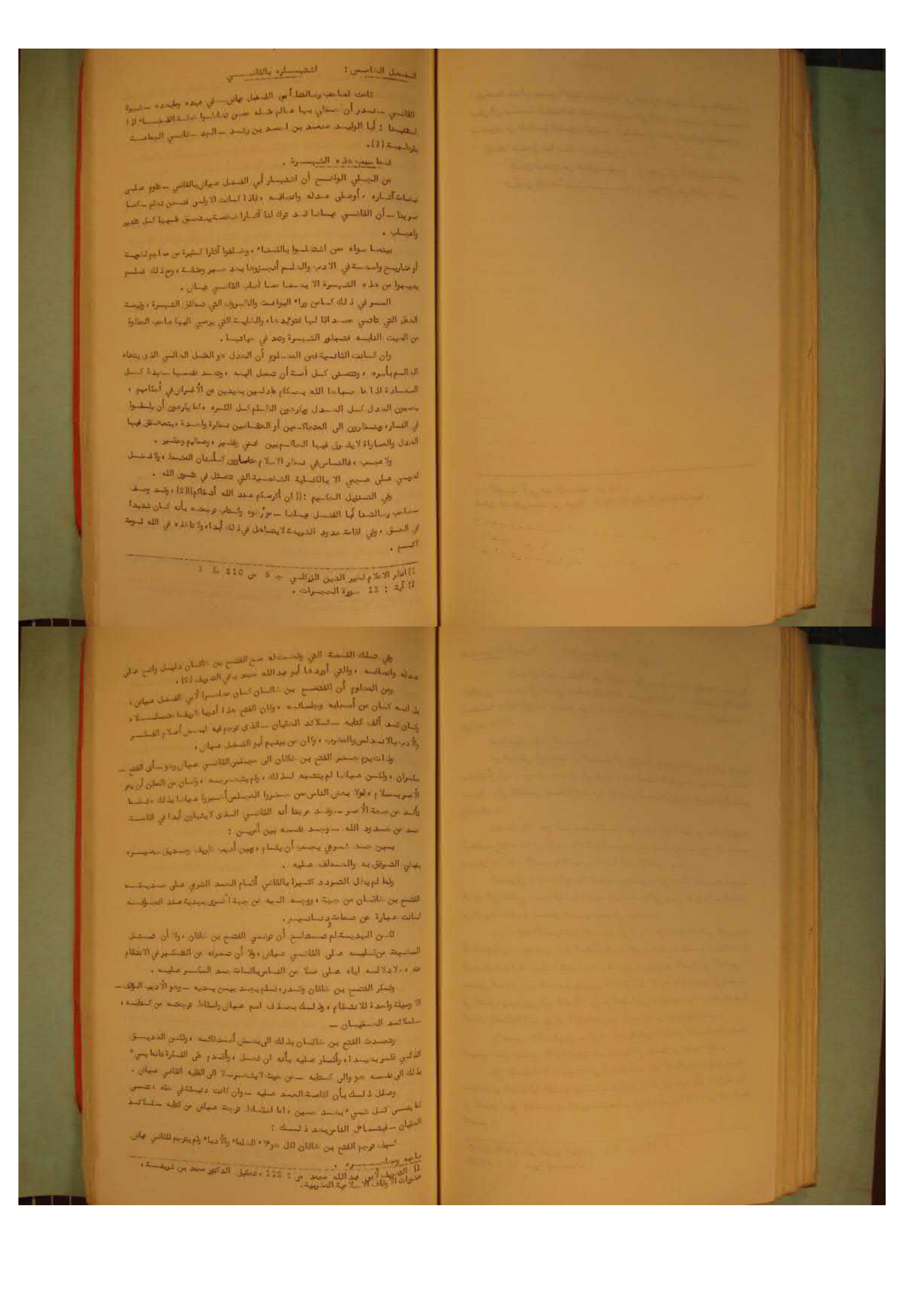
1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص: 75 و 76 تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الاوقاف المغربية

وترفعا منه أن يصير كاتبا يخدم ملكا من الملوك، ويدخل في حاشيته، على أن نفسه المرتهفة ما فتئت تنزع به الى الأدب، وتجد به الى ... فيشرف من النظم الجزل والرقيق، ويكتب من النثر البديع والبليغ.

ولقد صدق فيما قال عن نفسه (1):

ولئن غدوت من العلوم بموضع ::	توسى الى أمابع وعيون
فلذي للآداب نفس صبة ::	فيها الى طح الظروف ركون

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص 89،
تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الاوقاف الاسلامية المغربية.



كانت لصاحب رسالتنا أبي الفضل عياض - في عهده وبعده - شهرة القاضي - بدون أن يحتاج بها عالم غيره ممن تولوا خطة القضاء اذا استثنينا : أبا الوليد محمد بن احمد بن رشد - الجد - قاضي الجماعة بقرطبة (1).

فما سبب هذه الشهرة .

من الجلي الواضح أن اشتهار أبي الفضل عياض بالقاضي - يقوم على ضخامة آثاره ، أو على عدله واستقامته ، فاذا كانت الاولى فنحن نعلم - كما سنرى - أن القاضي عياضا قد ترك لنا آثارا ضخمة يستحق عليها كل تقدير واعجاب .

بينما سواه ممن اشتغلوا بالقضاء ، وخلفوا آثارا كثيرة من معاجم لغوية أو تواريخ واسعة في الادب والعلم أنجزوها بعد سهر وطاقة ، ومع ذلك فلم يحظوا من هذه الشهرة الا بحظ ما حظي به القاضي عياض .

السر في ذلك كامن وراء البواعث والاسباب التي صنعت الشهرة ، وفي الدعائم التي تأسست عليها ، والدلائل التي يرمي اليها صاحب الحلول من البيت العلمي فتتبلور الشهرة وتمتد في حياتها .

وان كانت الثانية فمن المعلوم أن العدل هو العمل الذي يتطلبه العالم بأسره ، وتتمنى كل أمة أن تصل اليه ، وتجد نفسها سعيدة كل السعادة اذا ما حباها الله بحكام عادلين بعيدين عن الأغراض في أحكامهم ، يحبون العدل كل العدل ويكرهون الظلم كل الكره ، كما يكرهون أن يلقوا في النار ، ويتسابقون الى المحاكمين أو المتقاضين نظرة واحدة ، يتحقق فيها العدل والمساواة لا يفرق فيها الحاكم بين غني وفقير ، وصالح وشرير .

ولا عجب ، فالناس في نظر الاسلام سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى الشخصية التي تتمثل في تقوى الله .

وفي التنزيل الحكيم : ((ان أكرمكم عند الله أتقاكم))(2) ، وقد وصف صاحب رسالتنا أبا الفضل عياضا - مؤرخوه وكتاب ترجمته بأنه كان شديدا في الحق ، وفي اقامة حدود الشريعة لا يتساهل في ذلك أبدا ، ولا تأخذه في الله لومة لائم .

1) انظر الاعلام لخير الدين الزركلي ج 5 ص 210 ط 3
2) آية : 13 سورة الحجرات .

وفي تلك اللمحة التي وقعت له مع الفتح بن خاقان دليل واضح على عدله واستقامته ، والتي أوردها أبو عبد الله محمد بن [illegible] في التعريف (1) .

ومن المعلوم أن الفتح بن خاقان كان معاصرا لأبي الفضل عياض ، بل انه كان من أصحابه وجلسائه ، وكان الفتح هذا أديبا فقيها [illegible] ، وكان قد ألف كتابه - قلائد العقيان - الذي ترجم فيه لبعض أعلام الفكر والأدب بالأندلس والمغرب ، وكان من بينهم أبو الفضل عياض .

وذات يوم حضر الفتح بن خاقان الى مجلس القاضي عياض وهو - أي الفتح - سكران ، ولكن عياضا لم يتنبه لذلك ، ولم يشعر به ، وكان من الممكن أن يمر الأمر بسلام ، لولا بعض الناس ممن حضروا المجلس أخبروا عياضا بذلك ، فلما تأكد من صحة الأمر - وقد عرفنا أنه القاضي الذي لا يتهاون أبدا في اقامة حد من حدود الله - وجد نفسه بين أمرين :

بين حد شرعي يجب أن يقام ، وبين أديب ظريف وصديق [illegible] يهابي التوفيق به والتلطف عليه .

ولما لم يبال التردد كثيرا بالقاضي أقام الحد الشرعي على صديقه الفتح بن خاقان من جهة ، ووجه اليه من جهة أخرى بهدية عند انصرافه كانت عبارة عن صلة [illegible] .

لكن الهدية لم تستطع أن ترضي الفتح بن خاقان ، ولا أن تمسح السخيمة من قلبه على القاضي عياض ، ولا أن تصرفه عن التفكير في الانتقام منه ، لا ذلاله اياه على ملأ من الناس باقامة حد السكر عليه .

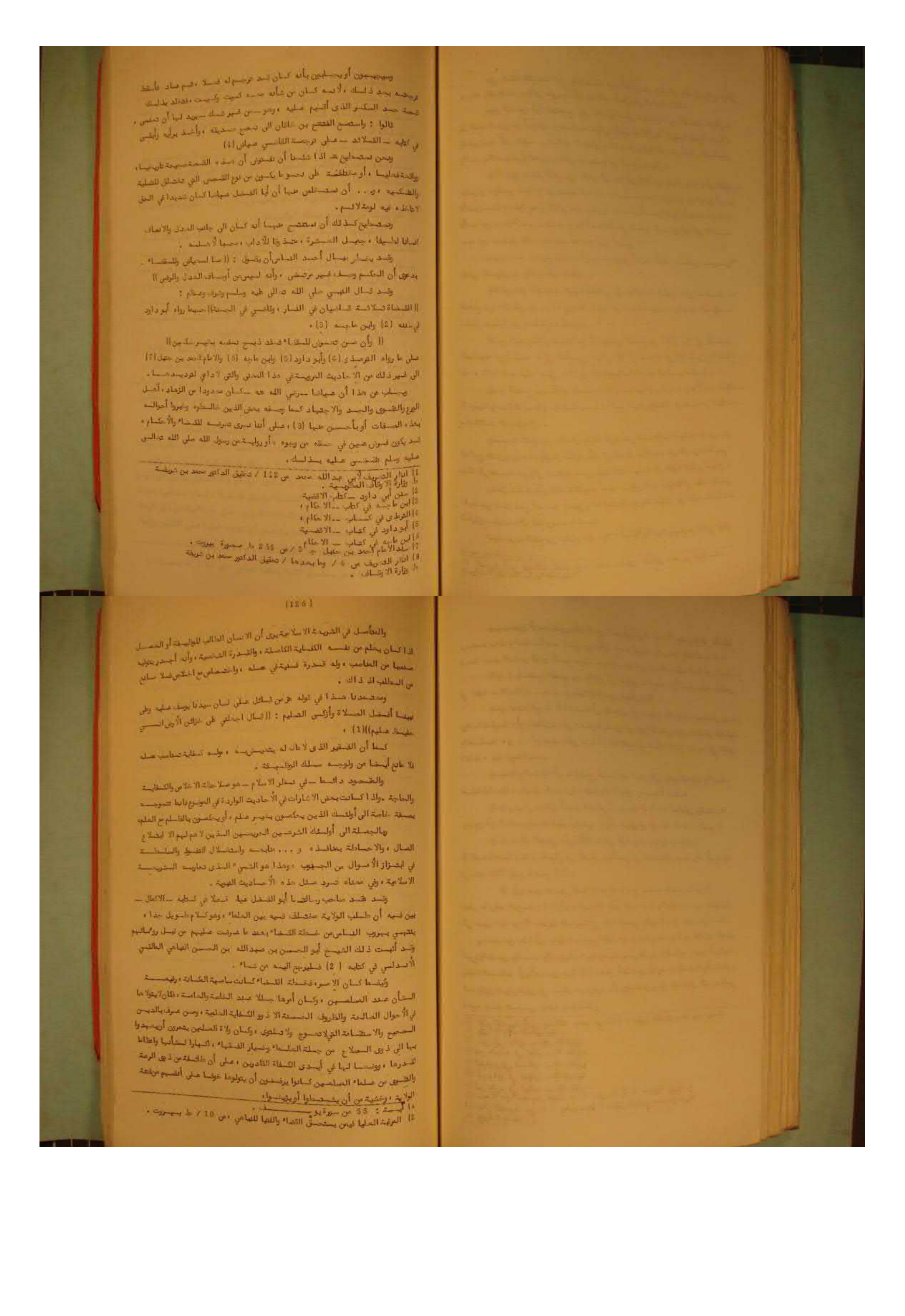
وفكر الفتح بن خاقان وقدر ، فلم يجد بين يديه - وهو الأديب المؤلف - الا وسيلة واحدة للانتقام ، وذلك بحذف اسم عياض واسقاط ترجمته من كتابه - قلائد العقيان -

وحدث الفتح بن خاقان بذلك الى بعض أصدقائه ، ولكن الصديق الذكي فكر بعيدا ، وأشار عليه بأنه ان فعل ، وأقدم على الفكرة فانما يسيء بذلك الى نفسه هو والى كتابه - من حيث لا يشعر - لا الى الفقيه القاضي عياض .

وعلل ذلك بأن اقامة الحد عليه - وان كانت وصمة في حقه - حتى تنسى كل شيء بعد حين ، اما اسقاط ترجمة عياض من كتابه - قلائد العقيان - فيتساءل الناس بعد ذلك :

كيف ترجم الفتح بن خاقان لكل هؤلاء العلماء والأدباء ولم يترجم للقاضي عياض بالرغم من [illegible] .

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص : 122 ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، منشورات الأوقاف الاسلامية المغربية .



وسيجيبون أو يجيبون بأنه كان قد توجم له فسلا ، ثم عاد فأخذ
ويحسه بعد ذلك ، لأنه كان من شأنه [illegible] كميت وكميت ، فخلد بذلك
[illegible] حد السكر الذي أقيم عليه ، وهو من أشهر [illegible] لنا أن نحكي .
قالوا : واستمع الفتح بن خاقان الى [illegible] ، وأخذ برأيه وأبقى
في كتابه – القلائد – على ترجمة القاضي عياض (1)

ونحن نستطيع اذا شئنا أن نفترض أن هذه القصة صحيحة تاريخيا ، وواقعية فعليا ، أو مختلقة على نحو ما يكون من نوع القصص التي تختلق للتسلية والفكاهة ، و... أن نستخلص منها أن أبا الفضل عياضا كان شديدا في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم .

ونستطيع كذلك أن نستخلص منها أنه كان الى جانب العدل والانصاف انسانا لطيفا ، جميل العشرة ، محترما للآداب ، محبا لأهله .

وقد يجدر بنا [illegible] أحمد [illegible] أن يقول : ((انما [illegible] للقضاء يدعو أن الحكم [illegible] غير مرضي ، وأنه ليس من أوصاف العدل والرضى))

وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم :
((القضاة ثلاثة اثنان في النار ، وقاض في الجنة)) حسبما رواه أبو داود في سننه (2) وابن ماجه (3) .

((وأن من تعرض للقضاء فقد ذبح نفسه بغير سكين))
على ما رواه الترمذي (4) وأبو داود (5) وابن ماجه (6) والامام احمد بن حنبل (7) الى غير ذلك من الاحاديث الصريحة في هذا المعنى والتي لا داعي لترديدها .

ويظهر من هذا أن عياضا رضي الله عنه كان معدودا من الزهاد ، أهل الورع والتقوى والجد والاجتهاد كما وصفه بعض الذين [illegible] ونعتوا أحواله بهذه الصفات أو بأحسن منها (8) ، على أننا نرى [illegible] للقضاء والأحكام ، قد يكون [illegible] في [illegible] من وجوه ، أو رواية عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم [illegible] عليه بذلك .

1) [illegible] الشريف لأبي عبد الله محمد ص 122 / تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الأوقاف المغربية .
2) سنن أبي داود – كتاب الاقضية
3) ابن ماجه في كتاب – الاحكام .
4) الترمذي في كتاب – الاحكام .
5) أبو داود في كتاب – الاقضية
6) ابن ماجه في كتاب – الاحكام
7) مسند الامام أحمد بن حنبل ج 5 / ص 255 ط مصورة بيروت .
8) [illegible] الشريف ص 4 / وما بعدها / تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الاوقاف .

والعامل في الشريعة الاسلامية يرى أن الانسان الطالب للوظيفة أو العمل اذا كان يعلم من نفسه الكفاية الكاملة ، والقدرة الشخصية ، وأنه أجدر بتوليه منصبا من المناصب ، وله قدرة فنية في عمله ، والاخلاص مع الاخلاص فلا مانع من الطلب اذ ذاك .

ومستندنا هذا في قوله عز من قائل على لسان سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم : ((قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم))(1) .

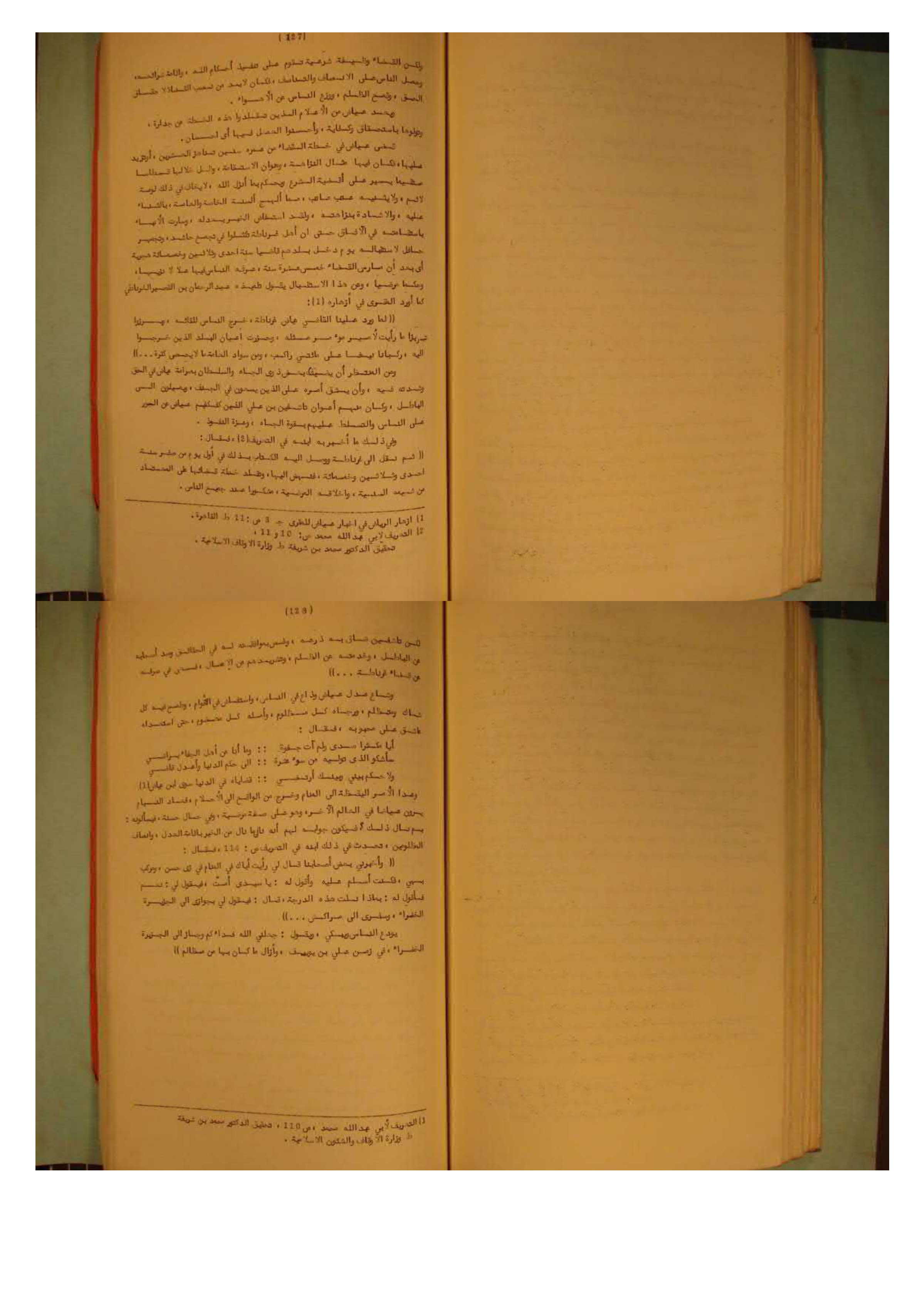
كما أن الفقير الذي لا مال له يتعيش به ، وله كفاية تناسب عملا فلا مانع أيضا من ولوجه سلك الوظيفة .

والمقصود دائما – في نظر الاسلام – هو صلاحية الاخلاص والكفاية والحاجة . واذا كانت بعض الاشارات في الأحاديث الواردة في الموضوع دائما تتوجه بصفة تامة الى أولئك الذين يحكمون بغير علم ، أو يحكمون بالظلم مع العلم ، وبالجملة الى أولئك الشرهين الحريصين الذين لا هم لهم الا ابتلاع المال ، والاحاطة بمنافذه و ... ، واستغلال النفوذ والسلطة في ابتزاز الأموال من الجيوب ، وهذا هو الشيء الذي تحاربه الشريعة الاسلامية ، وفي معناه ترد مثل هذه الأحاديث النهية .

وقد عقد صاحب رسالتنا أبو الفضل عياض فصلا في كتابه – الاكمال – بين فيه أن طلب الولاية مختلف فيه بين العلماء ، وهو كلام طويل جدا ، ينتهي بهروب الناس من خطة القضاء بعد ما عرضت عليهم من قبل رؤسائهم وقد أثبت ذلك الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي في كتابه (2) فليرجع اليه من شاء .

وبينما كان الامر ، فخطة القضاء كانت سامية المكانة ، رفيعة الشأن عند المسلمين ، وكان أمرها جللا عند الخاصة والعامة ، فكان لا يعولون في الأحوال الصالحة والظروف الحسنة الا ذوي الكفاية العلمية ، ومن عرف بالدين الصحيح والاستقامة التي لا عوج ولا ملتوي ، وكان ولاة المسلمين يتحرون أن يسندوا بها الى ذوي الصلاح من جملة العلماء وخيار الفقهاء ، اكبارا لشأنها واعظاما لقدرها ، وونسا لها في أيدي القضاة القادرين ، على أن طائفة من ذوي الورع والتقوى من علماء المسلمين كانوا يرفضون أن يتولوها خوفا على أنفسهم من تبعة الولاية ، وخشية من أن يشتطوا أو يتعسفوا .

1) آية : 55 من سورة يوسف .
2) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي ، ص 10 / ط بيروت .



ولكن القضاء وظيفة شرعية تقوم على تنفيذ أحكام الله، وإقامة شرائعه، وحمل الناس على الانصاف والتناصف، فكان لابد من صاحب القضاء أن يحقق الحق، وينصح الظالم، ويزع الناس عن الأهواء.

ومحمد عياض من الأعلام الذين تقلدوا هذه الخطة عن جدارة، وولوها باستحقاق وكفاية، وأحسنوا العمل فيها أي احسان.

تولى عياض خطة القضاء من عمره سنين تجاوز الخمسين، أو يزيد عليها، فكان فيها مثال النزاهة، وعنوان الاستقامة، والمثل الأعلى قسطاسا مستقيما يسير على أقضية الشرع ويحكم بما أنزل الله، لا يخاف في ذلك لومة لائم، ولا يخشيه غضب غاضب، مما ألهج ألسنة الخاصة والعامة بالثناء عليه، والاشادة بنزاهته، ولقد استطار الشهير بعدله، وسارت الأنباء باستقامته في الآفاق حتى ان أهل غرناطة تكتلوا في جمع حاشد، وجمهور حافل لاستقباله يوم دخل بلدهم قاضيا سنة احدى وثلاثين وخمسمائة هجرية أي بعد أن مارس القضاء خمس عشرة سنة، عرفه الناس فيها عدلا لا نزيها، وحكما مرضيا، وعن هذا الاستقبال يقول تلميذه عبد الرحمن بن القصير الغرناطي كما أورد المقري في أزهاره (1):

((لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا بروزا ما رأيت لأمير من أمراء مثله، وحضرت أعيان البلد الذين خرجوا اليه، ركبانا ومشاة على ما ثنتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة ...))

ومن المنتظر أن يضيق بعض ذوي الجاه والسلطان بصرامة عياض في الحق وشدته فيه، وأن يشق أمره على الذين يسعون في الحيف، ويميلون الى الباطل، وكان منهم أعوان تاشفين بن علي الذين كفكفهم عياض عن الجور على الناس والتسلط عليهم بقوة الجاه، وعزة النفوذ.

وفي ذلك ما أخبر به ابنه في التعريف (2)، فقال:

((ثم نقل الى غرناطة ووصل اليه الكتاب بذلك في أول يوم من صفر سنة احدى وثلاثين وخمسمائة، فنهض اليها، وتقلد خطة قضائها على المعتاد من شيمه السنية، وأخلاقه المرضية، فشكروا عند جميع الناس.

(1) أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري ج 3 ص: 11 ط القاهرة.
(2) التعريف لابي عبد الله محمد ص: 10 و 11،
تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الأوقاف الاسلامية.

لكن تاشفين ضاق به ذرعه، ولمس بموافقته له في الحقائق وبعد أسلوبه عن الباطل، وبعده عن الظالم، وتشديده على الاعمال، فسعى في صرفه عن قضاء غرناطة ...))

وشاع عدل عياض وذاع في الناس، واستفاض في الأقوام، وأصبح فيه كل شاك ومظالم، ورجاه كل مظلوم، وأمله كل محزون، حتى استعداه عاشق على محبوبه، فقال:

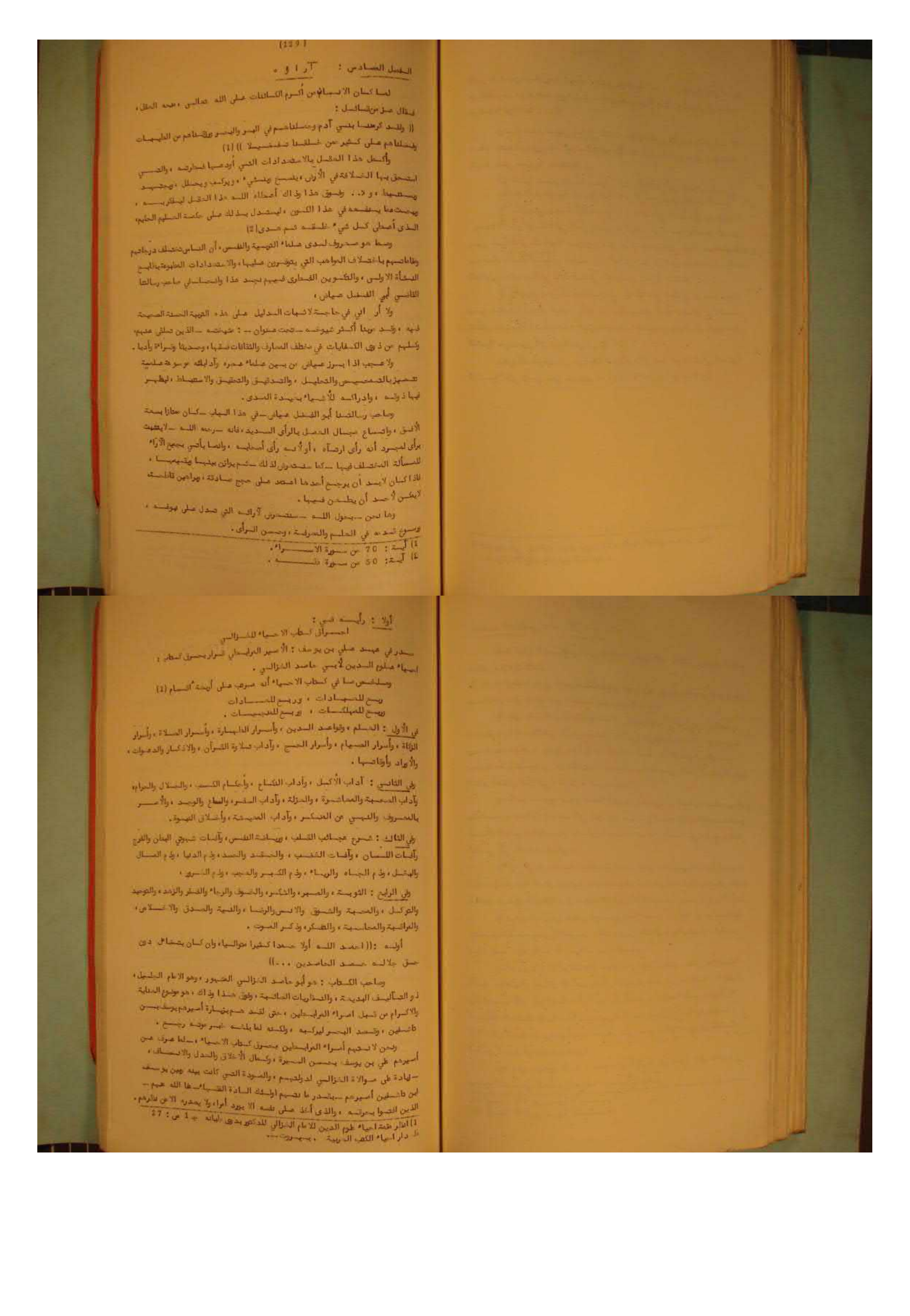
أيا مشكوا سعدى ولم آت جفوة :: وما أنا من أهل الجفاء بمراضي
سأشكو الذي توليه من سوء عشرة :: الى حكم الدنيا وأعدل قاضي
ولا حكم بيني وبينك أرتضي :: قضاياه في الدنيا سوى ابن عياض (1)

وعدا الأمر اليقظة الى المنام وخرج من الواقع الى الأحلام، فصار الناس يرون عياضا في العالم الآخر، وهو على صفة مرضية، وفي حال حسنة، فيسألونه: بم نال ذلك؟ فيكون جوابه لهم أنه نالها بما نال من الخير باقامة العدل، وانصاف المظلومين، تحدث في ذلك ابنه في التعريف ص: 114، فقال:

((وأخبرني بعض أصحابنا قال لي رأيت أباك في المنام في زي حسن، ومركب بهي، فقمت أسلم عليه وأقول له: يا سيدي أنت، فيقول لي: نعم فأقول له: بماذا نلت هذه الدرجة، قال: فيقول لي بجوازي الى الجزيرة الخضراء، وسفري الى مراكش ...))

يودع الناس ويبكي، ويقول: جعلني الله فداءكم وجاز الى الجزيرة الخضراء، في زمن علي بن يوسف، وأزال ما كان بها من مظالم))

(1) التعريف لأبي عبد الله محمد، ص 110، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.



الفصل السادس : آراؤه .

لما كان الانسان من أكرم الكائنات على الله تعالى ، بحجة العقل ، فقال عز من قائل :

((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)) (1)

وأكمل هذا العقل بالاستعدادات التي أودعها فطرته ، والتي استحق بها الخلافة في الأرض ، يلمس ويشم ، ويركب ويحلل ، ويجتهد ويستنبط ، و … وفوق هذا وذاك أعطاه الله هذا العقل ليفكر به ، ويبحث عما يصنعه في هذا الكون ، ليستدل بذلك على حكمة العليم الحليم ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (2)

ومما هو معروف لدى علماء التربية والنفس ، أن الناس تختلف درجاتهم وطاقاتهم باختلاف المواهب التي يتوفرون عليها ، والاستعدادات المطبوعة بطابع النشأة الأولى ، والتكوين الفطري فيهم نجد هذا واضحا لدى صاحب رسالتنا القاضي أبي الفضل عياض ،

ولا أراني في حاجة لاثبات الدليل على هذه الموهبة الحسنة الصحيحة فيه ، وقد رأينا أكثر شيوخه – تحت عنوان – : شهادته – الذين تلقى عنهم وتلمذ عليهم من ذوي الكفايات في مختلف المعارف والثقافات فقها ، وحديثا وقراءة وأدبا .

ولا عجب اذا برز عياض من بين علماء عصره وأدبائه بموسوعة علمية تتميز بالتمحيص والتحليل ، والتدقيق والتحقيق والاستنباط ، ليظهر فيها ذوقه ، وادراكه للأشياء بعيدة المدى .

وصاحب رسالتنا أبو الفضل عياض – في هذا الباب – كان ممتازا بسعة الأفق ، واتساع مجال العمل بالرأي السديد ، فانه – رحمه الله – لا يثبت برأي لمجرد أنه رأي ارتضاه ، أو لأنه رأى أصحابه ، وانما يأتي بجميع الآراء للمسألة المختلف فيها – كما ستعرض لذلك – ثم يوازن بينها ويقيمها ، فاذا كان لا بد أن يرجح أحدها اعتمد على حجج صادقة ، وبراهين قاطعة لا يمكن لأحد أن يطعن فيها .

وها نحن – بحول الله – سنعرض آراءه التي تدل على تفوقه ، وسمو قدمه في العلم والمعرفة ، وحسن الرأي .

(1) آية : 70 من سورة الاسراء .
(2) آية : 50 من سورة طه .

أولا : رأيه في :

احراق كتاب الاحياء للغزالي

صدر في عهد علي بن يوسف : الأمير المرابطي قرار بحرق كتاب : احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي .

وملخص ما في كتاب الاحياء أنه مرتب على أربعة أقسام (1)

ربع للعبادات ، وربع للعادات
وربع للمهلكات ، وربع للمنجيات .

في الأول : العلم ، وقواعد الدين ، وأسرار الطهارة ، وأسرار الصلاة ، وأسرار الزكاة ، وأسرار الصيام ، وأسرار الحج ، وآداب تلاوة القرآن ، والأذكار والدعوات ، والأوراد وأوقاتها .

وفي الثاني : آداب الأكل ، وآداب النكاح ، وأحكام الكسب ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمعاشرة ، والعزلة ، وآداب السفر ، والسماع والوجد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وآداب المعيشة ، وأخلاق النبوة .

وفي الثالث : شرح عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وآفات شهوتي البطن والفرج وآفات اللسان ، وآفات الغضب ، والحقد والحسد ، وذم الدنيا ، وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والعجب ، وذم الغرور .

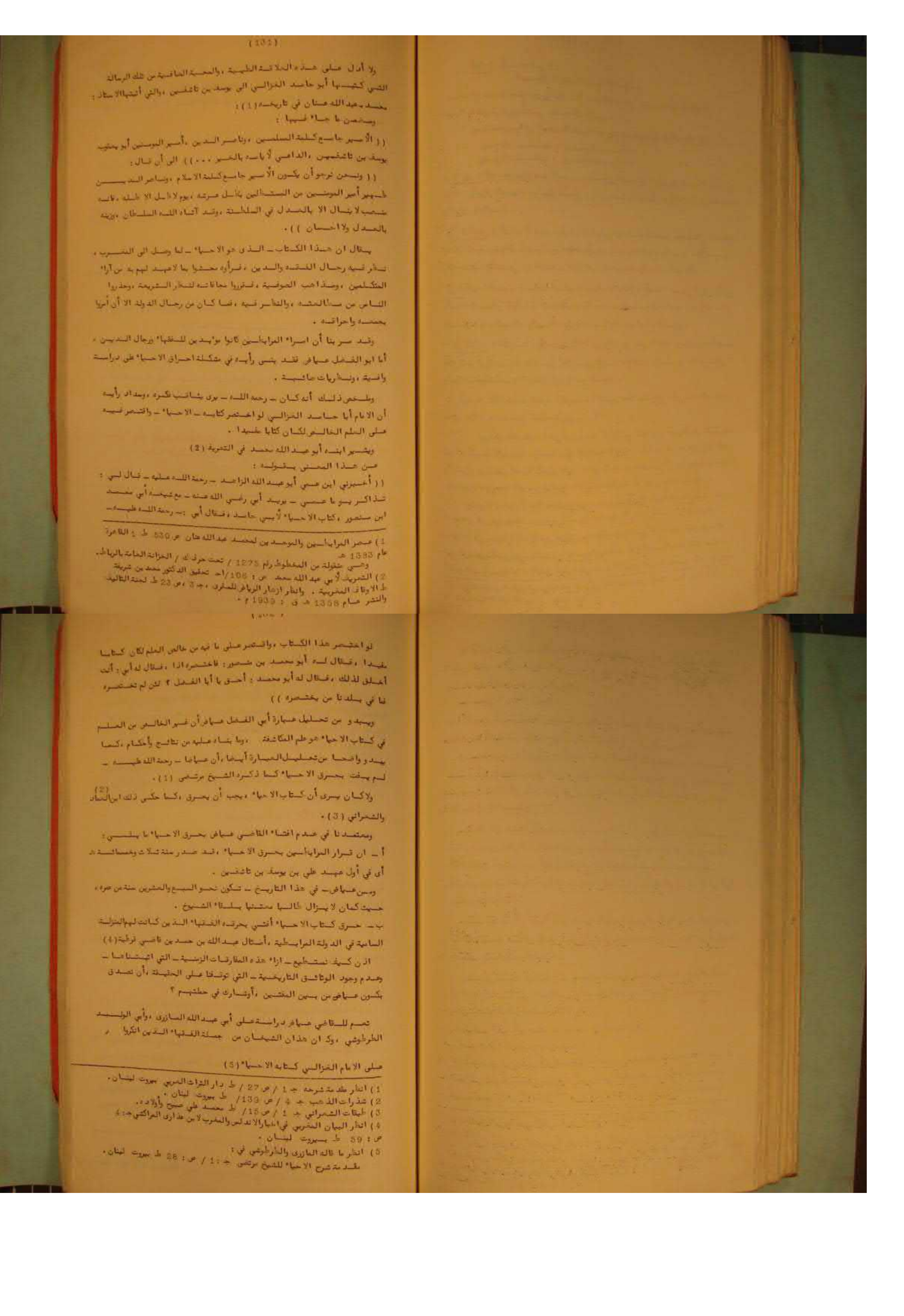
وفي الرابع : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف والرجاء والفقر والزهد ، والتوحيد والتوكل ، والمحبة والشوق والانس والرضا ، والنية والصدق والاخلاص ، والمراقبة والمحاسبة ، والتفكر ، وذكر الموت .

أوله : ((الحمد لله أولا حمدا كثيرا متواليا ، وان كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين …))

وصاحب الكتاب : هو أبو حامد الغزالي المشهور ، وهو الامام الجليل ، ذو التآليف العديدة ، والنظريات الفائقة ، وفوق هذا وذاك ، هو موضع العناية والاكرام من قبل أمراء المرابطين ، حتى لقد هم بزيارة أميرهم يوسف بن تاشفين ، وقصد البحر ليركبه ، ولكنه لما بلغه نعيه توقف ورجع .

ونحن لا نتهم أمراء المرابطين بحرق كتاب الاحياء ، لما عرف عن أميرهم علي بن يوسف بحسن السيرة ، وكمال الأخلاق والعدل والانصاف ، زيادة على موالاة الغزالي لدولتهم ، والمودة التي كانت بينه وبين يوسف بن تاشفين أميرهم – بقدر ما نتهم أولئك السادة الفقهاء – غفر الله لهم – الذين افتوا بحرقه ، والذي أخذ على نفسه الا يورد أمرا ، ولا يصدره الا عن رأيهم .

(1) انظر مقدمة احياء علوم الدين للامام الغزالي المذكور بذيل ابانة ج 1 ص : 47 ط. دار احياء الكتب العربية ، بيروت …



ولا أدل على هذه العلاقة الطيبة، والمحبة الصافية من تلك الرسالة التي كتبها أبو حامد الغزالي الى يوسف بن تاشفين، والتي أثبتها الاستاذ محمد بن عبد الله عنان في تاريخه (1):

ومضمن ما جاء فيها:

((الأمير جامع كلمة المسلمين، وناصر الدين، أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، الداعي لأيامه بالخير ...)) الى أن قال:

((ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الاسلام، وناصر الدين ظهير أمير المؤمنين من المستقلين بثقل عرشه، يوم لا ظل الا ظله، فانه منصب لا ينال الا بالعدل في السلطنة، وقد آتاه الله السلطان، وزينه بالعدل والاحسان)).

يقال ان هذا الكتاب - الذي هو الاحياء - لما وصل الى المغرب، نظر فيه رجال الفقه والدين، فرأوه محشوا بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين، ومذاهب الصوفية، فقرروا مجافاته لشعار الشريعة، وحذروا الناس من مطالعته، والنظر فيه، فما كان من رجال الدولة الا أن أمروا بمصادرته واحراقه.

وقد مر بنا أن امراء المرابطين كانوا مؤيدين للفقهاء ورجال الدين، أما ابو الفضل عياض فقد بنى رأيه في مشكلة احراق الاحياء على دراسة وافية، ونظريات صائبة.

وملخص ذلك أنه كان - رحمه الله - يرى بثاقب فكره، وسداد رأيه أن الامام أبا حامد الغزالي لو اختصر كتابه - الاحياء - واقتصر فيه على العلم الخالص لكان كتابا مفيدا.

ويشير ابنه أبو عبد الله محمد في التعريف (2) عن هذا المعنى بقوله:

((أخبرني ابن عمي أبو عبد الله الزاهد - رحمة الله عليه - قال لي: تذاكر يوما عمي - يريد أبي رضي الله عنه - مع شيخه أبي محمد ابن منصور، كتاب الاحياء لأبي حامد، فقال أبي - رحمة الله عليه -

1) عصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان ص 530 ط القاهرة عام 1383 هـ.
وهي منقولة من المخطوط رقم 1275 / تحت حرف ك / الخزانة العامة بالرباط.
2) التعريف لأبي عبد الله محمد ص: 106/أ-ب تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط الاوقاف المغربية. وانظر ازهار الرياض للمقري، جـ 3، ص 23 ط لجنة التأليف والنشر عام 1358 هـ ق: 1939 م.

لو اختصر هذا الكتاب، واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا، فقال له أبو محمد بن منصور: فاختصره اذا، فقال له أبي: أنت أحق لذلك، فقال له أبو محمد: أحق يا أبا الفضل؟ لئن لم تختصره لنا في بلدنا من يختصره))

ويبدو من تحليل عبارة أبي الفضل عياض أن غير الخالص من العلم في كتاب الاحياء هو علم المكاشفة، وما بناه عليه من نتائج وأحكام، كما يبدو واضحا من تحليل العبارة أيضا، أن عياضا - رحمة الله عليه - لم يفت بحرق الاحياء كما ذكره الشيخ مرتضى (1).

ولا كان يرى أن كتاب الاحياء، يجب أن يحرق، كما حكى ذلك ابن العماد (2) والشعراني (3).

ومعتمدنا في عدم افتاء القاضي عياض بحرق الاحياء ما يلي:

أ - ان قرار المرابطين بحرق الاحياء، قد صدر سنة ثلاث وخمسمائة، أي في أول عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

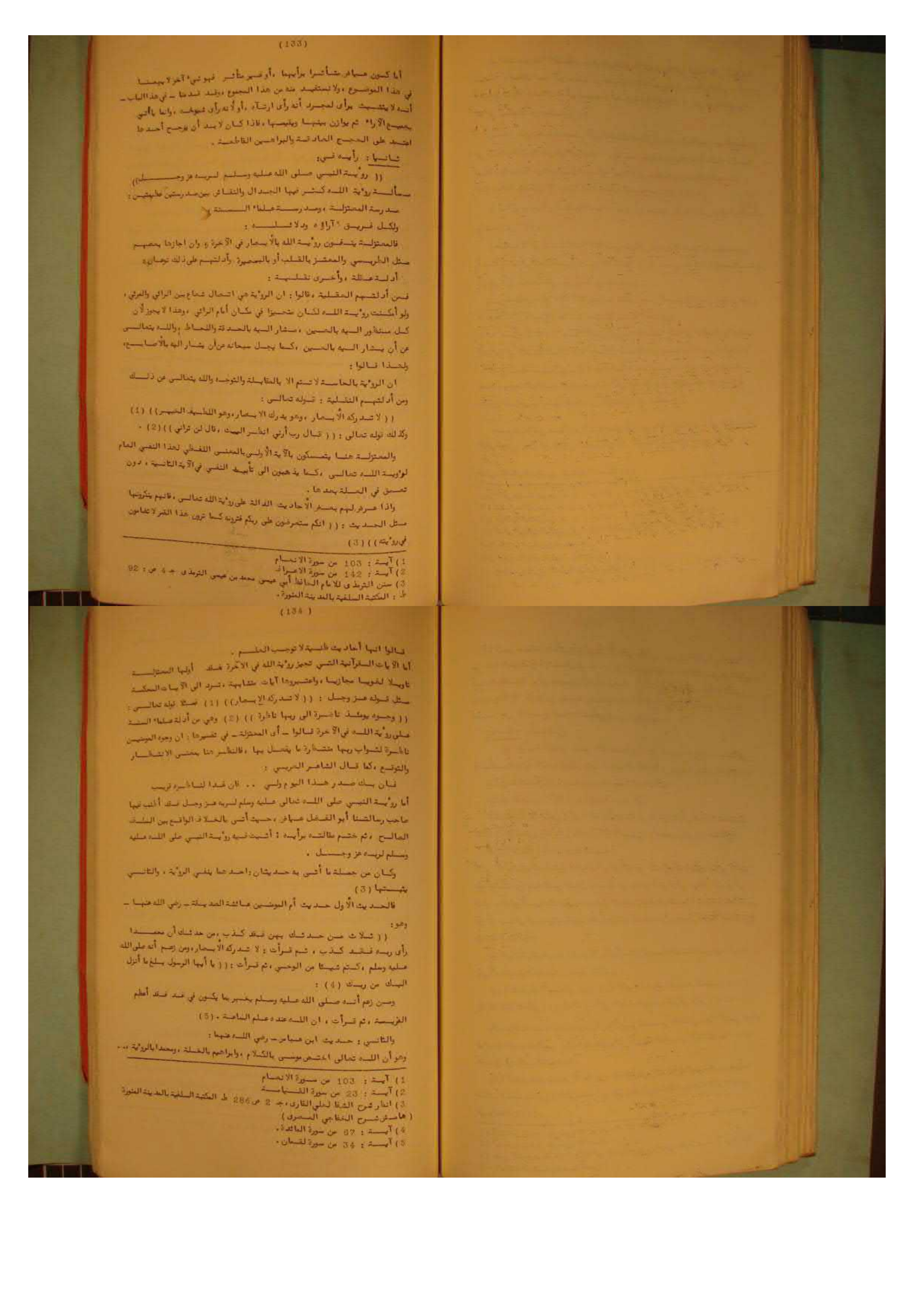
وسن عياض - في هذا التاريخ - تكون نحو السبع والعشرين سنة من عمره، حيث كان لا يزال طالبا محتشما بلقاء الشيوخ.

ب - حرق كتاب الاحياء أفتى بحرقه الفقهاء الذين كانت لهم المنزلة السامية في الدولة المرابطية، أمثال عبد الله بن حمدين قاضي قرطبة (4)

الآن كيف نستطيع - ازاء هذه المفارقات الزمنية - التي اثبتناها - وعدم وجود الوثائق التاريخية - التي توقفنا على الحقيقة، أن نصدق بكون عياض من بين المفتين، أو شارك في حملتهم؟

تحمس للقاضي عياض دراسة على أبي عبد الله المازري، وأبي الوليد الطرطوشي، وكان هذان الشيخان من جملة الفقهاء الذين انكروا على الامام الغزالي كتابه الاحياء (5)

1) انظر مقدمة شرحه جـ 1 / ص 27 / ط دار التراث العربي بيروت لبنان.
2) شذرات الذهب جـ 4 / ص 133/ ط بيروت لبنان.
3) طبقات الشعراني جـ 1 / ص 15/ ط محمد علي صبيح وأولاده.
4) انظر البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي جـ 4 ص: 59 ط بيروت لبنان.
5) انظر ما قاله المازري والطرطوشي في: مقدمة شرح الاحياء للشيخ مرتضى جـ 1 / ص: 28 ط بيروت لبنان.



(133)

أما كون عياض متأثرا برأيهما ، أو غير متأثر فهو شيء آخر لا يهمنا في هذا الموضوع ، ولا نستفيد منه من هذا المجموع ، وقد قدمنا – في هذا الباب – أنه لا يتشبث برأي لمجرد أنه رأى ارتضاه ، أو لأنه رأي شيوخه ، وانما يأتي بجميع الآراء ثم يوازن بينها ويقيسها ، فاذا كان لا بد أن يرجح أحدها اعتمد على الحجج الصادقة والبراهين القاطعة .

ثانيا : رأيه في :

((رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل))

مسألة رؤية الله كثر فيها الجدال والنقاش بين مدرستين عظيمتين : مدرسة المعتزلة ، ومدرسة علماء السنة ،

ولكل فريق آراؤه ودلائله :

فالمعتزلة ينفون رؤية الله بالأبصار في الآخرة ، وان أجازها بعضهم مثل الطبرسي والمعتزلي بالقلب أو بالبصيرة ، وأدلتهم على ذلك نوعان : أدلة عقلية ، وأخرى نقلية :

فمن أدلتهم العقلية ، قالوا : ان الرؤية هي اتصال شعاع بين الرائي والمرئي ، ولو أمكنت رؤية الله لكان متحيزا في مكان أمام الرائي ، وهذا لا يجوز لأن كل متحيز يشار اليه بالحس ، ويشار اليه بالحدقة واللحاظ ، والله يتعالى عن أن يشار اليه بالحس ، كما يجل سبحانه عن أن يشار اليه بالأصابع ، ولهذا قالوا :

ان الرؤية بالحاسة لا تتم الا بالمقابلة والتوجه والله يتعالى عن ذلك

ومن أدلتهم النقلية : قوله تعالى :

((لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير)) (1)

وكذلك قوله تعالى : ((قال رب أرني انظر اليك ، قال لن تراني)) (2) .

والمعتزلة هنا يتمسكون بالآية الأولى بالمعنى اللفظي لهذا النفي العام لرؤية الله تعالى ، كما يذهبون الى تأبيد النفي في الآية الثانية ، دون تعمق في العلة بعدها .

واذا عرض لهم بعض الأحاديث الدالة على رؤية الله تعالى ، فانهم ينكرونها مثل الحديث : ((انكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته)) (3)

---

1) آية : 103 من سورة الانعام
2) آية : 142 من سورة الاعراف
3) سنن الترمذي للامام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ج 4 ص : 92 ط : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

(134)

قالوا انها أحاديث ظنية لا توجب العلم .

أما الآيات القرآنية التي تجيز رؤية الله في الآخرة فقد أولها المعتزلة تأويلا لغويا مجازيا ، واعتبروها آيات متشابهة ، ترد الى الآيات المحكمة مثل قوله عز وجل : ((لا تدركه الابصار)) (1) مثلا قوله تعالى : ((وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة)) (2) وهي من أدلة علماء السنة على رؤية الله في الآخرة قالوا – أي المعتزلة – في تفسيرها : ان وجوه المؤمنين ناظرة لثواب ربها منتظرة ما يتصل بها ، فالنظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع ، كما قال الشاعر العربي :

فان يك صدر هذا اليوم ولى .. فان غدا لناظره قريب

أما رؤية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لربه عز وجل فقد أطنب فيها صاحب رسالتنا أبو الفضل عياض ، حيث أتى بالخلاف الواقع بين السلف الصالح ، ثم ختم مقالته برأيه : أثبت فيه رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل .

وكان من جملة ما أتى به حديثان واحد منهما ينفي الرؤية ، والثاني يثبتها (3)

فالحديث الأول حديث أم المؤمنين عائشة الصديقة – رضي الله عنها – وهو :

((ثلاث من حدثك بهن فقد كذب ، من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : لا تدركه الأبصار ، ومن زعم أنه صلى الله عليه وسلم ، كتم شيئا من الوحي ، ثم قرأت : ((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك (4) :

ومن زعم أنه صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم الفرية ، ثم قرأت ، ان الله عنده علم الساعة . (5)

والثاني : حديث ابن عباس – رضي الله عنهما :

وهو أن الله تعالى اختص موسى بالكلام ، وابراهيم بالخلة ، ومحمدا بالرؤية ...

---

1) آية : 103 من سورة الانعام
2) آية : 23 من سورة القيامة
3) انظر شرح الشفا لعلي القاري ، ج 2 ص 286 ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (هامش شرح الخفاجي المصري)
4) آية : 67 من سورة المائدة .
5) آية : 34 من سورة لقمان .

ويعد أن قدم لنا عياض الحديث الدالين على الرؤية وعدمها ، أعطى - رحمه الله - نظرة الفاضل ورأيه الحاسم ، فقال : (1)

((والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى لها ، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه ، بل لم يسأل الا جائزا غير مستحيل))

ثم استدرك وقال : ((ولكن وقوعه ومشاهدته ، أي لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم على الخصوص من الغيب الذي لا يعلمه الا من علمه الله تعالى)) .

أما طلب موسى عليه السلام الرؤية ، فقال له الله تعالى :

((لن تراني)) (2) ، أي لن تطيق ، ولن تحتمل رؤيتي ، ثم ضرب له مثالا مما هو أقوى من بنية موسى وأثبت وهو الجبل)) .

ويزيدنا وضوحا - في المسألة - حيث يقول :

((... وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا ، بل فيه جوازها على الجملة ، وليس في الشرع أي في الكتاب والسنة دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها)) .

وعلل ذلك بقوله : ((اذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة))

ثم رد على من منع الرؤية بقوله :

((ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله : ((لا تدركه الابصار)) (3) لاختلاف التأويلات في الآية الكريمة ، واذ ليس يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة . وقد استدل بعضهم بهذه الآية ، وهي لا تدركه الابصار) على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة ، وقيل : (لا تدركه الابصار) لا تحيط به ، ونسب القول لابن عباس - رضي الله عنهما وقيل (لا تدركه الابصار) وانما يدركه المبصرون .

وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها ، بل تقتضي جوازها))

ويرد على من استدل بسؤال موسى عليه السلام اياها فيقول :

((وكذلك لا حجة لهم بقوله : (لن تراني) (4) الاية ، وقوله : تبت اليك لما قدمناه ، ولانها ليست على العموم)) بمعنى ليست في نفيها لجميع أفراد الانسان في جميع الأزمان ، لجواز أن يراه غير موسى - عليه السلام - مما يخلق الله فيه استعدادا لها في ابانها ووقتها كليلة الاسراء .

---

1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، جـ 1 ص 332 وما بعدها ، تحقيق اسامة الرفاعي ط : دمشق .
2) آية : 143 من سورة الاعراف .
3) آية : 103 " الانعام
4) آ... " الاعراف

فان لن لنفي المستقبل فقط ، ولا تفيد توكيد النفي في الاستقبال ولا تأبيده ، على ما عليه أهل السنة ، خلافا للزمخشري وأهل الاعتزال الذين يدعون أنها تفيد التوكيد أو التأبيد))

ومن هنا نرى بعضهم يقول :

ومن يسر النفي بلن مؤبدا :: فارددا كلامه وعيره اعضدا

__ثالثا__ : رأيه في :

ما المراد بالقرء في قوله تعالى :

((يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)) (1)

هل الطهر ، أو الحيض ، أو هو مشترك بينهما ؟

المفهوم من الآية الكريمة ، ان المطلقات المدخول بهن من ذوات الاقراء أن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث احداهن بعد طلاق زوجها له ثلاثة قروء ، ثم تتزوج ان شاءت .

وقد اختلف السلف والخلف ، والائمة في المراد بالاقراء ما هو على قولين :

الأول : ان المراد بها الاطهار ، وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة انها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمان بن أبي بكر حين دخلت في الدم ، في الحيضة الثالثة ، وقد جادلها ناس في ذلك ، فقالوا : ان الله تعالى يقول في كتابه : ((ثلاثة قروء)) فقالت عائشة : صدقتم ، وتدرون ما الاقراء ؟ انما الاقراء الاطهار .

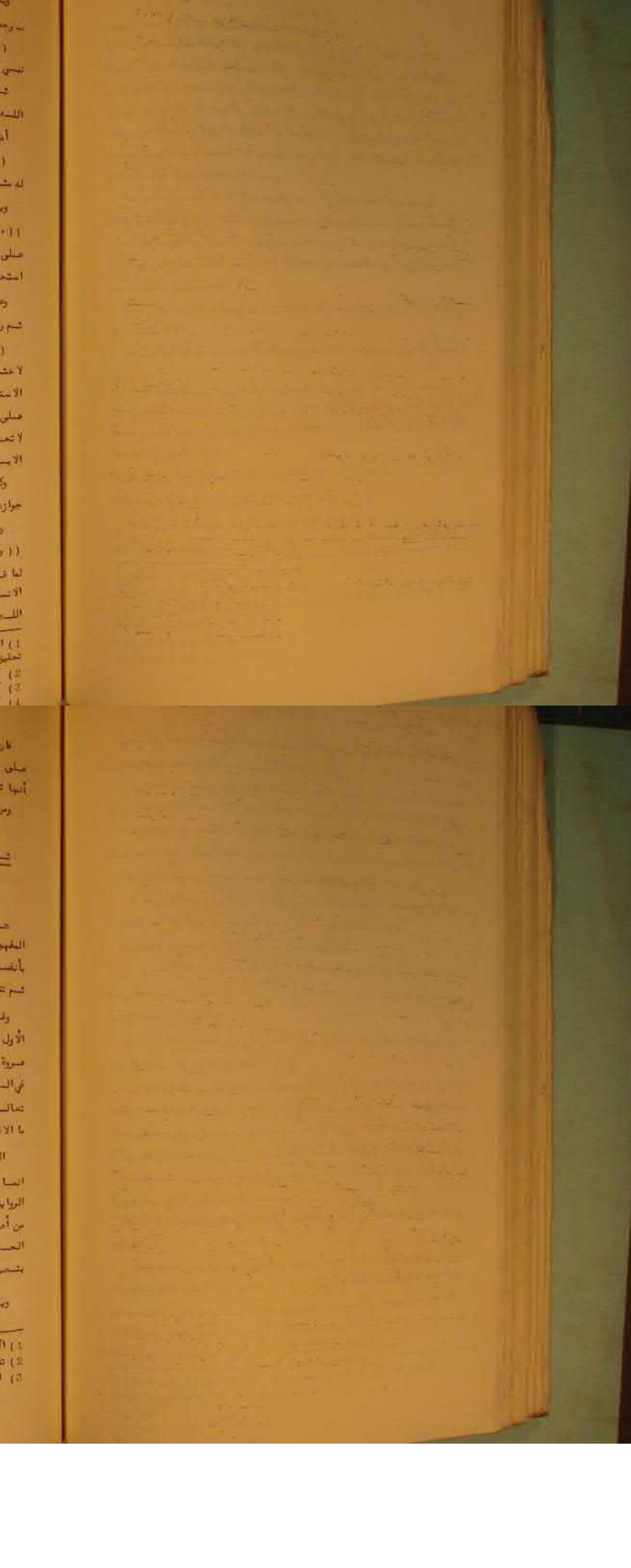
__القول الثاني__ :

انما المراد بالاقراء الحيض ، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وأصح الروايتين عن الامام احمد بن حنبل ، وحكى عنه الاثرم أنه قال : الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقولون : ((الاقراء)) الحيض ، وهو مذهب الأوزاعي والثوري ، وابن أبي ليلى وابن شبرمة . انتهى بتصرف من تفسير ابن كثير (2)

ويجيء دور عياض ، ويدلي رأيه في هذه المسألة الفقهية فيقول : (3)

---

1) الآية : 338 من سورة البقرة
2) تفسير ابن كثير جـ 1 ص 270 / ط دار احياء التراث العربي
3) الشرح المسمى باكمال اكمال المعلم للأبي جـ 4 ص : 105 / ط : 1





((فمعنى ثلاثة قروء ثلاث انتقالات ، وأنت اذا صرفت من أي شيء هو مشتق اتضح لك ما هو الاظهر فقيل : هو مشتق من الوقت ، فعلى هذا يحتمل الوجهين ، وقيل : من الجمع ، فعلى هذا فهو ظاهر في الطهر ، وقيل من الانتقال من حال الى حال ، من قولهم قرأ النجم اذا طلع ، وقرأ اذا أفل ، فمعنى يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء : ثلاث انتقالات ، وهذا يظهر في الطهر والحيض ، ان الثلاث انتقالات انما تستقيم بالانتقالات من الطهر الى الحيض ، ولا تستقيم بالانتقالات من الحيض الى الطهر ، لأن الطلاق في الحيض لا يجوز ، يعضد هذا أن براءة الرحم انما تعرف بالانتقال من الطهر الى الحيض ، ولهذا كان استبراء الاماء بالحيض ، لأن مجيء الحيض في الغالب دليل على براءة الرحم ، ولا يدل مجيء الطهر على براءة الرحم ، لأن الحائض قد تحمل في آخر حيضتها ، فكانت الثلاث في الحرائر كالواحدة في استبراء الاماء))

رابعا : رأيه في :

مسألة الايمان

بعد ان أورد كلام ابن سحنون وذكر أنه لا يستثني في مسألة الايمان ، عقبه بكلام من أنكر ذلك عليه ، ونسب مقالته الى الارجاء ، بين ـ رحمه الله ـ ان الخلاف بينهم واقع في ألفاظ لا في حقيقة ، فقال بالنص : (1)

((كان محمد بن سحنون لا يستثني في مسألة الايمان ، وكان يقول : انا مؤمن عند الله

وكان ابن عبدوس ، وأصحابه ، وأهل مصر والمشرق ، ينكرون ذلك عليه وعلى من يقوله ، وينسبون مقالته الى الارجاء .

وتكلم بذلك مرة بمصر رجل في حلقة أبي الذكر الفقيه ، فأنكروا عليه فقال أبو الذكر : وعندنا فرقة بالمغرب يقال لها السحنونية تقول ذلك ، وكان ابن سحنون يقول : المرء يعلم اعتقاده ، فكيف يعلم أنه يعتقد الايمان ، ثم يشك فيه ؟

وبقي بين أصحابه بعده وبين أصحاب ابن عبدوس وغيرهم في المسألة تنازع ومجادلات ومطالبات ، وكانوا يعصون من خالفهم الشكوكية ، لاستثنائهم .

---

1) ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك للقاضي عياض ، ج : 4 / ص : 218 ط : وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ـ الرباط ، تحقيق الاستاذ عبد القادر الصحراوي .

قال المؤلف القاضي أبو الفضل رحمه الله :

((والمسألة قد كثر الخوض فيها ، وكلام الائمة عليها ، والحقيقة فيها أنه خلاف في ألفاظ لا في حقيقة ، فمن التفت الى مغيب الحال والخاتمة وما سبق به القدر ، قال بالاستثناء ، ومن التفت الى حال نفسه ، وصحة معتقده في وقته لم يقل به))

خامسا : رأيه في :

الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الصلاة

ان الدلائل النقلية والعقلية كثيرة على وجوب الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم ، وأول دليل على هذا الوجوب هو قوله عز من قائل في كتابه العزيز : ((ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)) (1)

فقد اتفقت كلمة العلماء من السلف والخلف ـ في المذاهب الأربعة كلها ـ على وجوب الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم ، بناء على نص هذه الآية الكريمة .

فقد أمر الله بها عباده المؤمنين والمؤمنات فيها بأن يصلوا ويسلموا على النبي الأكرم بعد أن ذكر أن الله وملائكته يصلون عليه .

قال الامام الخازن في تفسير هذه الآية الكريمة (2) .

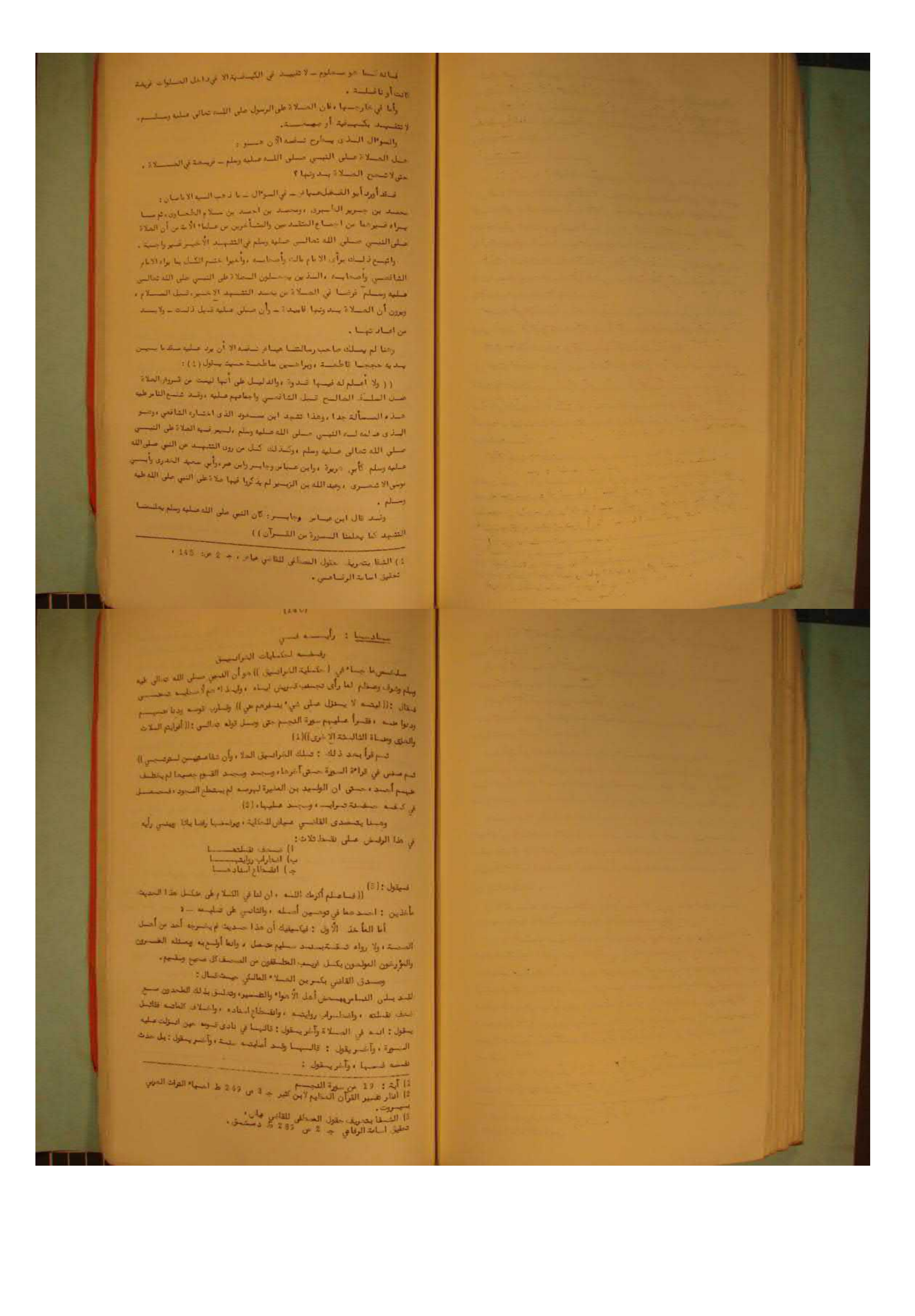
((اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا ، فقيل تجب مرة في العمر وهو قول الائمة ، وقيل تجب في كل صلاة في التشهد الأخير ، وهو مذهب الشافعي ، واحدى الروايتين عن الامام أحمد ، وقيل تجب كلما ذكر ، واختاره الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية .

والواجب : اللهم صل على محمد ، وما زاد سنة))

ونحن نرى : أن السعادة كلها أن يوفق الله سبحانه وتعالى كل مؤمن للصلاة والسلام على الرسول النبي الأمي الأمين ، وذلك بالكيفية الواردة الثابتة في كتب السنة ، أو بأي كيفية أخرى التي تتفق مع أدب الرسول الأكرم ، صلوات الله وسلامه عليه .

---

1) آية : 56 من سورة الأحزاب .
2) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل ، في معاني التنزيل للامام علاء الدين علي ابن محمد ، البغدادي الصوفي المعروف بالخازن ج : 4 ص : 225 ط : دار الفكر بيروت ، لبنان .



فبالنسبة لنا — كما هو معلوم — لا تشهد في الكيفية إلا في داخل الصلوات فريضة كانت أو نافلة .

وأما في خارجها ، فإن الصلاة على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تتقيد بكيفية أو صيغة .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو :

هل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم — فريضة في الصلاة ، حتى لا تصح الصلاة بدونها ؟

لقد أورد أبو الفضل عياض — في السؤال — ما ذهب إليه الإمامان : محمد بن جرير الطبري ، ومحمد بن أحمد بن سلام الطحاوي ، وهو ما يراه غيرهما من إجماع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة من أن الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في التشهد الأخير غير واجبة .

واتبع ذلك برأي الإمام مالك وأصحابه ، وأنهوا ختم الكل بما يراه الإمام الشافعي وأصحابه ، الذين يجعلون الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فرضا في الصلاة من بعد التشهد الأخير ، قبل السلام ، ويرون أن الصلاة بدونها فاسدة — وأن صلى عليه قبل ذلك — ولا بد من إعادتها .

وهنا لم يملك صاحب رسالتنا عياض نفسه إلا أن يرد عليه مقدما بين يديه حججا قاطعة ، وبراهين ساطعة حيث يقول (1) :

((ولا أعلم له فيها قدوة ، والدليل على أنها ليست من شروط الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه ، وقد شنع الناس عليه هذه المسألة جدا ، وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعي وهو الذي علمه له النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك كل من روى التشهد عن النبي صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة ، وابن عباس وجابر وابن عمر وأبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير لم يذكروا فيها صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد قال ابن عباس وجابر : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن))

1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، ج 2 ص: 145 ، تحقيق أسامة الرفاعي .

سادسا : رأيه في

رفضه لحكايات الغرانيق

ملخص ما جاء في ((حكاية الغرانيق)) هو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشوقا وحرصا لما رأى تجنب قريش إياه ، ولما ناله من أذاهم تمنى فقال : ((ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم عني)) وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فقرأ عليهم سورة النجم حتى وصل قوله تعالى : ((أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)) (1)

ثم قرأ بعد ذلك : تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى)) ثم مضى في قراءة السورة حتى آخرها ، وسجد وسجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحد ، حتى إن الوليد بن المغيرة لهرمه لم يستطع السجود ، فحمل في كفه حفنة تراب ، وسجد عليها ، (2)

وهنا يتصدى القاضي عياض للحكاية ، ويرفضها رفضا باتا ويبني رأيه في هذا الرفض على نقاط ثلاث :

أ) ضعف نقلتها
ب) اضطراب روايتها
ج) انقطاع إسنادها

فيقول : (3)

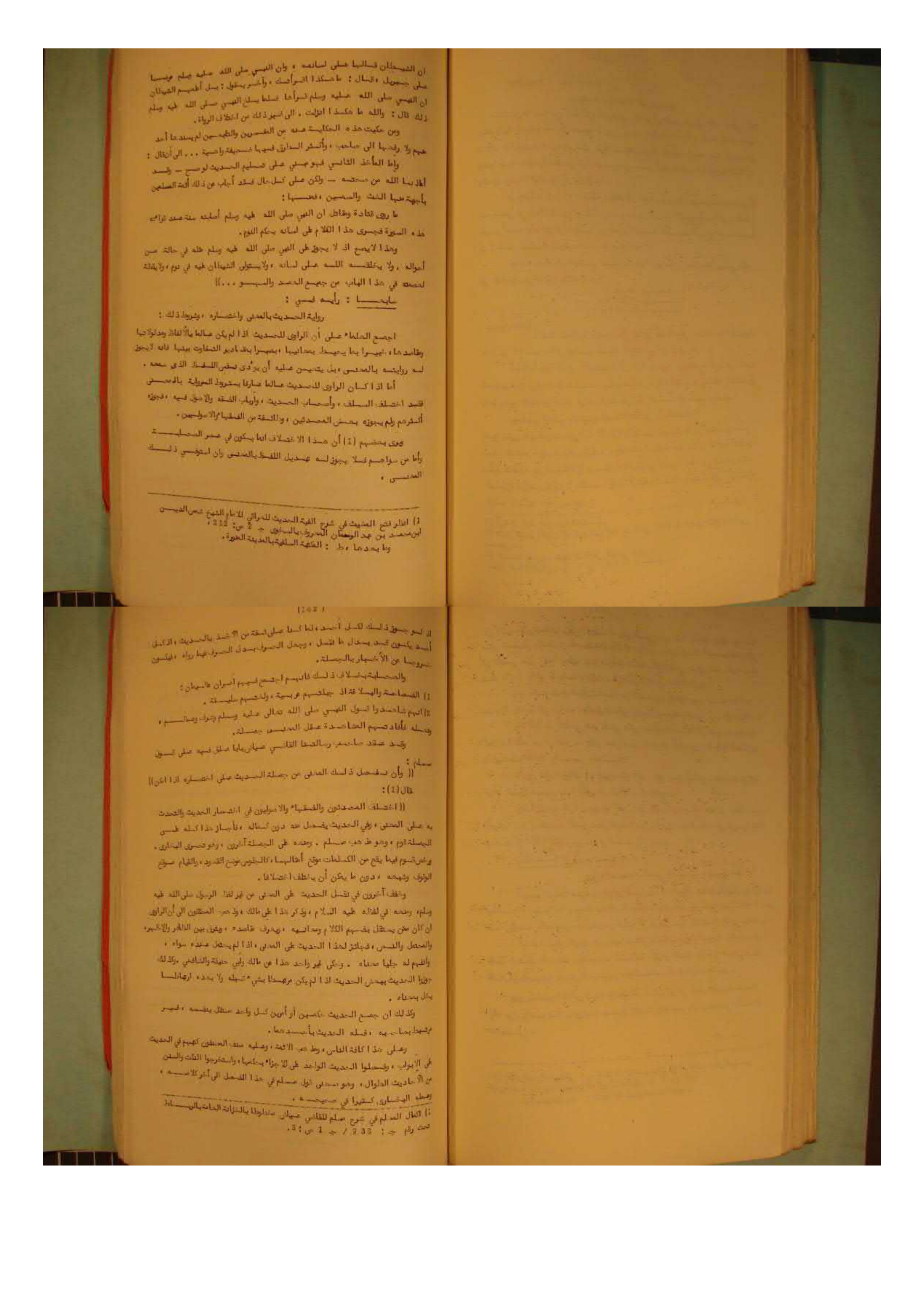
((فاعلم أكرمك الله ، أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما في توهين أصله ، والثاني على تسليمه — ...

أما المأخذ الأول : فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال :

لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير ، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته فقائل يقول : إنه في الصلاة وآخر يقول : قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها ، وآخر يقول :

1) آية : 19 من سورة النجم
2) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج 3 ص 249 ط إحياء التراث العربي بيروت .
3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، تحقيق أسامة الرفاعي ج 2 ص 283 ط دمشق .



ان الشيطان قالها على لسانه ، وان النبي صلى الله عليه وسلم مر بها على جبريل ، فقال : ما هكذا اقرأتك ، وأخرى يقول : بل أطعمهم الشيطان ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأها فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ما هكذا انزلت . الى غير ذلك من اختلاف الرواة .

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها الى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية . . . الى أن قال :

واما المأخذ الثاني فهو مبني على تسليم الحديث لو صح — وقد أعاذنا الله من صحته — ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين ، فمنها :

ما روى قتادة ومقاتل ان النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءة هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم .

وهذا لايصح اذ لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم مثله في حالة من أحواله ، ولا يخلقه الله على لسانه ، ولايستولي الشيطان عليه في نوم ، ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو . . .))

سابعـــا : رأيه في :

رواية الحديث بالمعنى واختصاره ، وشروط ذلك :

اجمع العلماء على أن الراوي للحديث اذا لم يكن عالما بالألفاظ ومدلولاتها ومقاصدها ، خبيرا بما يحيط بمعانيها ، بصيرا بمقادير التفاوت بينها فانه لايجوز له روايته بالمعنى ، بل يتعين عليه أن يؤدي نفس اللفظ الذي سمعه .

أما اذا كان الراوي للحديث عالما عارفا بشروط الرواية بالمعنى فقد اختلف السلف ، وأصحاب الحديث ، وأرباب الفقه والأصول فيه ، فجوزه أكثرهم ولم يجوزه بعض المحدثين ، وطائفة من الفقهاء والاصوليين .

وحكى بعضهم (1) أن هذا الاختلاف انما يكون في عصر الصحابة وأما من سواهم فلا يجوز له تبديل اللفظ بالمعنى وان استوفى ذلك المعنى .

---

1) انظر فتح المغيث في شرح ألفية الحديث للعراقي للامام الشيخ شمس الدين ابن محمد بن عبد الرحمن السخاوي المعروف بالسخاوي ج 2 ص: 212 ، وما بعدها ، ط : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

(242)

اذ لم يجوز ذلك لكل أحد ، لما كنا على ثقة من الأخذ بالحديث ، اذ كل أحد يكون قد بدل ما نقل ، وجعل الحرف بدل الحرف فيما رواه ، فيكون خروجا عن الأخبار بالجملة .

والصحابة بخلاف ذلك فانهم اجتمع فيهم أمران عظيمان :

1) الفصاحة والبلاغة اذ جبلتهم عربية ، ولغتهم سليقة .

2) انهم شاهدوا قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفعله وأحواله ، فأفادتهم المشاهدة عقل المعنى جملة .

وقد عقد صاحب رسالتنا القاضي عياض بابا علق فيه على قول مسلم :

((وأن نفصل ذلك المعنى من جملة الحديث على اختصاره اذا امكن))

قال (1) :

((اختلف المحدثون والفقهاء والاصوليون في اختصار الحديث والتحدث به على المعنى ، وفي الحديث يفصل منه دون كماله ، فأجاز هذا كله على الجملة قوم ، وهو مذهب مسلم . ومنعه على الجملة آخرون ، وهو منحى البخاري . ومنع قوم فيما يقع من الكلمات موقع أمثالها ، كالجلوس موضع القعود ، والقيام موضع الوقوف ونحوها ، دون ما يمكن أن يختلف اختلافا .

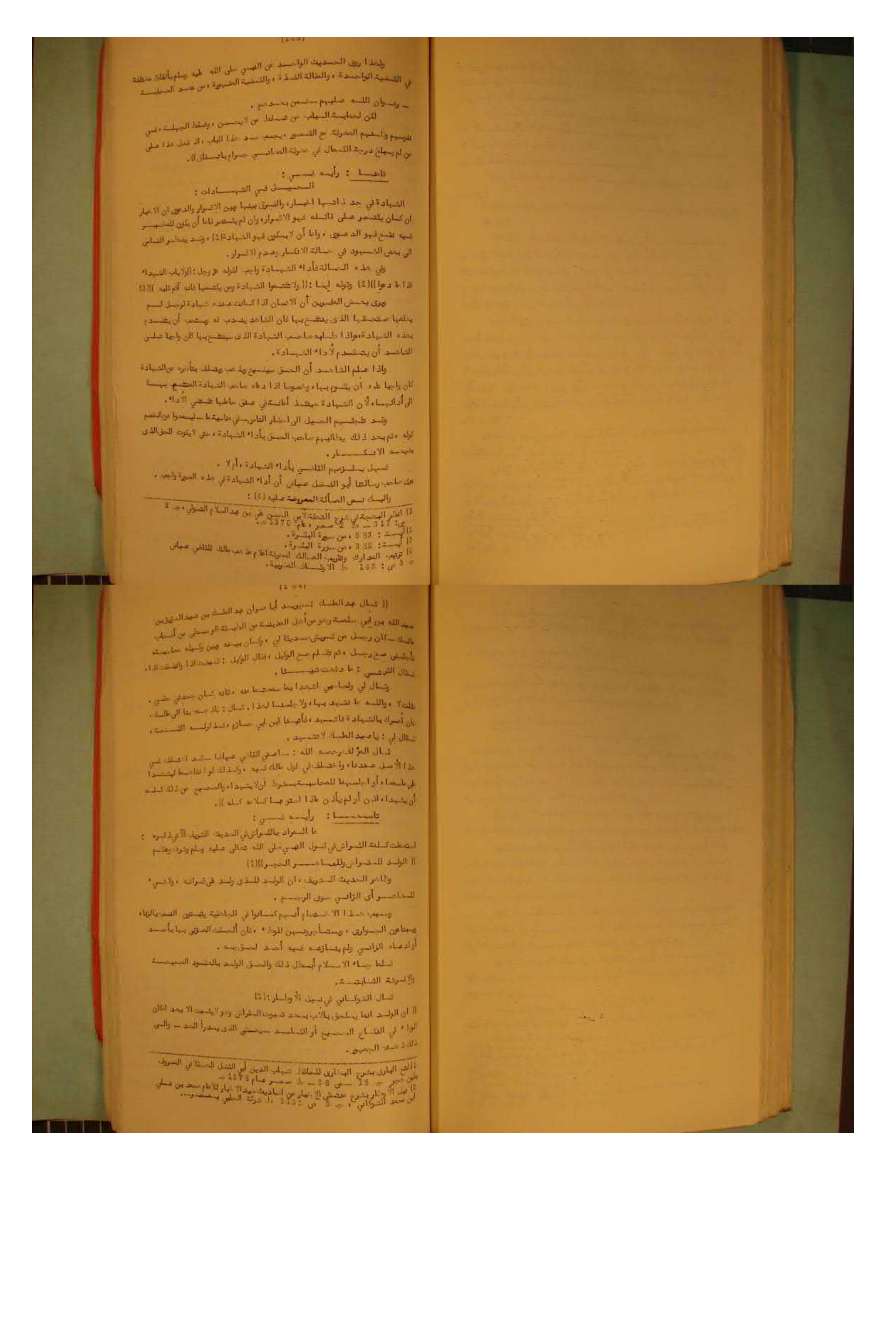
ومنع آخرون في نقل الحديث على المعنى من غير لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنعه في لفظه عليه السلام ، وذكر هذا عن مالك ، وذهب المحققون الى أن الراوي ان كان ممن يستقل بفهم الكلام ومعانيه ، ويعرف مقاصده ، ويفرق بين الظاهر والأظهر ، والمحتمل والنص ، فجائز له هذا الحديث على المعنى ، اذا لم يحتمل عنده سواه ، والفهم له جليا معناه . وحكى غير واحد هذا عن مالك وأبي حنيفة والشافعي ، وكذلك جوزوا الحديث ببعض الحديث اذا لم يكن مرتبطا بشيء قبله ولا بعده ارتباطا يخل بمعناه .

وكذلك ان جمع الحديث معنيين أو أمرين كل واحد مستقل بنفسه ، غير مرتبط بصاحبه ، فله الحديث بأحدهما .

وعلى هذا كافة الناس ، ومذهب الأئمة ، وعليه صنف المصنفون كتبهم في الحديث على الأبواب ، وفصلوا الحديث الواحد على الأجزاء بحكمها ، واستخرجوا النكت والسنن من الأحاديث الطوال ، وهو معنى قول مسلم في هذا الفصل الى آخر كلامه ، وفعله البخاري كثيرا في صحيحه .

---

1) اكمال المعلم في شرح مسلم للقاضي عياض مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج : 233 / ج 1 ص : 5 .



ولهذا روى الحديث الواحد عن النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختلفة في القضية الواحدة ، والمقالة الفذة ، والقضية المشهورة ، من عدد الصحابة — رضوان الله عليهم — ومن بعدهم .

لكن لحماية الباب من تسلط من لا يحسن ، وتسلط الجهلة ، ممن لم يبلغ درجة الكمال في معرفة المعاني حرام بالاتفاق)) .

ثامنا : رأيه في :

التحيل في الشهادات :

الشهادة في حد ذاتها اخبار ، والفرق بينها بين الاقرار والدعوى ان الاخبار ان كان يقتصر على قائله فهو الاقرار ، وان لم يقتصر فاما أن يكون للمخبر فيه نفع فهو الدعوى ، واما أن لا يكون فهو الشهادة (١) ، وقد يضطر الناس الى بخس الشهود في حالة الانكار بعدم الاقرار .

وفي هذه الحالة فأداء الشهادة واجب لقوله عز وجل : ((ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا)) (٢) وقوله أيضا : ((ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه)) (٣)

ويرى بعض المفسرين أن الانسان اذا كانت عنده شهادة لرجل لم يعلمها مستحقها الذي ينتفع بها فان الشاهد يندب له ويستحب أن يتقدم بهذه الشهادة ، واذا طلبه صاحب الشهادة الذي سينتفع بها كان واجبا على الشاهد أن يتقدم لأداء الشهادة .

واذا علم الشاهد أن الحق سيضيع ويذهب ويهلك بتأخره عن الشهادة كان واجبا عليه أن يقوم بها ، وخصوصا اذا دعاه صاحب الشهادة المنتفع بها الى أدائها ، لأن الشهادة حينئذ أمانة في عنق حاملها تقتضي الأداء .

وقد طلب منهم الحيل الى اخبار الناس في قضية ما — ليشهدوا من الخصم قوله ، ثم بعد ذلك يطالبهم صاحب الحق بأداء الشهادة ، حتى لا يفوت الحق الذي يجحده الانكار .

فهل يلزمهم القاضي بأداء الشهادة ، أم لا .

عند صاحب رسالتنا أبو الفضل عياض أن أداء الشهادة في هذه الصورة واجب .

واليك نص المسألة المعروضة عليه (٤) :

---

١) انظر البهجة في شرح التحفة لأبي الحسن علي بن عبد السلام التسولي ، ج ٤ ص : ٣١٧ — ط ٢ مصر ، عام ١٣٧٠ هـ .
٢) آية : ٢٨٢ ، من سورة البقرة .
٣) آية : ٢٨٣ ، من سورة البقرة .
٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ج ٣ ص : ١٤٣ ط الأوقاف المغربية .

((قال عبد الملك : سمعت أبا مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة وهو من أهل المدينة من الداخلة الواصلين من أصحاب مالك — كان رجل من قريش صديقا لي ، وكان بينه وبين رجل منازعة ، فأجلسني مع رجل ، ثم تكلم مع الوكيل ، فقال الوكيل : تنحيت كذا وأنفقت كذا ، فقال القرشي : ما دفعت شيئا .

وقال لي ولصاحبي اشهدا بما سمعتما منه ، فانه كان يجحدني حقي .

فقلت لا ، والله ما نشهد بها ، ولا جلسنا لهذا . فقال : فاذهب بنا الى مالك .

فان أمرك بالشهادة فاشهد ، فأتينا ابن أبي حازم ، فذكرنا له القصة ، فقال لي : يا عبد الملك لا تشهد .

قال المؤلف رحمه الله : ... القاضي عياض ... اختلف في هذا الأصل عندنا ، واختلف في قول مالك فيه ، وكذلك لو أقامهما ليشهدا على شيء ، أو أجلسهما للمحاسبة بشرط أن لا يشهدا ، والصحيح من ذلك كله أن يشهدا ، اذن أو لم يأذن اذا استوعبا كلامه كله)) .

تاسعا : رأيه في :

ما المراد بالفراش في الحديث الشريف الآتي ذكره :

استعملت كلمة الفراش في قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وعظم ((الولد للفراش وللعاهر الحجر)) (١)

وظاهر الحديث الشريف ، ان الولد للذي ولد على فراشه ، ولا شيء للعاهر أي الزاني سوى الرجم .

وسبب هذا الاختصام أنهم كانوا في الجاهلية يقتنون الجواري ، ويستأجرونهن للزنا ، فان ألحقت الجارية الولد بأحد أو ادعاه الزاني ولم ينازعه فيه أحد لحق به .

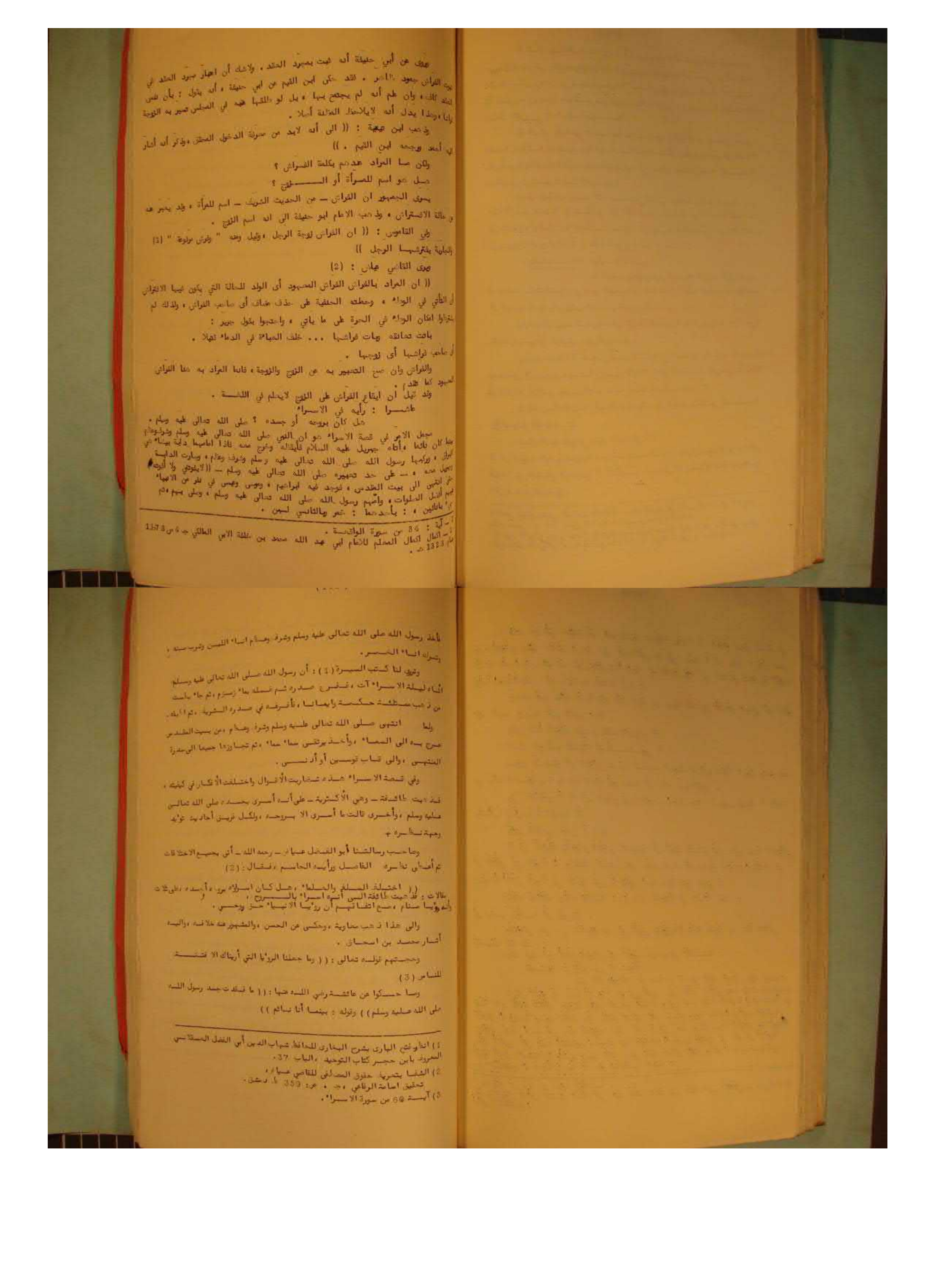
فلما جاء الاسلام أبطل ذلك وألحق الولد بالعقود الصحيحة والأنكحة الشرعية الثابتة .

قال الشوكاني في نيل الأوطار : (٢)

((ان الولد انما يلحق بالأب بعد ثبوت الفراش وهو لا يثبت الا بعد امكان الوطء في النكاح الصحيح أو الفاسد ... الذي يدرأ الحد — والى ذلك ذهب الجمهور .

---

١) فتح الباري بشرح البخاري للحافظ شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني المعروف بابن حجر ج ١٥ ص ٢٨ — ط مصر عام ١٣٧٨ هـ .
٢) نيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للامام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ج ٦ ص : ٣١٣ ط شركة الحلبي بمصر .



حكى عن أبي حنيفة أنه ثبت بمجرد العقد . ولاشك أن اعتبار مجرد العقد في ثبوت الفراش جمود [illegible] . فقد حكى ابن القيم عن ابي حنيفة ، أنه يقول : بأن ثمن العقد كاف ، وان علم أنه لم يجتمع بها ، بل لو طلقها عقبه في المجلس تصير به الزوجة رائفا ، وهذا يدل أنه لايلاحظ العادة أصلا .

وذهب ابن تيمية : ((الى أنه لابد من معرفة الدخول المحقق ، وذكر أنه أشار الى أحمد ووجهه ابن القيم .))

ولكن ما المراد عندهم بكلمة الفراش ؟

هل هو اسم للمرأة أو الزوج ؟

يرى الجمهور ان الفراش — من الحديث الشريف — اسم للمرأة ، وقد يعبر به عن حالة الافتراش ، وذهب الامام ابو حنيفة الى انه اسم الزوج .

وفي القاموس : ((ان الفراش زوجة الرجل ، وقيل ومنه " وفرش مرفوعة " (1) والجارية يفترشها الرجل))

ويرى القاضي عياض : (2)

((ان المراد بالفراش الفراش المعهود أى الولد للحالة التي يكون فيها الافتراش أو الطاري في الوطء ، وحمله الحنفية على حذف مضاف أى صاحب الفراش ، ولذلك لم يشترطوا امكان الوطء في الحرة على ما يأتي ، واحتجوا بقول جرير :

باتت تعانقه وبات فراشها ... خلف المباءة في الدماء قتيلا .

أى صاحب فراشها أى زوجها .

والفراش وان صح التعبير به عن الزوج والزوجة ، فانما المراد به هنا الفراش المعهود كما تقدم .

وقد قيل أن ايقاع الفراش على الزوج لايعلم في اللغة .

عاشرا : رأيه في الاسراء

هل كان بروحه أو جسده ؟ صلى الله تعالى عليه وسلم .

مجمل الامر في قصة الاسراء هو ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم بينما كان نائما ، أتاه جبريل عليه السلام فأيقظه وخرج معه فاذا امامهما دابة بيضاء هي البراق ، فركبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم ، وسارت الدابة وجبريل معه ، — على حد تعبيره صلى الله تعالى عليه وسلم — ((لايلوي ولا أثره)) حتى انتهى الى بيت المقدس ، فوجد فيه ابراهيم ، وموسى وعيسى في نفر من الانبياء فجمع لأفضل الصلوات ، وأمهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصلى بهم ، ثم أتي بانائين ، : بأحدهما : خمر وبالثاني لبن .

---

1 — آية : 34 من سورة الواقعة .

2 — اكمال اكمال المعلم للامام ابي عبد الله محمد بن خلفة الابي المالكي ج 4 ص 1373 عام 1323 هـ .

فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم اناء اللبن وشرب منه ، وترك اناء الخمر .

وتروي لنا كتب السيرة (1) : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أثناء ليلة الاسراء آت ، فشق صدره ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئة حكمة وايمانا ، فأفرغه في صدره الشريف ، ثم أطبقه .

ولما انتهى صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم من بيت المقدس عرج به الى السماء ، وأخذ يرتقي سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعا الى سدرة المنتهى ، والى قاب قوسين أو أدنى .

وفي قصة الاسراء هذه تضاربت الأقوال واختلفت الأفكار في كيفيته ، فذهبت طائفة — وهي الأكثرية — على أنه أسرى بجسده صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخرى قالت ما أسرى الا بروحه ، ولكل فريق أحاديث تؤيد وجهة نظره .

وصاحب رسالتنا أبو الفضل عياض — رحمه الله — أتى بجميع الاختلافات ثم أعطى نظره الفاصل ورأيه الحاسم ، فقال : (2)

((اختلف السلف والعلماء ، هل كان اسراؤه بروحه أو جسده ، على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة الى أنه اسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الانبياء حق ووحي .

والى هذا ذهب معاوية ، وحكى عن الحسن ، والمشهور عنه خلافه ، واليه أشار محمد بن اسحاق .

وحجتهم قوله تعالى : ((وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس (3)

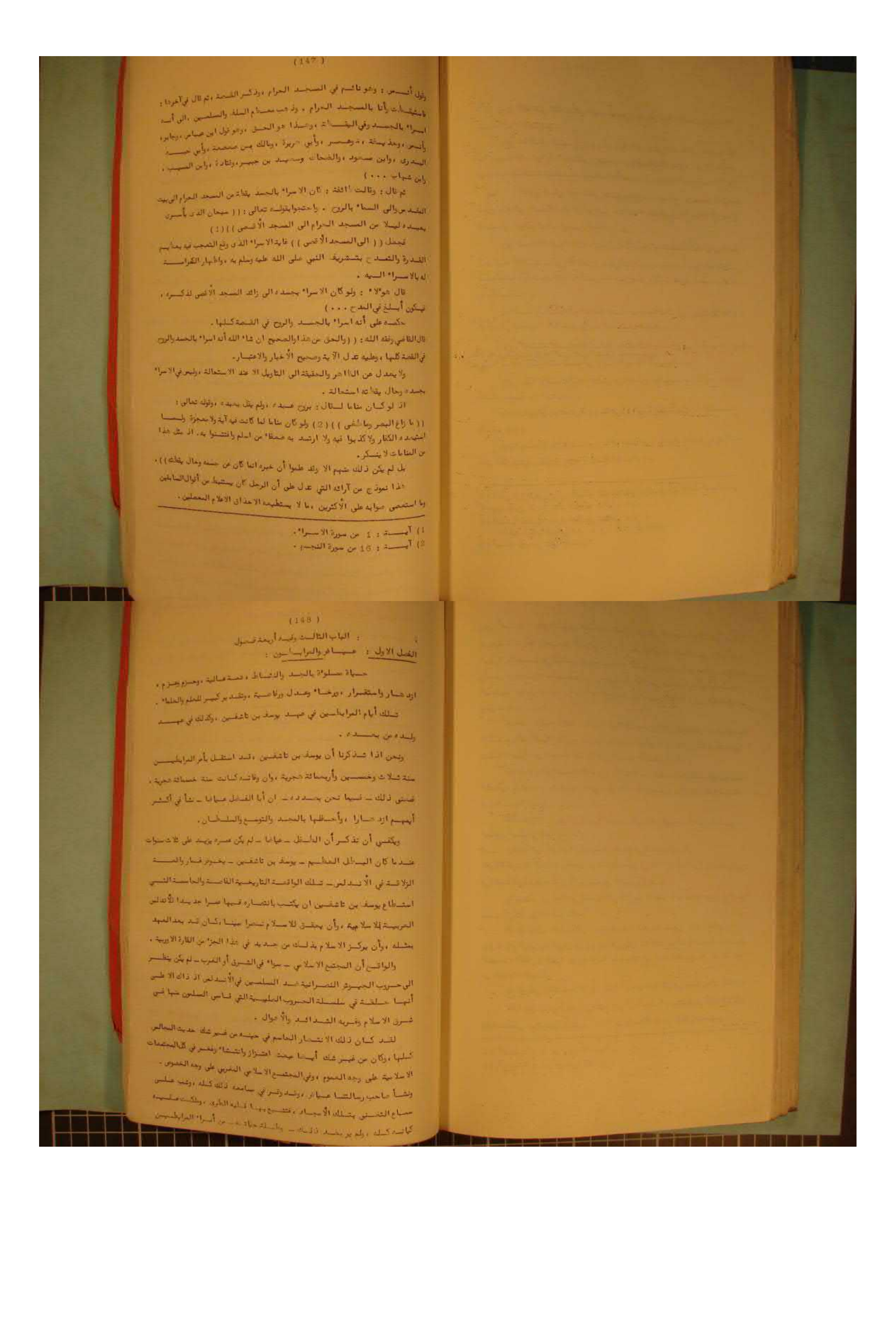
وما حكوا عن عائشة رضي الله عنها : ((ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم)) وقوله : بينما أنا نائم))

---

1) انظر فتح البارى بشرح البخارى للحافظ شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني المعروف بابن حجر كتاب التوحيد ، الباب 37 .

2) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، تحقيق اسامة الرفاعي ، ج 1 ، ص 359 ط دمشق .

3) آية 60 من سورة الاسراء .



وقول أنس : وهو نائم في المسجد الحرام ، وذكر القصة ، ثم قال في آخرها : فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام . وذهب معظم السلف والمسلمين ، الى أنه اسراء بالجسد وفي اليقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبي هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبي حبة البدري ، وابن مسعود ، والضحاك وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب . . .)

ثم قال : وقالت الثقة : كان الاسراء بالجسد يقظة من المسجد الحرام الى بيت المقدس والى السماء بالروح . واحتجوا بقوله تعالى : ((سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى)) (1)

فجعل ((الى المسجد الأقصى)) غاية الاسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي صلى الله عليه وسلم به ، واظهار الكرامة له بالاسراء اليه .

قال هؤلاء : ولو كان الاسراء بجسده الى زائد المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ في المدح . . .)

حكمه على أنه اسراء بالجسد والروح في القصة كلها .

قال القاضي وفقه الله : ((والحق من هذا والصحيح ان شاء الله أنه اسراء بالجسد والروح في القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار .

ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة الى التأويل الا عند الاستحالة ، وليس في الاسراء بجسده وحال يقظته استحالة .

اذ لو كان مناما لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى : ((ما زاغ البصر وما طغى)) (2) ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار ولا كذبوا فيه ولا ارتد به ضعفاء من اسلم وافتتنوا به ، اذ مثل هذا من المنامات لا ينكر .

بل لم يكن ذلك منهم الا وقد علموا أن خبره انما كان عن جسمه وحال يقظته)) .

هذا نموذج من آرائه التي تدل على أن الرجل كان يستنبط من أقوال السابقين ما استحصى صوابه على الأكثرين ، ما لا يستطيعه الا حذاق الاعلام المحصلين .

---

1) آيــة : 1 من سورة الاسراء .
2) آيــة : 16 من سورة النجم .

الباب الثالث وفيه أربعة فصول :

الفصل الاول : عياض والمرابطون :

حياة مملوءة بالجد والنشاط ، وهمة عالية ، وحزم وعزم ، وازدهار واستقرار ، ورخاء وعدل ورفاهية ، وتقدير كبير للعلم والعلماء .

تلك أيام المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين ، وكذلك في عهد ولده من بعده .

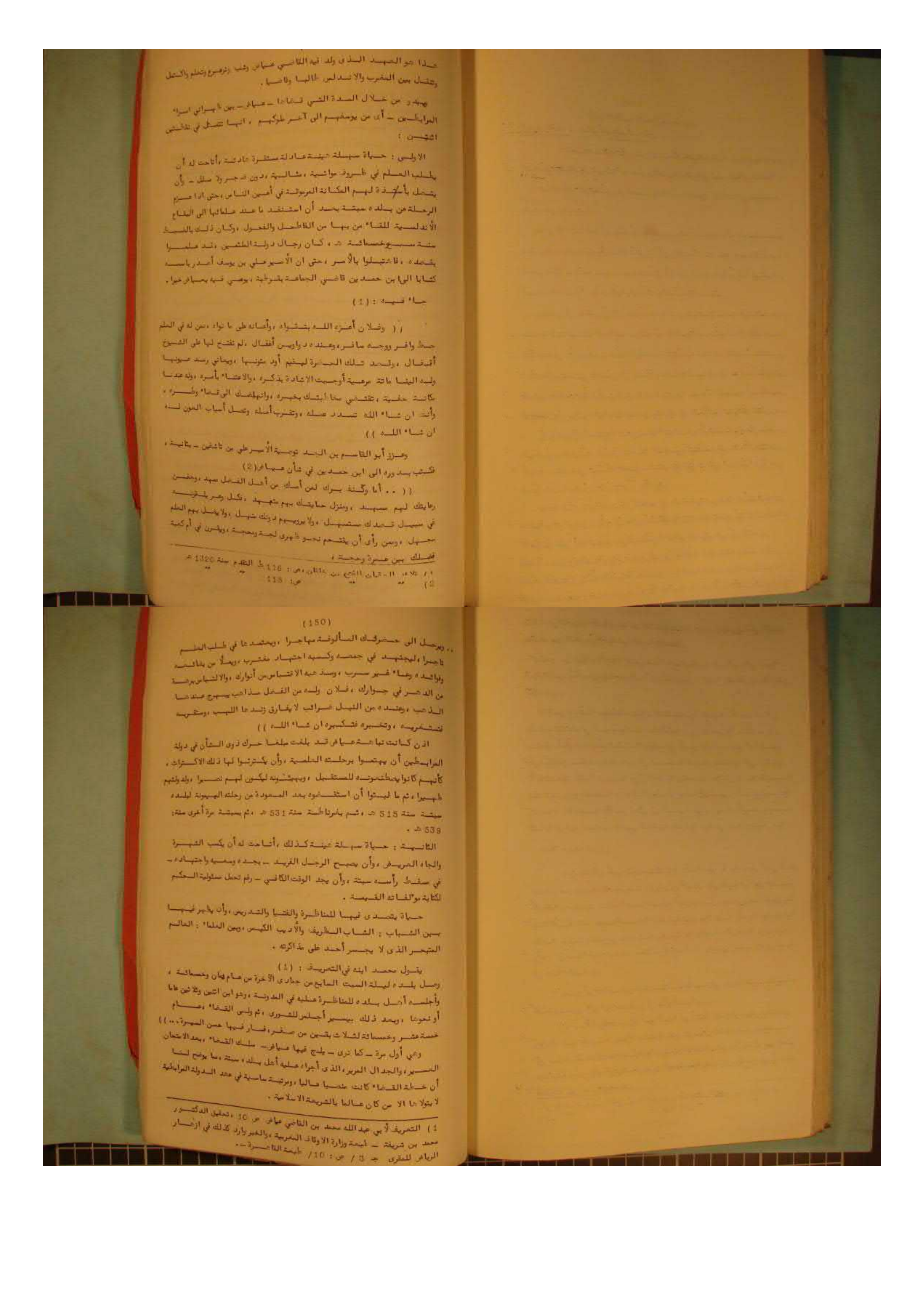
ونحن اذا تذكرنا أن يوسف بن تاشفين ، قد استقل بأمر المرابطين سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية ، وان وفاته كانت سنة خمسمائة هجرية ، فمعنى ذلك ـ فيما نحن بصدده ـ ان أبا الفضل عياضا ـ نشأ في أكثر أيامهم ازدهارا ، وأحفلها بالمجد والتوسع والسلطان .

ويكفي أن تذكر أن الناشئ ـ عياضا ـ لم يكن عمره يزيد على ثلاث سنوات عندما كان البطل العظيم ـ يوسف بن تاشفين ـ يخوض غمار واقعة الزلاقة في الأندلس ـ تلك الواقعة التاريخية الفاصلة والحاسمة التي استطاع يوسف بن تاشفين ان يكتب بانتصاره فيها عمرا جديدا للأندلس العربية الاسلامية ، وأن يحقق للاسلام نصرا مبينا ، كان قد بعد العهد بمثله ، وأن يركز الاسلام بذلك من جديد في هذا الجزء من القارة الاوربية .

والواقع أن المجتمع الاسلامي ـ سواء في الشرق أو الغرب ـ لم يكن ينظر الى حروب الجيوش النصرانية ضد المسلمين في الأندلس اذ ذاك الا على أنها حلقة في سلسلة الحروب الصليبية التي قاسى المسلمون منها في شرق الاسلام وغربه الشدائد والأهوال .

لقد كان ذلك الانتصار الحاسم في حينه من غير شك حديث المجالس كلها ، وكان من غير شك أيضا مبعث اهتزاز وانتشاء وفخر في كل المجتمعات الاسلامية على وجه العموم ، وفي المجتمع الاسلامي المغربي على وجه الخصوص .

ونشأ صاحب رسالتنا عياض ، وقد وقر في سامعه ذلك كله ، ونشب على صباح التغني بتلك الأمجاد ، فتفتح وعيه [illegible] ، وملكت عليه كيانه كله ، ولم ير بعد ذلك ـ [illegible] من أمراء المرابطين



هذا هو العهد الذي ولد فيه القاضي عياض وشب وترعرع وتعلم واشتغل وتنقل بين المغرب والاندلس طالبا وقاضيا .

ويبدو من خلال المدة التي قضاها – عياض – بين ظهراني امراء المرابطين – أي من يوسفهم الى آخر ملوكهم ، انها تتمثل في نقطتين اثنتين :

الاولى : حياة سهلة هينة عادلة مستقرة هادئة ، أتاحت له أن يطلب العلم في ظروف مواتية ، مثالية ، دون ضجر ولا ملل – وأن يتصل بأساتذة لهم المكانة المرموقة في أعين الناس ، حتى اذا عزم الرحلة عن بلده سبتة بعد أن استنفد ما عند علمائها الى البقاع الأندلسية للقاء من بها من الفطاحل والفحول ، وكان ذلك بالضبط سنة سبع وخمسمائة هـ ، كان رجال دولة الملثمين قد علموا بقصده ، فاحتفلوا بالأمر ، حتى ان الأمير علي بن يوسف أصدر باسمه كتابا الى ابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة ، يوصي فيه بعياض خيرا .

جاء فيه : (1)

((وفلان أعزه الله بتقواه ، وأعانه على ما نواه ، ممن له في العلم حظ وافر ووجه سافر ، وعنده دواوين أغفال ، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال ، وقصد تلك الحضرة ليحكم أود متونها ، ويحاني رمد عيونها ولديها ماتة مرعية أوجبت الاشادة بذكره ، والاعتناء بأمره ، وله عندنا مكانة حفية ، تقتضي محاباتك بخبره ، وانهاضك الى قضاء وطره ، وأنت ان شاء الله تسدد عمله ، وتقرب أمله وتصل أسباب العون لديه ان شاء الله))

وعزز أبو القاسم بن الجد توصية الأمير علي بن تاشفين – بثانية ، فكتب بدوره الى ابن حمدين في شأن عياض (2)

((.. أما وكتبة يسرك لمن أمك من أهل الفضل معهد ، وحفظ رعايتك لهم مشهد ، ومنزل حمايتك بهم متعهد ، فكل وجهٍ يلقونه في سبيل قصدك مستسهل ، ولا يعوزهم دونك منهل ، ولا يجهل بهم العلم مجهل ، ومن رأى أن يقتحم نحو ظهرى لجة وبحجة ، ويقرن في أم كمية فضلك بين عمرة وحجة ،

1) [illegible] ص : 116 ط التقدم سنة 1320 هـ
2) " " " ص : 115

(150)

.. ويرحل الى حضرتك المألوفة مهاجرا ، ويعتمدها في طلب العلم تاجرا ، ليجتهد في جمعه وكسبه اجتهاد مغترب ، ويملأ من بضائعه وفوائده وعاء غير سرب ، ويسد عنه الاقتباس من أنوارك ، والالتماس برقة من الدهر في جوارك ، فلان ولده من الفضل مذاهب يبهج عندها الذهب ، وعنده من النبل ضرائب لا يفارق زندها اللهب ، وتعرفه فتشكرونه ، وتخبره فتشكره ان شاء الله))

اذن كانت نباهة عياض قد بلغت ملغا حرك ذوي الشأن في دولة المرابطين أن يهتموا برحلته العلمية ، وأن يكترثوا لها ذلك الاكتراث ، كأنهم كانوا يصطنعونه للمستقبل ، ويهيئونه ليكون لهم نصيرا ، ولدولتهم ظهيرا ، ثم ما لبثوا أن استقضوه بعد العودة من رحلته الميمونة لبلده سبتة سنة 515 هـ ، ثم بغرناطة سنة 531 هـ ، ثم بسبتة مرة أخرى سنة 539 هـ .

الثانية : حياة سهلة هينة كذلك ، أتاحت له أن يكسب الشهرة والجاه العريض ، وأن يصبح الرجل الفريد – بجده وسعيه واجتهاده – في مسقط رأسه سبتة ، وأن يجد الوقت الكافي – رغم تحمل مسئولية الحكم لكتابة مؤلفاته القيمة .

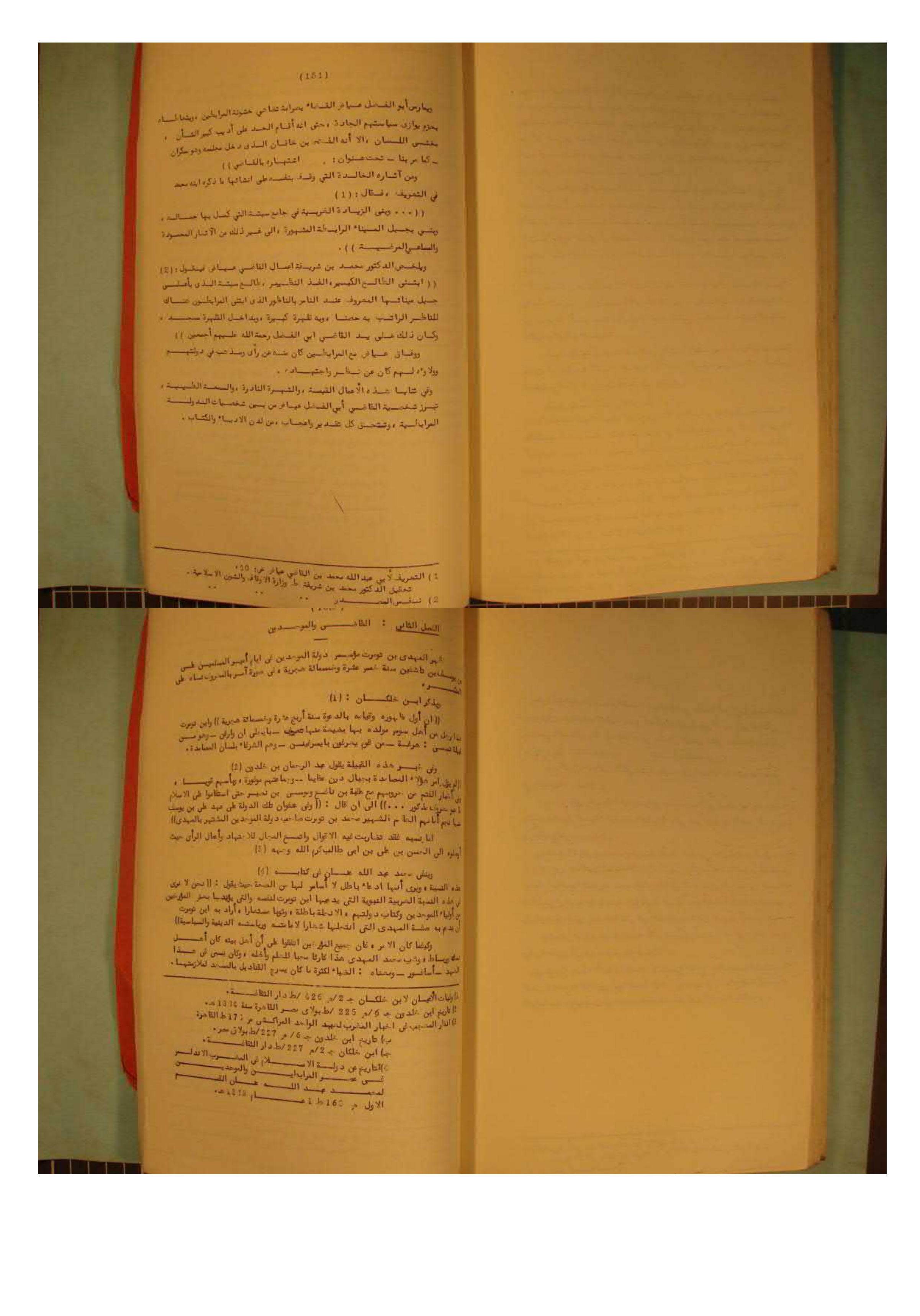
حياة يتصدى فيها للمناظرة والفتيا والتدريس ، وأن يظهر فيها بين الشباب : الشاب الظريف والأديب الكيس ، وبين العلماء : العالم المتبحر الذي لا يجسر أحد على مذاكرته .

يقول محمد ابنه في التعريف : (1)

وصل بلده ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة من عام ثمان وخمسمائة ، وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدونة ، وهو ابن اثنين وثلاثين عاما أو نحوها ، وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى ، ثم ولي القضاء عام خمسة عشر وخمسمائة لثلاث بقين من صفر ، فسار فيها أحسن السيرة ..))

وهي أول مرة – كما نرى – يلج فيها عياض – سلك القضاء ، بعد الامتحان العسير ، والجدال المرير ، الذي أجراه عليه أهل بلده سبتة ، مما يوضح لنا أن خطة القضاء كانت منصبا عاليا ، ومرتبة سامية في عهد الدولة المرابطية لا يتولاها الا من كان عالما بالشريعة الاسلامية .

1) التعريف لأبي عبد الله محمد بن القاضي عياض ص 10 ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة – طبعة وزارة الاوقاف المغربية ، والخبر أورد كذلك في أزهار الرياض للمقري جـ 3 / ص : 10 / طبعة القاهرة ..



يمارس أبو الفضل عياض القضاء بصرامة تتحاشى خشونة المرابطين ، ويشاطرهم بحزم يوازي سياستهم الجادة ، حتى انه أقام الحد على أديب كبير الشأن ، مخشى اللسان ، الا أنه الفتح بن خاقان الذي دخل مجلسه وهو سكران - كما مر بنا - تحت عنوان : . اشتهاره بالقاضي))

ومن آثاره الخالدة التي وقف بنفسه على انشائها ما ذكره ابنه محمد في التعريف ، فقال : (1)

((. . . وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها حسالة ، وبنى بجبل الميناء الرابطة المشهورة ، الى غير ذلك من الآثار المحمودة والمساعي المرضية)) .

ويلخص الدكتور محمد بن شريفة اعمال القاضي عياض فيقول : (2)

((ابتنى الطالع الكبير، الفذ التأثير ، طالع سبتة الذي بأعلى جبل مينائها المعروف عند الناس بالناظور الذي ابتنى المرابطون هنالك للناظر الراتب به حصنا ، وبه تلبرة كبيرة ، وبداخل الظهرة مسجد ، وكان ذلك على يد القاضي ابي الفضل رحمة الله عليهم أجمعين))

ووفاق عياض مع المرابطين كان منشأه عن رأي ومذهب في دولتهم وولاء لهم كان عن نظر واجتهاد .

وفي ثنايا هذه الأعمال القيمة ، والشهرة النادرة ، والسمعة الطيبة ، تبرز شخصية القاضي أبي الفضل عياض من بين شخصيات الدولة المرابطية ، وتستحق كل تقدير واعجاب ، من لدن الادباء والكتاب .

---

1) التعريف لأبي عبدالله محمد بن القاضي عياض ص: 10 .
تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية .
2) نفس المصدر .. .. ..

الفصل الثاني : القاضي والموحدين

المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين في ايام أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة خمس عشرة وخمسمائة هجرية ، في ثورة أسس بالمغرب بناء على ...

ويذكر ابن خلكان : (1)

((ان أول ظهوره وقيامه بالدعوة سنة أربع عشرة وخمسمائة هجرية)) وابن تومرت ... رجل من أهل سوس مولده بها بضيعة منها ... على ان وارثن ... وهو من هرغة ... من قوم يعرفون بايسرغين ... وهم الشرفاء بلسان المصامدة .

وفي ... هذه القبيلة يقول عبد الرحمان بن خلدون (2)

الرجل امر هؤلاء المصامدة بجبال درن ... وجماعتهم موفورة ، وبأسهم ... ، وفي أخبار الفتح من حروبهم مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الاسلام ... مذكور . . .)) الى ان قال : ((وفي عنفوان تلك الدولة على عهد علي بن يوسف ... نجم أمامهم الناجم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين الشهير بالمهدي))

اما نسبه فقد تضاربت فيه الاقوال واتسع المجال للاجتهاد وأعمال الرأي حيث أوصلوه الى الحسن بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه (3)

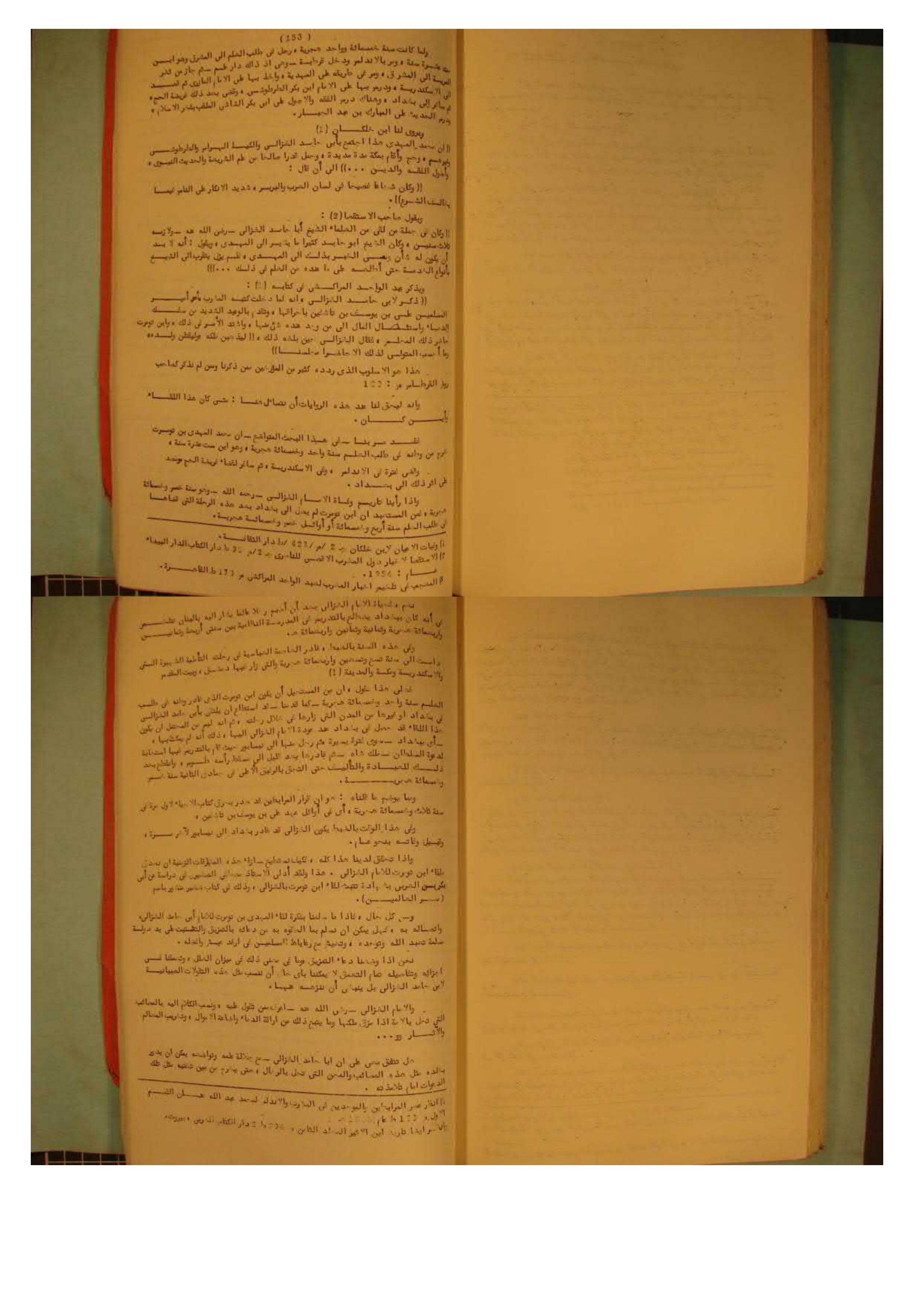
وينفي محمد عبد الله عنان في كتابه (4)

هذه النسبة ، ويرى أنها ادعاء باطل لا أساس لها من الصحة حيث يقول : ((نحن لا نرى في هذه النسبة الشريفة النبوية التي يدعيها ابن تومرت لنفسه والتي يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم ، الا نحلة باطلة ، وثوبا مستعارا ، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدي التي انتحلها شعارا لامامته ورياسته الدينية والسياسية))

وكيفما كان الامر ، فان جميع المؤرخين اتفقوا على أن أهل بيته كان أهل ... ورباط ، وشب محمد المهدي هذا قارئا محبا للعلم وأهله ، وكان يسمى في صغره ... أسافو ... ومعناه : الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمسجد لملازمتها .

---

1) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ 2/ص 426 /ط دار الثقافة .
2) تاريخ ابن خلدون جـ 6/ص 225 /ط بولاق بمصر القاهرة سنة 1314 هـ .
3) المعجب في اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص : 172 ط القاهرة
ب) تاريخ ابن خلدون جـ 6/ ص 227 /ط بولاق مصر .
جـ) ابن خلكان جـ 2/ص 227 /ط دار الثقافة .
4) التاريخ عن دولة الاسلام في المغرب الاندلس في عصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان القسم الاول ص 160 ط 1 عام 1384 هـ .



ولما كانت سنة خمسمائة وواحد هجرية ، رحل في طلب العلم الى المشرق وهو ابن ست عشرة سنة ، ومر بالاندلس ودخل قرطبة وهي اذ ذاك دار علم ثم جاز من ثغر المرية الى المشرق ، ومر في طريقه على المهدية ، واخذ بها على الامام المازري ثم قصد الى الاسكندرية ، ودرس بها على الامام ابي بكر الطرطوشي ، وقضى بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سار الى بغداد ، وهناك درس الفقه والاصول على ابي بكر الشاشي الملقب بفخر الاسلام ، ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار .

ويروي لنا ابن خلكان (1)

((ان محمد المهدي هذا اجتمع بأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والطرطوشي وغيرهم ، وحج وأقام بمكة مدة مديدة ، وحصل قدرا صالحا من علم الشريعة والحديث النبوي ، وأصول الفقه والدين ...)) الى أن قال :

((وكان شجاعا فصيحا في لسان العرب والبربر ، شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع)) .

ويقول صاحب الاستقصا (2) :

((وكان في جملة من لقي من العلماء الشيخ أبا حامد الغزالي — رضي الله عنه — ولازمه ثلاث سنين ، وكان الشيخ ابو حامد كثيرا ما ينظر الى المهدي ، ويقول : أنه لا بد أن يكون له شأن ونمى الخبر بذلك الى المهدي ، فلم يزل يتقرب الى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم في ذلك ...))

ويذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه (3) :

((ذكروا لابي حامد الغزالي ، انه لما دخلت كتبه المغرب أمر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين باحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدماء واستئصال المال الى من وجد عنده شيئا ، واشتد الأمر في ذلك ، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس ، فقال الغزالي حين بلغه ذلك : ((ليذهبن ملكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك الا حاضرا مجلسنا))

هذا هو الاسلوب الذي ردده كثير من المؤرخين ممن ذكرنا وممن لم نذكر كصاحب روض القرطاس ص : 100

وانه ليحق لنا بعد هذه الروايات أن نتساءل هنا : متى كان هذا اللقاء وأين كان .

لقد عرفنا — في هذا البحث المتواضع — ان محمد المهدي بن تومرت خرج من وطنه في طلب العلم سنة واحد وخمسمائة هجرية ، وهو ابن ست عشرة سنة ،

وقضى فترة في الاندلس ، وفي الاسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج وبعد على اثر ذلك الى بغداد .

واذا رأينا تاريخ وفاة الامام الغزالي — رحمه الله — وهو سنة خمس وخمسمائة هجرية ، فمن المستبعد ان ابن تومرت لم يصل الى بغداد بعد هذه الرحلة التي قضاها في طلب العلم سنة أربع وخمسمائة أو أوائل خمس وخمسمائة هجرية .

---

1) وفيات الاعيان لابن خلكان ج 2 /ص/ 431 /ط دار الثقافة .
2) الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى للناصري ج 2 /ص 99 ط دار الكتاب الدار البيضاء عام : 1954 .
3) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي ص 173 ط القاهرة .

ثم ، ان وفاة الامام الغزالي بعد أن أقام رحلة طالما بدار اليه بالبنان تقتصر في أنه كان ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي أربعة وثمانين وأربعمائة هجرية وثمانية وثمانين وأربعمائة هـ .

وفي هذه السنة بالضبط ، غادر العاصمة العباسية في رحلته الطويلة الشهيرة التي دامت الى مدة تسع وتسعين وأربعمائة هجرية والتي زار فيها دمشق ، وبيت المقدس والاسكندرية ومكة والمدينة (1)

وعلى هذا نقول ، ان من المستحيل أن يكون ابن تومرت الذي غادر وطنه في طلب العلم سنة واحد وخمسمائة هجرية — كما قدمنا — قد استطاع ان يلتقي بأبي حامد الغزالي في بغداد او غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته ، ثم انه ليس من المحتمل ان يكون هذا اللقاء قد حصل في بغداد عند عودة الامام الغزالي اليها ، ذلك أنه لم يمكث بها — أي ببغداد — سوى فترة يسيرة ثم رحل عنها الى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان سنجر ، ثم غادرها بعد قليل الى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بعد ذلك للعبادة والتأليف حتى التحق بالرفيق الأعلى في جمادى الثانية سنة خمس وخمسمائة هجرية .

ومما يوضح ما قلناه : ان قرار المرابطين قد صدر بحرق كتاب الاحياء لاول مرة في سنة ثلاث وخمسمائة هجرية ، أي في أوائل عهد علي بن يوسف بن تاشفين ،

وفي هذا الوقت بالضبط يكون الغزالي قد غادر بغداد الى نيسابور آخر مرة ، وقبيل وفاته بنحو عام .

واذا تحقق لدينا هذا كله ، فكيف نستطيع ازاء هذه الحقائق الزمنية ان نصدق لقاء ابن تومرت للامام الغزالي . هذا ولقد أدلى الاستاذ عبد الهادي التازي في دراسة عن أبي بكر بن العربي بشهادة تنفي لقاء ابن تومرت بالغزالي ، وذلك في كتاب صدر حديثا باسم (سر العالمين) .

ومن كل حال ، فاذا ما سلمنا بفكرة لقاء المهدي بن تومرت للامام أبي حامد الغزالي واتصاله به ، فهل يمكن ان نسلم بما الدعوه به من دعائه بالتمزيق والتشتيت على يد دولة سلفية تعبد الله وتوحده ، وتحتفظ مع رعاياها المسلمين في ارغد عيش وأرفهه .

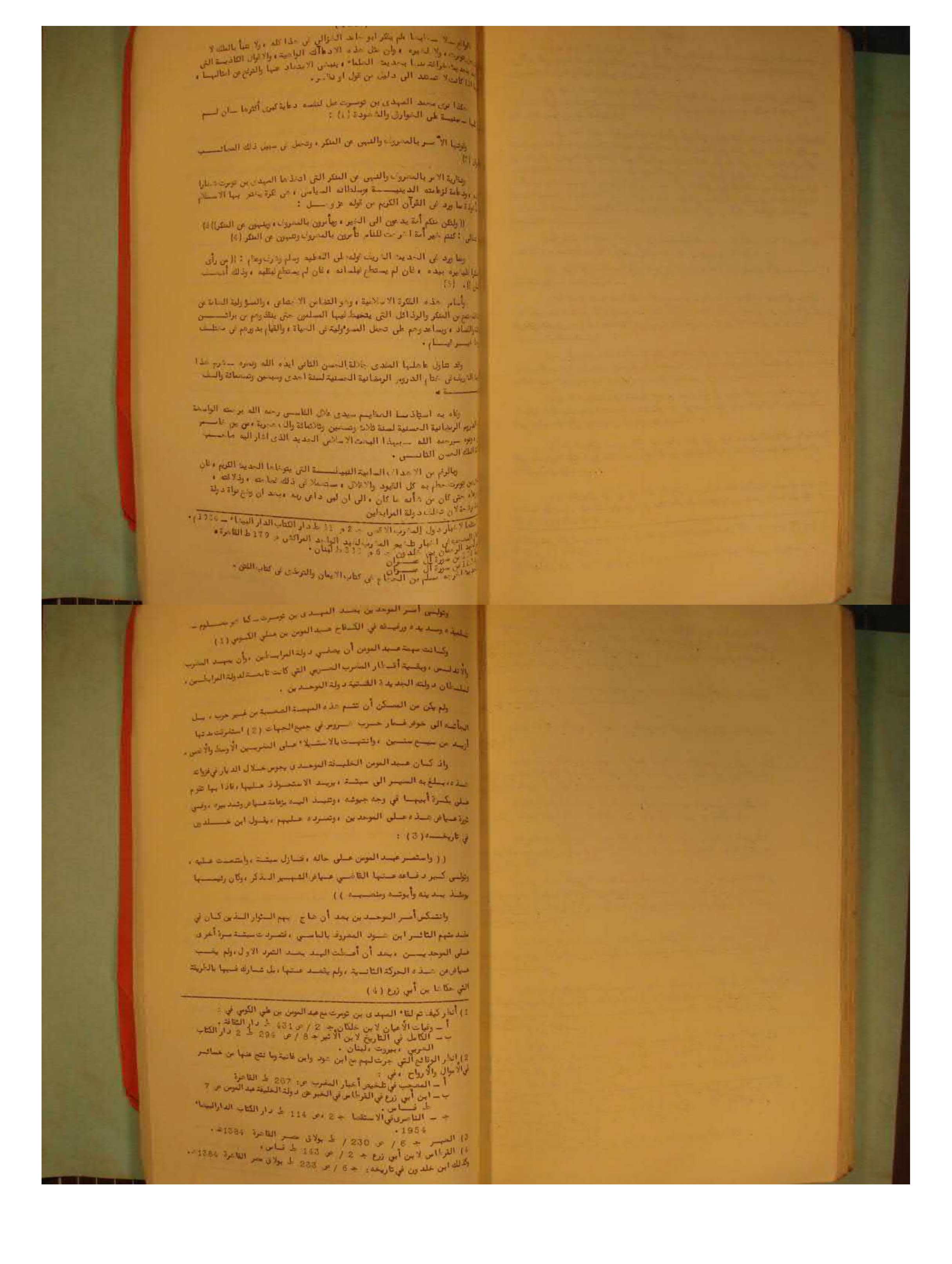
نحن اذا وضعنا دعاء التمزيق وما في معنى ذلك في ميزان العقل ، ووضعنا في أجزائه وتفاصيله عامل التحقيق لا يمكننا بأي حال أن ننسب مثل هذه التقولات المعيبة لابي حامد الغزالي بل يلزمنا أن ننزهه عنها .

والامام الغزالي — رضي الله عنه — اعرف من تقول عليه ، ونسب الكلام اليه بالمصائب التي تحل بالامة اذا مزق ملكها وما يتبع ذلك من اراقة الدماء واضاعة الاموال ، وتخريب المعالم والآثار ...

هل نتفق معي على ان ابا حامد الغزالي — مع جلالة علمه وتواضعه يمكن أن يدعو بالدعاء مثل هذه المصائب والمحن التي تحل بالرجال ، حتى يخرج من بين شفتيه مثل تلك الدعوات امام تلامذته .

---

1) انظر عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس لمحمد عبد الله عنان القسم الاول ص 173 ط عام ...
2) انظر ايضا تاريخ ابن الاثير المجلد الثامن ص 206 ط 2 دار الكتاب العربي ، بيروت .



... لم ينكر ابو حامد الغزالي في هذا كله ، ولا عنيا بالطعن ... ولا بغيره ، وان كل هذه الادعاءات الواهية ، والاقوال الكاذبة التي ... بتجديد العلماء ، يقتضي الابتعاد عنها والترفع عن امثالها ، ... لا تستند الى دليل من قول او ...

هكذا نرى محمد المهدي بن تومرت على لنفسه دعاية كبرى أكثرها ... على الخوارق والشعوذة (1) :

وثانيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ... ذلك ... (2)

... الامر بالمعروف والنهي عن المنكر التي اتخذها المهدي بن تومرت ... لزعامته الدينيـــة وسلطانه السياسي ، هي فكرة ... بها الاسلام ... ما يرد في القرآن الكريم من قوله عز وجـــل :

((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر)) (3) ... تعالى : كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر (4)

وما يرد في الحديث الشريف قوله على الصلاة والسلام : ((من رأى ... بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف ...)) (5)

... هذه الفكرة الاسلامية ، وهو التضامن الاجتماعي ، والمسؤولية ... من المنكر والرذائل التي يتخبط فيها المسلمون حتى ينقذهم من براثـــن ... الفساد ، ويساعدهم على تحمل المسؤولية في الحياة ، والقيام بدورهم في مختلف ... ايـــام .

وقد تناول عاهلنا المفدى جلالة الحسن الثاني ايده الله ونصره ... في ختام الدروس الرمضانية الحسنية لسنة احدى وسبعين وتسعمائة والف ...

... به استاذنـا العظيم سيدي علال الفاسي رحمه الله ... الدروس الرمضانية الحسنية لسنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة والف ... رحمه الله ... بهذا البحث الاسلامي الجديد الذي اشار اليه ... الملك الحسن الثانـــي .

وبالرغم من الاهداف السامية النبيلـــة التي يتوخاها الحديث الكريم ، فان ... بن تومرت ... كل القيود والاغلال ، مستغلا في ذلك ... ، وذلك ... حتى كان من شأنه ما كان ، الى ان لبى داعي ربه ، بعد ان وضع نواة دولة ... على انقاض دولة المرابطين

... لاخبار دول المغرب الاقصى ... 2 ... دار الكتاب الدار البيضاء ...
... في اخبار ... عبد الواحد المراكشي ... 179 ط القاهرة .
... عبد الرحمن بن خلدون ... 6 ... ط لبنان .
... من سورة آل عمران
... من سورة آل عمران
... مسلم بن الحجاج في كتاب الايمان والترمذي في كتاب الفتن .

وتولى أمر الموحدين بعد المهدي بن تومرت ــ كما هو معلوم ــ خليفته وساعده الأيمن ورفيقه في الكفاح عبد المومن بن علي الكومي (1)

وكانت مهمة عبد المومن أن يصفي دولة المرابطين ، وأن يمهد المغرب والأندلس ، وبقية أقطار المغرب العربي التي كانت تابعة لدولة المرابطين ، لسلطان دولته الجديدة الفتية دولة الموحدين .

ولم يكن من الممكن أن تتم هذه المهمة الصعبة من غير حرب ، بل الجأته الى خوض غمار حرب ضروس في جميع الجهات (2) استغرقت مدتها أزيد من سبع سنين ، وانتهت بالاستيلاء على المغربين الأوسط والأقصى .

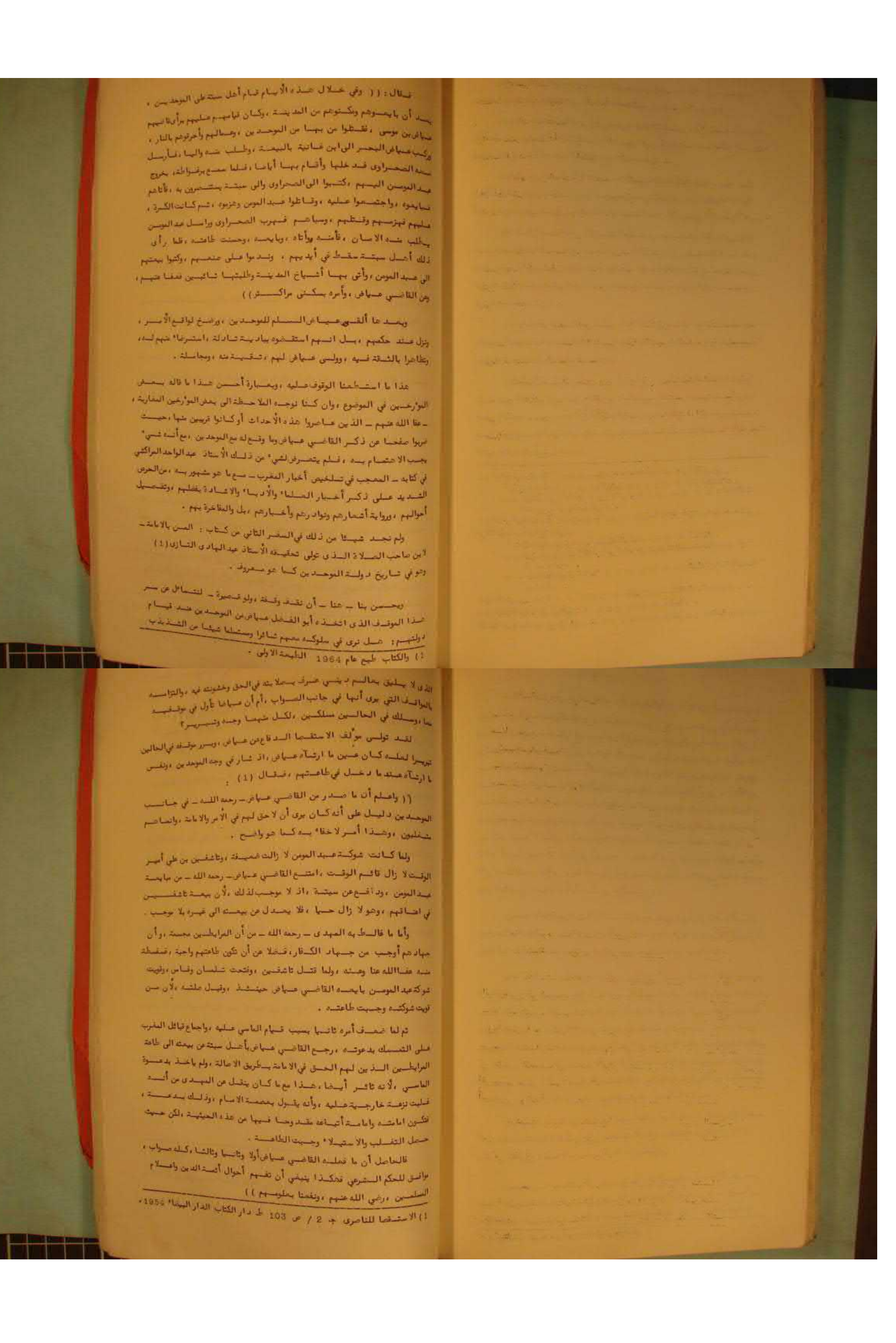
واذ كان عبد المومن الخليفة الموحدي يجوس خلال الديار في غزواته هذه ، يبلغ به السير الى سبتة ، يريد الاستحواذ عليها ، فاذا بها تقوم على بكرة أبيها في وجه جيوشه ، وتلتف اليه بزعامة عياض وتدبيره ، وفي ثورة عياض هذه على الموحدين ، وتمرده عليهم ، يقول ابن خلدون في تاريخه (3) :

((واستمر عبد المومن على حاله ، فنازل سبتة ، وامتنعت عليه ، وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر ، وكان رئيسها بمدينه وأبوته ومنصبه))

وانتكس أمر الموحدين بعد أن هاج بهم الثوار الذين كان في مقدمتهم الثائر ابن هود المعروف بالماسي ، فتمردت سبتة مرة أخرى على الموحديـــن ، بعد أن أعطت اليد بعد التمرد الاول ، ولم يغب عياض عن هذه الحركة الثانية ، ولم يقعد عنها ، بل شارك فيها بالطريقة التي حكاها ابن أبي زرع (4)

---

1) أنظر كيف تم لقاء المهدي بن تومرت مع عبد المومن بن علي الكومي في :
أ ــ وفيات الأعيان لابن خلكان ج 2 / ص 431 ط دار الثقافة .
ب ــ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج 8 / ص 294 ط 2 دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
2) انظر الوقائع التي جرت لهم مع ابن هود وابن غانية وما نتج عنها من خسائر في الأموال والأرواح ، في :
أ ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص: 287 ط القاهرة
ب ــ ابن أبي زرع في القرطاس في الخبر عن دولة الخليفة عبد المومن ص 7 ط فاس .
جـ ــ الناصري في الاستقصا ج 2 ، ص 114 ط دار الكتاب الدار البيضاء 1954 .
3) العبر ج 6 / ص 230 / ط بولاق مصر القاهرة 1384 هـ .
4) القرطاس لابن أبي زرع ج 2 / ص 143 ط فاس .
وكذلك ابن خلدون في تاريخه : ج 6 / ص 233 ط بولاق مصر القاهرة 1384 هـ .



فقال : ((وفي خلال هذه الأيام قام أهل سبتة على الموحدين ، بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة ، وكان قيامهم عليهم برأي قاضيهم عياض بن موسى ، فقتلوا من بها من الموحدين ، وعمالهم وأحرقوهم بالنار ، وركب عياض البحر الى ابن غانية بالجزيرة ، وطلب منه واليا ، فأرسل معه الصحراوي فدخلها وأقام بها أياما ، فلما سمع برغواطة بخروج عبد المومن اليهم ، كتبوا الى الصحراوي والى سبتة يستنصرون به ، فأتاهم فبايعوه ، واجتمعوا عليه ، وقاتلوا عبد المومن وهزموه ، ثم كانت الكرة عليهم فهزمهم وقتلهم ، وسباهم فهرب الصحراوي وراسل عبد المومن يطلب منه الامان ، فأمنه وأتاه ، وبايعه ، وحسنت طاعته ، فلما رأى ذلك أهل سبتة سقط في أيديهم ، وندموا على فعلهم ، وكتبوا ببيعتهم الى عبد المومن ، وأتى بها أشياخ المدينة وطلبتها تائبين فعفا عنهم ، وعن القاضي عياض ، وأمره بسكنى مراكش))

وبعد ما ألقى عياض السلم للموحدين ، ورضخ لواقع الأمر ، ونزل عند حكمهم ، بل انهم استقضوه ببادية تادلة ، استرضاء منهم له ، وتظاهرا بالثقة فيه ، وولى عياض لهم ، تقية منه ، ومجاملة .

هذا ما استطعنا الوقوف عليه ، وبعبارة أحسن هذا ما قاله بعض المؤرخين في الموضوع ، وان كنا نوجه الملاحظة الى بعض المؤرخين المغاربة ، - عفا الله عنهم - الذين عاصروا هذه الأحداث أو كانوا قريبين منها ، حيث ضربوا صفحا عن ذكر القاضي عياض وما وقع له مع الموحدين ، مع أنه شيء يجب الاهتمام به ، فلم يتعرض لشيء من ذلك الأستاذ عبد الواحد المراكشي في كتابه - المعجب في تلخيص أخبار المغرب - مع ما هو مشهور به ، من الحرص الشديد على ذكر أخبار العلماء والأدباء والاشادة بفضلهم ، وتفصيل أحوالهم ، ورواية أشعارهم ونوادرهم وأخبارهم ، بل والمفاخرة بهم .

ولم نجد شيئا من ذلك في السفر الثاني من كتاب : المن بالامامة - لابن صاحب الصلاة الذي تولى تحقيقه الأستاذ عبد الهادي التازي (1) وهو في تاريخ دولة الموحدين كما هو معروف .

ويحسن بنا - هنا - أن نقف وقفة ، ولو قصيرة - لنتساءل عن سر هذا الموقف الذي اتخذه أبو الفضل عياض من الموحدين عند قيام دولتهم : هل نرى في سلوكه معهم شائرا ومستلما شيئا من التذبذب

1) والكتاب طبع عام 1964 الطبعة الاولى .

الذي لا يليق بعالم ديني عرف بصلابته في الحق وخشونته فيه ، والتزامه بالمواقف التي يرى أنها في جانب الصواب ، أم أن عياضا تأول في موقفيه معا ، وسلك في الحالين مسلكين ، لكل منهما وجه وتبرير ؟

لقد تولى مؤلف الاستقصا الدفاع عن عياض ، وبرر موقفه في الحالين تبريرا لعله كان عين ما ارتآه عياض ، اذ ثار في وجه الموحدين ، ونفس ما ارتآه عندما دخل في طاعتهم ، فقال (1) :

((واعلم أن ما صدر من القاضي عياض - رحمه الله - في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والامامة ، وانهم متغلبون ، وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح .

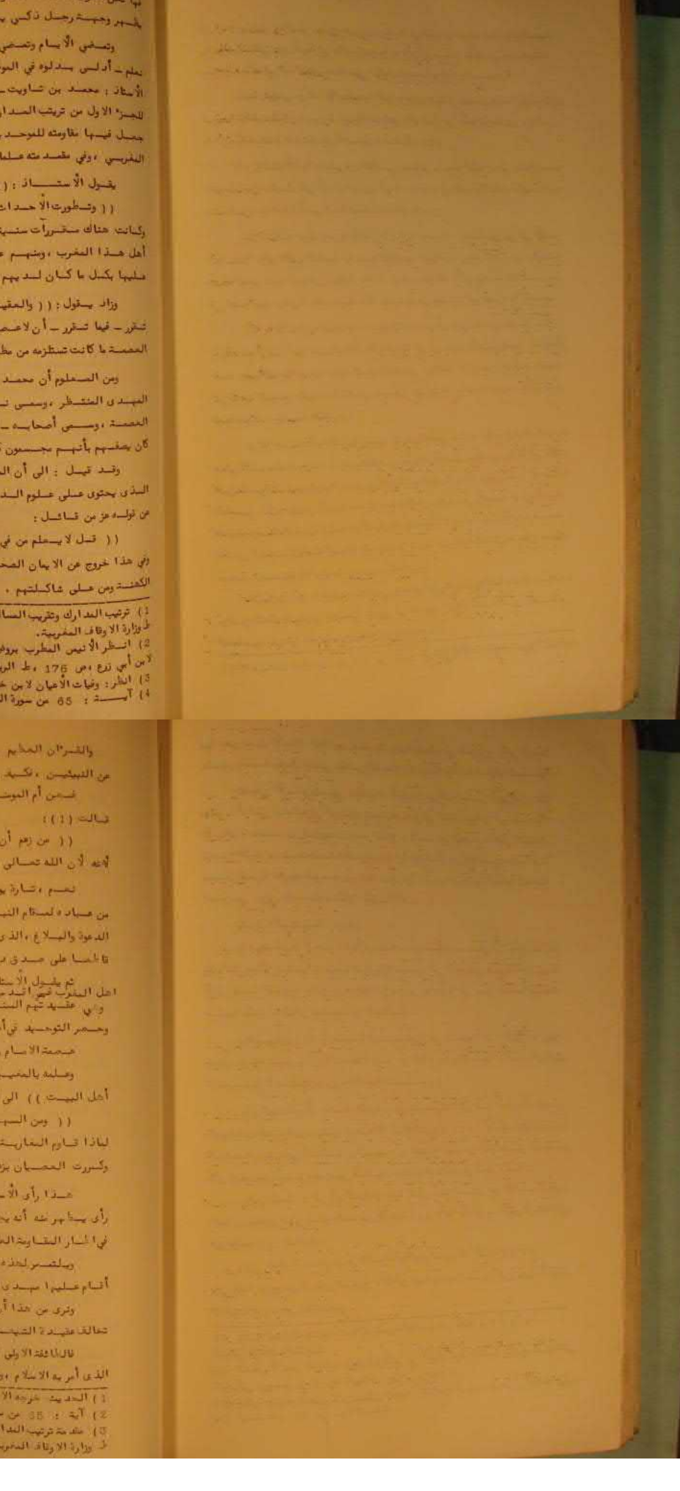
ولما كانت شوكة عبد المومن لا زالت ضعيفة ، وتاشفين بن علي أمير الوقت لا زال قائم الوقت ، امتنع القاضي عياض - رحمه الله - من مبايعة عبد المومن ، ودافع عن سبتة ، اذ لا موجب لذلك ، لأن بيعة تاشفين في أعناقهم ، وهو لا زال حيا ، فلا يعدل عن بيعته الى غيره بلا موجب .

وأما ما غالط به المهدي - رحمه الله - من أن المرابطين مجسمة ، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار ، فضلا عن أن تكون طاعتهم واجبة ، فغلطة منه عفا الله عنا وعنه ، ولما قتل تاشفين ، وفتحت تلمسان وفاس ، وقويت شوكة عبد المومن بايعه القاضي عياض حينئذ ، وقبل صلته ، لأن من قويت شوكته وجبت طاعته .

ثم لما ضعف أمره ثانيا بسبب قيام الماسي عليه ، واجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته ، رجع القاضي عياض بأهل سبتة عن بيعته الى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الامامة بطريق الاصالة ، ولم يأخذ بدعوة الماسي ، لأنه ثائر أيضا ، هذا مع ما كان ينقل عن المهدي من أنه قد ثبتت نزعة خارجية عليه ، وأنه يقول بعصمة الامام ، وذلك بدعة ، فتكون امامته وامامة أتباعه مقدوحا فيها من هذه الحيثية ، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة .

فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولا وثانيا وثالثا ، كله صواب ، موافق للحكم الشرعي فهكذا ينبغي أن تفهم أحوال أئمة الدين وأعلام المسلمين ، رضي الله عنهم ، ونفعنا بعلومهم))

1) الاستقصا للناصري ج 2 / ص 103 ط دار الكتاب الدار البيضاء 1954 .



فها نحن نرى الأستاذ الناصري يحطينا وجهة نظره في الموضوع ، وهي كما يظهر وجهة رجل ذكي يحترم العلماء والادباء والأئمة احتراما كبيرا .

وتمضي الأيام وتمضي ، ولم نر أحدا من المؤرخين أبوهم – فيما نعلم – أدلى بدلوه في الموضوع وشارك برأيه في المجموع الى أن جاء الأستاذ : محمد بن تاويت – رحمه الله – فكتب في المقدمة التي كتبها للجزء الاول من ترتيب المدارك مرافعة في الدفاع عن القاضي عياض ، جعل فيها مقاومته للموحدين ، تدخل في اطار المقاومة العامة للشعب المغربي ، وفي مقدمته علماؤه وأدباؤه .

يقول الأستاذ : (1)

((وتطورت الأحداث وأرغمته – أي عياض – على أن يخوض غمارها وكانت هناك مقررات سنية عقدية لا سبيل الى التخلي عنها ، آمن بها أهل هذا المغرب ، ومنهم علماؤه الذين جاهدوا في سبيل المحافظة عليها بكل ما كان لديهم من الوسائل .

وزاد يقول : ((والعقيدة السنية تجيء في طليعة هذه المقررات وهي تقرر – فيما تقرر – أن لا عصمة لأحد من الناس غير الأنبياء ، أضف الى قضية العصمة ما كانت تستلزمه من مظاهر التشيع))

ومن المعلوم أن محمد المهدي بن تومرت كان قد ادعى أنه هو المهدي المنتظر ، وسمى نفسه الامام المهدي (2) وادعى لنفسه العصمة ، وسمى أصحابه – الموحدين تمييزا لهم عن المرابطين الذين كان يصفهم بأنهم مجسمون كفرة ، يجب قتالهم من أجل ذلك .

وقد قيل : الى أن المهدي هذا كان قد حصل على كتاب – الجفر – الذي يحتوي على علوم الدنيا والآخرة (3) كانوا يزعمون – غافلين أو متغافلين عن قوله عز من قائل :

((قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله)) (4)

وفي هذا خروج عن الايمان الصحيح ، كما أن فيه وعيدا شديدا لمن يؤمن بأخبار الكهنة ومن على شاكلتهم .

---

1) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك ج 1 / ص ط وزارة الاوقاف المغربية .
2) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع ، ص 176 ، ط الرباط عام 1973 .
3) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان المجلد الخامس ص 48 ، ط دار الثقافة بيروت
4) آية : 65 من سورة النمل .

والقرآن الكريم يبين لنا أن الغيب قد استأثر به الله ، وأنه محجوب عن النبيين ، فكيف بغيرهم .

فعن أم المؤمنين السيدة عائشة الصديقة – رضي الله عنها – أنها قالت (1) :

((من زعم أن الرسول كان يعلم الغيب ، فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله تعالى يقول : ((قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله)) (2)))

نعم ، تارة يوحي الله تعالى بشيء من شئونه الى من اصطفاه من عباده لمقام النبوة ، فيوحي الله تعالى من ذلك ما يشاء ، مما تقتضيه الدعوة والبلاغ ، الذي عهد الله به اليه ليكون برهانا ساطعا ، ودليلا قاطعا على صدق دعواه .

ثم يقول الأستاذ ابن تاويت التطواني (3) ((وما يهدي الموحدين عند أهل المغرب فيهم اشد جرما لديهم ، وفي عقيدتهم السنية ، وسماهم مجسمين كافرين واباح لهم قتال المفسر ، وحصر التوحيد في أصحابه وأتباعه وأقام حركته على دعامتين :

عصمة الامام وهو كان الامام ،

وعلمه بالمغيبات ، وقد استفاد من كتاب الجفر الذي يتضمن علوم أهل البيت)) الى أن يقول :

((ومن السهل – بعد هذا الذي أشرت اليه ، أن يفهم الدارس لماذا قاوم المغاربة في كل مكان دعوة الموحدين ، ثم لماذا ثارت سبتة وكررت العصيان بزعامة عياض في وجه نظام الموحدين)) .

هذا رأي الأستاذ ابن تاويت التطواني في مقدمته لترتيب المدارك وهو رأي يظهر منه أنه يجعل مقاومة أبي الفضل عياض للموحدين قد دخل في اطار المقاومة العامة للشعب المغربي ، لهم عند ظهورهم .

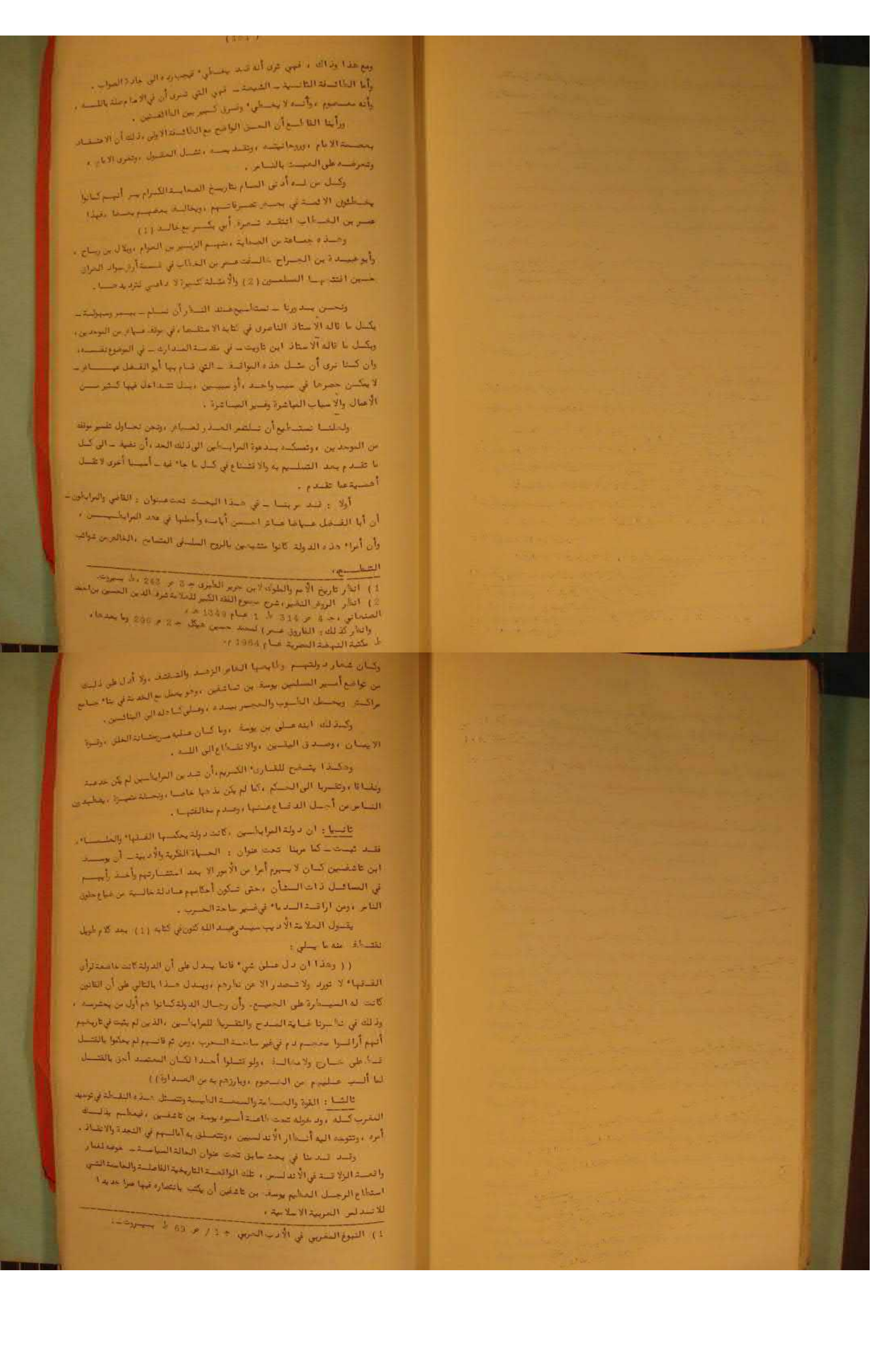
ويلتمس لهذه المقاومة أسبابا عقدية ، على أن هذه العصمة التي أقام عليها مهدي الموحدين دعايته قد كثر فيها الجدال .

ونرى من هذا أن عقيدة الصحابة الكرام – وأهل السنة والمعتزلة في الامام تخالف عقيدة الشيعة .

[illegible] لا تقدس الامام ، ولا ترى أنه معصوم بقدر ما تعطيه الاحترام الذي أمر به الاسلام ، وذلك غاية آدابها ، وسمو أخلاقها .

---

1) الحديث خرجه الامام البخاري في كتاب التوحيد
2) آية : 35 من سورة النمل .
3) مقدمة ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك ج 1 ص ط وزارة الاوقاف المغربية .



ومع هذا وذاك ، فهي ترى أنه قد يخطئ في تجويده الى جادة الصواب .

وأما الطائفة الثانية ـ الشيعة ـ فهي التي ترى أن في الامام صلة بالله ، وأنه معصوم ، وأنه لا يخطئ ، وفرق كبير بين الطائفتين .

ورأينا القاطع أن الحق الواضح مع الطائفة الاولى ، ذلك أن الاعتقاد بعصمة الامام ، وروحانيته ، وتقديسه ، تشل العقول ، وتغري الامام ، وتحرضه على العبث بالناس .

وكل من له أدنى المام بتاريخ الصحابة الكرام يعرف أنهم كانوا يخطئون الائمة في بعض تصرفاتهم ، ويخالفه بعضهم بعضا ، فهذا عمر بن الخطاب انتقد تصرف أبي بكر مع خالد (1)

وهذه جماعة من الصحابة ، منهم الزبير بن العوام ، وبلال بن رباح ، وأبو عبيدة بن الجراح خالفت عمر بن الخطاب في قسمة أرض سواد العراق حين افتتحها المسلمون (2) والأمثلة كثيرة لا داعي لترديدها .

ونحن بدورنا ـ نستطيع عند النظر أن نسلم ـ بيسر وسهولة ـ بكل ما قاله الاستاذ الناصري في كتابه الاستقصا ، في موقف عياض من الموحدين ، وبكل ما قاله الاستاذ ابن تاويت ـ في مقدمة المدارك ـ في الموضوع نفسه ، وان كنا نرى أن مثل هذه المواقف ـ التي قام بها أبو الفضل عياض ـ لا يمكن حصرها في سبب واحد ، أو سببين ، بل تتداخل فيها كثير من العوامل والأسباب المباشرة وغير المباشرة .

ولعلنا نستطيع أن نلتمس العذر لعياض ، ونحن نحاول تفسير موقفه من الموحدين ، وتمسكه بدعوة المرابطين الى ذلك الحد ، أن نضيف ـ الى كل ما تقدم يجد التسليم به والاقتناع في كل ما جاء فيه ـ أسبابا أخرى لا تقل أهمية عما تقدم .

أولا : لقد عرفنا ـ في هذا البحث تحت عنوان : القاضي والمرابطون ـ أن أبا الفضل عياضا عاش احسن أيامه وأطولها في عهد المرابطين ، وأن أمراء هذه الدولة كانوا متشبعين بالروح السلفي المتسامح ، الخالي من عوائق التسلط ،

1) انظر تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ج 3 ص 242 ، ط بيروت .
2) انظر الروض النضير ، شرح مجموع الفقه الكبير للعلامة شرف الدين الحسين بن احمد الصنعاني ، ج 4 ص 314 ط 1 عام 1349 هـ .
وانظر كذلك : (الفاروق عمر) لمحمد حسين هيكل ج 2 ص 296 وما بعدها ، ط مكتبة النهضة المصرية عام 1964 م .

وكان شعار دولتهم ، والمهيمن عليها الزهد والتقشف ، ولا أدل على ذلك من تواضع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وهو يعمل مع الخدم في بناء جامع مراكش ، ويحمل الطوب والحجر بيده ، وعلى ما دله الى البنائين .

وكذلك ابنه علي بن يوسف ، وما كان عليه من متانة الخلق ، وقوة الايمان ، وصدق اليقين ، والانقطاع الى الله .

وهكذا يتضح للقارئ الكريم ، أن تدين المرابطين لم يكن خدعة ونفاقا ، وتقربا الى الحكم ، كما لم يكن مذهبا خاصا ، ونحلة متميزة ، يطالبون الناس من أجل الدفاع عنها ، وعدم مخالفتها .

ثانيا : ان دولة المرابطين ، كانت دولة يحكمها الفقهاء والعلماء ، فقد ثبت ـ كما عرفنا تحت عنوان : الحياة الفكرية والأدبية ـ أن يوسف ابن تاشفين كان لا يبرم أمرا من الأمور الا بعد استشارتهم وأخذ رأيهم في المسائل ذات الشأن ، حتى تكون أحكامهم عادلة خالية من ضياع حقوق الناس ، ومن اراقة الدماء في غير ساحة الحرب .

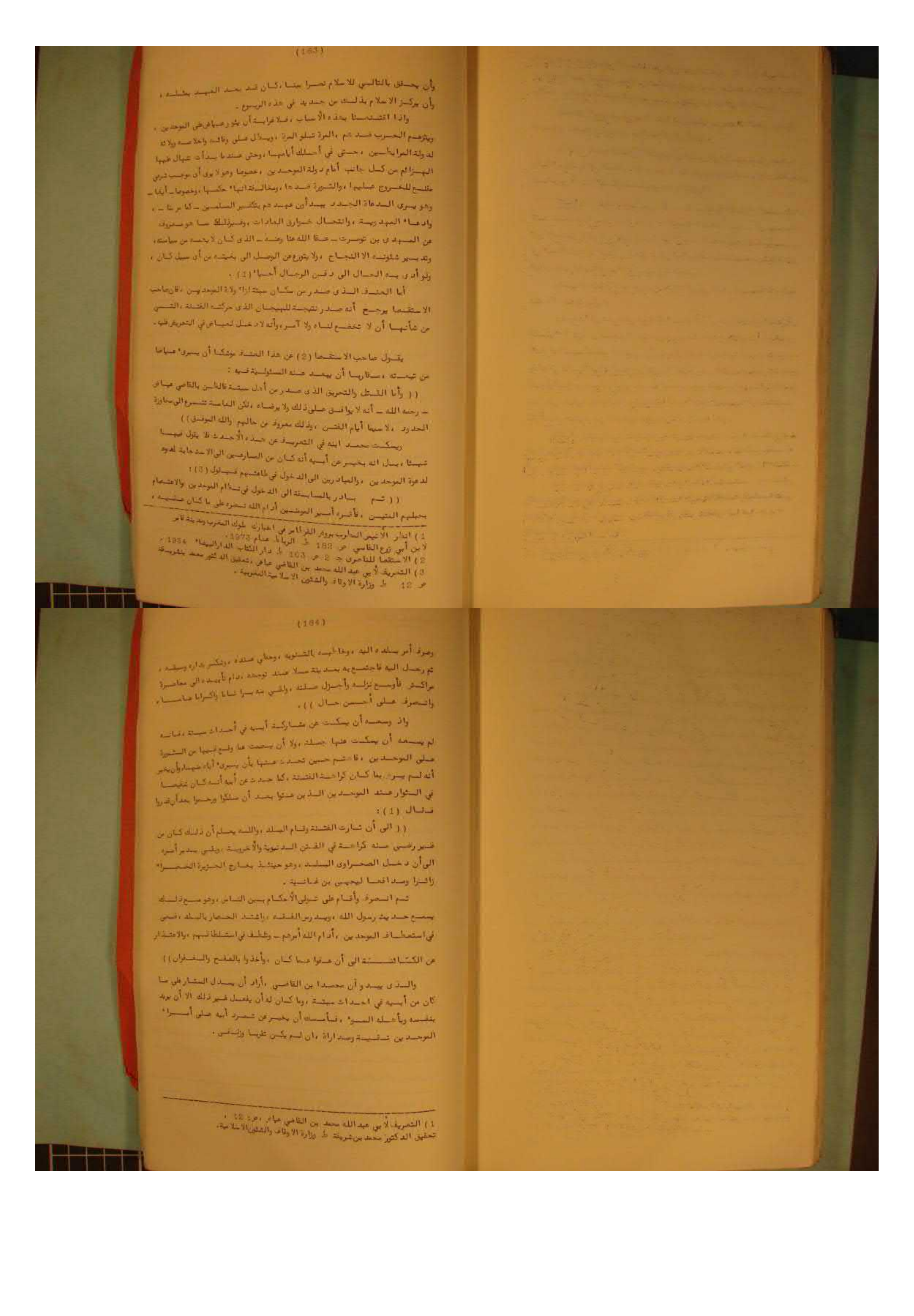
يقول العلامة الأديب سيدي عبد الله كنون في كتابه (1) بعد كلام طويل نقتطف منه ما يلي :

((وهذا ان دل على شيء فانما يدل على أن الدولة كانت خاضعة لرأي الفقهاء لا تورد ولا تصدر الا عن نظرهم ، ويدل هذا بالتالي على أن القانون كانت له السيطرة على الجميع ، وأن رجال الدولة كانوا هم أول من يحترمه ، وذلك في نظرنا غاية المدح والتقريظ للمرابطين ، الذين لم يثبت في تاريخهم أنهم أراقوا محجم دم في غير ساحة الحرب ، ومن ثم فانهم لم يحكموا بالقتل قط على خارج ولا مخالف ، ولو قتلوا أحدا لكان المعتمد أحق بالقتل لما ألب عليهم من الخصوم ، وبارزهم به من العداوة))

ثالثا : القوة والصرامة والسمعة الدائبة وتمثل هذه النقطة في توحيد المغرب كله ، ودخوله تحت امرة أميره يوسف بن تاشفين ، فيعظم بذلك أمره ، وتتوجه اليه أنظار الأندلسيين ، وتتعلق به آمالهم في النجدة والانقاذ .

وقد قدمنا في بحث سابق تحت عنوان الحالة السياسية ـ خوضه لغمار واقعة الزلاقة في الأندلس ، تلك الواقعة التاريخية الفاصلة والحاسمة التي استطاع الرجل العظيم يوسف بن تاشفين أن يكتب بانتصاره فيها عمرا جديدا للأندلس العربية الاسلامية .

1) النبوغ المغربي في الأدب العربي ج 1 / ص 69 ط بيروت .



وأن يحقق بالتالي للاسلام نصرا مبينا ،كان قد بعد العهد بمثله ، وأن يركز الاسلام بذلك من جديد في هذه الربوع .

واذا اقتنعنا بهذه الأسباب ، فلا غرابة أن يثور عياض على الموحدين ، ويتزعم الحرب ضدهم ، المرة تلو المرة ، ويدل على وفائه واخلاصه وولائه لدولة المرابطين ، حتى في أحلك أيامها ، وحتى عندما بدأت تنهال عليها الهزائم من كل جانب أمام دولة الموحدين ، خصوصا وهو لا يرى أن موجب شرعي مقنع للخروج عليها ، والثورة ضدها ، ومخالفتها حكمها ، وخصوصا ـ أيضا ـ وهو يرى الدعاة الجدد يبدأون عهدهم بتكفير المسلمين ـ كما مرّ بنا ـ ، وادعاء المهدوية ، وانتحال خوارق العادات ، وغير ذلك مما هو معروف عن المهدي بن تومرت ـ عفا الله عنا وعنه ـ الذي كان لا يجد من سياسته ، وتدبير شؤونه الا النجاح ، ولا يتورع عن الوصول الى بغيته من أي سبيل كان ، ولو أدى به الحال الى دفن الرجال أحياء (1) .

أما الحنق الذي صدر من سكان سبتة ازاء ولاة الموحدين ، فان صاحب الاستقصا يرجع أنه صدر نتيجة للهيجان الذي حركته الفتنة ، التي من شأنها أن لا تخضع لبناء ولا آمر ، وأنه لا دخل لعياض في التحريض عليه .

يقول صاحب الاستقصا (2) عن هذا الحنق موشكا أن يبرئ عياضا من تبعته ، مستاريا أن يبعد عنه المسئولية فيه :

((وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضي عياض ـ رحمه الله ـ أنه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه ، لكن العامة تتسرع الى مجاوزة الحدود ، لا سيما أيام الفتن ، وذلك معروف من حالهم والله الموفق))

ويسكت محمد ابنه في التعريف عن هذه الأحداث فلا يقول فيها شيئا ، بل انه يخبر عن أبيه أنه كان من السارعين الى الاستجابة لدعوة الموحدين ، والمبادرين الى الدخول في طاعتهم فيقول (3) :

((ثم بادر بالمسابقة الى الدخول في نظام الموحدين والاعتصام بحبلهم المتين ، فآثره أمير المؤمنين أدام الله نصره على ما كان عليه ،

1) انظر الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع الفاسي ص 182 ط الرباط عام 1973 .

2) الاستقصا للناصري ج 2 ص 103 ط دار الكتاب الدار البيضاء 1954 .

3) التعريف لأبي عبد الله محمد بن القاضي عياض ، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة ص 12 ط وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية المغربية .

وصرف أمر بلده اليه ، وخاطبه بالتنويه ، وحظي عنده ، وشكر بداره وسعيه ، ثم رحل اليه فاجتمع به بمدينة سلا عند توجهه ، دام تأييده الى مراكش فأوسع نزله وأجزل صلته ، ولقي منه برا تاما وإكراما عاما ، وانصرف على أحسن حال)) .

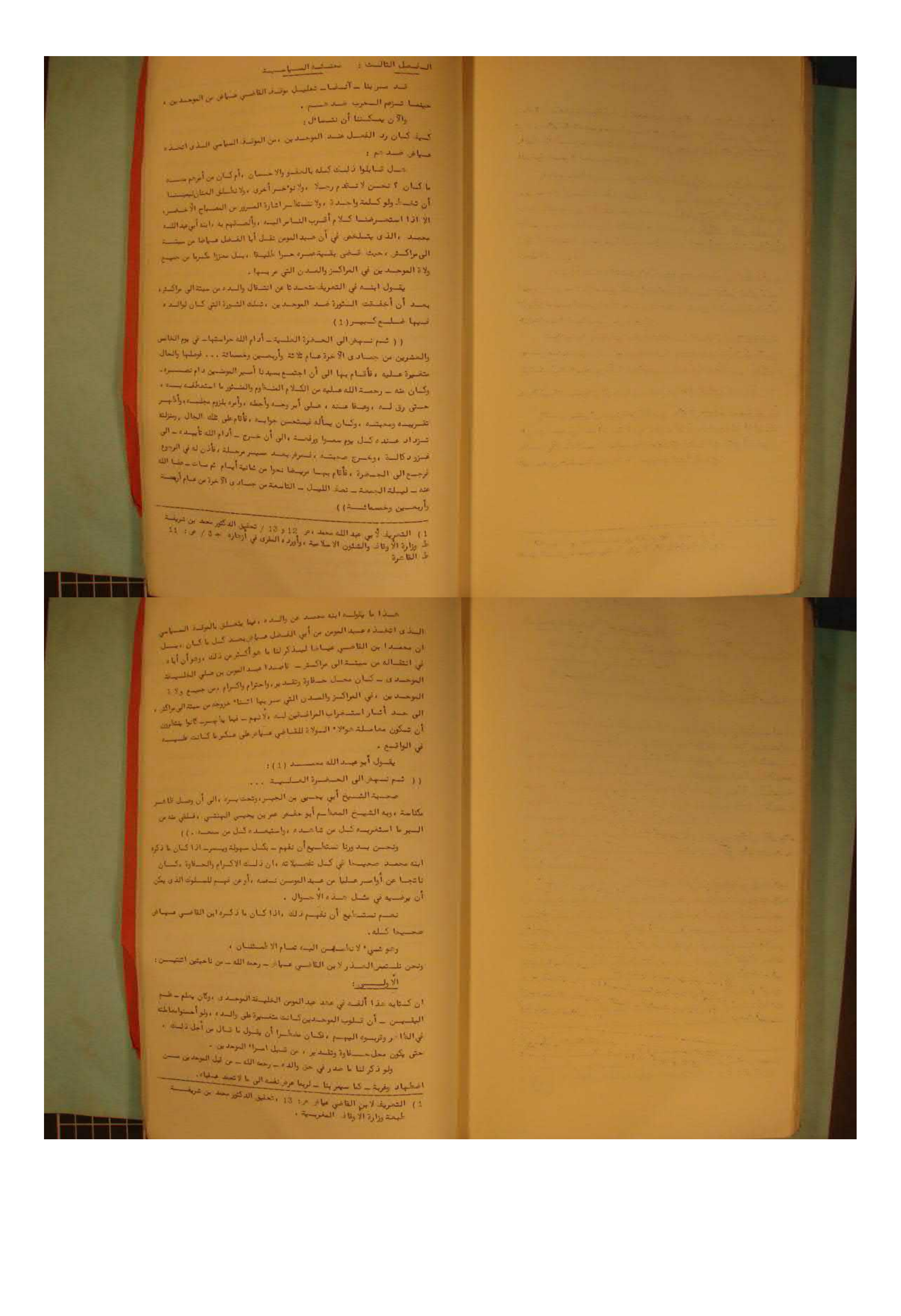
واذ وسعه أن يسكت عن مشاركة أبيه في أحداث سبتة ، فانه لم يسعه أن يسكت عنها جملة ، ولا أن يتحدث عما وقع فيها من الثورة على الموحدين ، فاكتفى حين تحدث عنها بأن يبرئ أباه منها وأن يخبر أنه لم يرض بما كان كراهية الفتنة ، كما حدث عن أبيه أنه كان شفيعا في الثوار عند الموحدين الذين عفوا بعد أن سلكوا ورحموا بعد أن قدروا فقال (1) :

((الى أن ثارت الفتنة وقام البلد ، والله يعلم أن ذلك كان من غير رضى منه كراهة في الفتن الدنيوية والأخروية ، وبقي يدبر أمره الى أن دخل الصحراوي البلد ، وهو حينئذ بخارج الجزيرة الخضراء زائرا ومدافعا ليحيى بن غانية .

ثم انصرف وأقام على تولي الأحكام بين الناس ، وهو مع ذلك يسمع حديث رسول الله ، ويدرس الفقه ، واشتد الحصار بالبلد ، فسعى في استعطاف الموحدين ، أدام الله أمرهم ـ وتلطف في استلطافهم ، والاعتذار من الكتائب الى أن عفوا عما كان ، وأخذوا بالصفح والغفران))

والذي يبدو أن محمدا بن القاضي ، أراد أن يسدل الستار على ما كان من أبيه في احداث سبتة ، وما كان له أن يفعل غير ذلك الا أن يوبخ بنفسه ويأخذه السوء ، فأمسك أن يخبر عن تمرد أبيه على أمراء الموحدين تقية ومداراة ، ان لم يكن تقربا وزلفى .

1) التعريف لأبي عبد الله محمد بن القاضي عياض ، ص 12 . تحقيق الدكتور محمد بنشريفة ط وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية .



الفصل الثالث : محنته السياسية

لقد مر بنا ـ آنفا ـ تحليل موقف القاضي عياض من الموحدين ، حينما تزعم الحرب ضدهم .

والآن يمكننا أن نتساءل :

كيف كان رد الفعل عند الموحدين ، من الموقف السياسي الذي اتخذه عياض ضدهم :

هل قابلوا ذلك كله بالعفو والاحسان ، أم كان من أمرهم معه ما كان ؟ نحن لا نتقدم رجلا ، ولا نؤخر أخرى ، ولا نطلق العنان لحسنا أن يتحدث ولو كلمة واحدة ، ولا نستطلع اشارة المرور من المصباح الأخضر، الا اذا استحضرنا كلام أقرب الناس اليه ، وألصقهم به : ابنه أبي عبد الله محمد ، الذي يتلخص في أن عبد المومن نقل أبا الفضل عياضا من سبتة الى مراكش ، حيث قضى بقية عمره حرا طليقا ، بل معززا مكرما من جميع ولاة الموحدين في المراكز والمدن التي مر بها .

يقول ابنه في التعريف متحدثا عن انتقال والده من سبتة الى مراكش ، بعد أن أخفقت الثورة ضد الموحدين ، تلك الثورة التي كان لوالده فيها ضلع كبير (1)

((ثم نهض الى الحضرة العلية ـ أدام الله حراستها ـ في يوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة . . . فوصلها والحال متغيرة عليه ، فأقام بها الى أن اجتمع بسيدنا أمير المومنين دام نصره ، وكان منه ـ رحمة الله عليه من الكلام المنظوم والمنثور ما استعطفه به ، حتى رق له ، وعفا عنه ، على أبر وجه وأجمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، وأظهر تقريبه ومحبته ، وكان يسأله فيستحسن جوابه ، فأقام على تلك الحال ، ومنزلته تزداد عنده كل يوم سموا ورفعة ، الى أن خرج ـ أدام الله تأييده ـ الى غزو دكالة ، وخرج صحبته ، فسرفر بعد سير مرحلة ، فأذن له في الرجوع لرجع الى الحضرة ، فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام ثم مات ـ عفا الله عنه ـ ليلة الجمعة ـ نصف الليل ـ التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة))

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ، ص 12 و 13 / تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ط وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ، وأورده المقري في أزهاره ج 3 / ص : 11 ط القاهرة

هذا ما يقوله ابنه محمد عن والده ، فيما يتعلق بالموقف السياسي الذي اتخذه عبد المومن من أبي الفضل عياض بعد كل ما كان ، بل ان محمدا بن القاضي عياضا ليذكر لنا ما هو أكثر من ذلك ، وهو أن أباه في انتقاله من سبتة الى مراكش ـ قاصدا عبد المومن بن علي الخليفة الموحدي ـ كان محل حفاوة وتقدير ، واحترام واكرام ، من جميع ولاة الموحدين ، في المراكز والمدن التي مر بها اثناء خروجه من سبتة الى مراكش ، الى حد أثار استغراب المرافقين له ، لأنهم ـ فيما يظهر ـ كانوا يخافون أن تكون معاملة هؤلاء الولاة للقاضي عياض على عكس ما كانت عليه في الواقع .

يقول أبو عبد الله محمد (1) :

((ثم نهض الى الحضرة العلية . . .

صحبة الشيخ أبي يحيى بن الجبر ، وتحت بره ، الى أن وصل ظاهر مكناسة ، وبه الشيخ المعظم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ، فلقي منه من البر ما استغربه كل من شاهده ، واستبعده كل من سمعه .))

ونحن بدورنا نستطيع أن نفهم ـ بكل سهولة ويسر ـ اذا كان ما ذكره ابنه محمد صحيحا في كل تفصيلاته ، أن ذلك الاكرام والحفاوة ، كان ناتجا عن أوامر عليا من عبد المومن نفسه ، أو عن فهم للسلوك الذي يمكن أن يرضيه في مثل هذه الأحوال .

نعم نستطيع أن نفهم ذلك ، اذا كان ما ذكره ابن القاضي عياض صحيحا كله .

وهو شيء لا نطمئن اليه تمام الاطمئنان ،

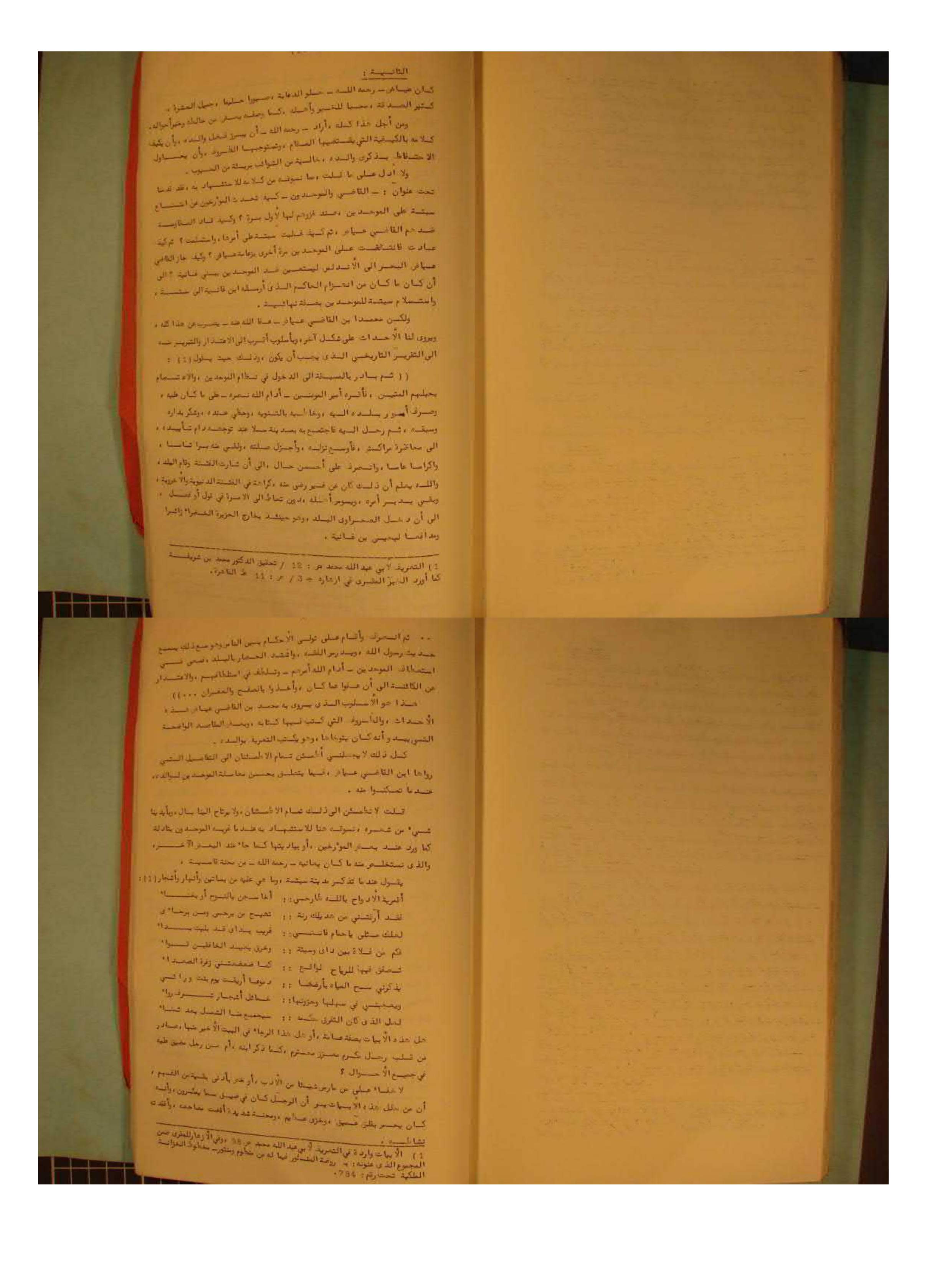
ونحن نلتمس العذر لابن القاضي عياض ـ رحمه الله ـ من ناحيتين اثنتين :

الأولى :

ان كتابه هذا ألفه في عهد عبد المومن الخليفة الموحدي ، وكان يعلم ـ علم اليقين ـ أن قلوب الموحدين كانت متغيرة على والده ، ولو أحسنوا معاملته في الظاهر وقربوه اليهم ، فكان مضطرا أن يقول ما قال من أجل ذلك ، حتى يكون محل حفاوة وتقدير ، من قبل امراء الموحدين .

ولو ذكر لنا ما صدر في حق والده ـ رحمه الله ـ من قبل الموحدين من اضطهاد وغربة ـ كما سهر بنا ـ لربما عرض نفسه الى ما لا تحمد عقباه .

1) التعريف لابن القاضي عياض ص : 13 ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة طبعة وزارة الأوقاف المغربية .



الثانيـة :

كان عياض – رحمه الله – حلو الدعابة ، صبورا حليما ، جميل العشرة ، كثير الصدقة ، محبا للخير وأهله ، كما وصفه بعض من عاصره وخبر أحواله .

ومن أجل هذا كله ، أراد – رحمه الله – أن يبرز فضل والده ، وأن يكيف كلامه بالكيفية التي يقتضيها المقام ، وتستوجبها الظروف ، وأن يحاول الاحتفاظ بذكرى والده ، خالصة من الشوائب بريئة من العيوب .

ولا أدل على ما قلت ، مما نسوقه من كلامه للاستشهاد به ، فقد قدمنا تحت عنوان : – القاضي والموحدون – كيف تحدث المؤرخون عن امتناع سبتة على الموحدين ، عند غزوهم لها لأول مرة ؟ وكيف قاد السبتيين ضدهم القاضي عياض ، ثم كيف غلبت سبتة على أمرها ، واستسلمت ؟ ثم كيف عادت فانتفضت على الموحدين مرة أخرى بزعامة عياض ؟ وكيف جاز القاضي عياض البحر الى الأندلس ليتصل ضد الموحدين ببني غانية ؟ الى أن كان ما كان من انهزام الحاكم الذي أرسله ابن غانية الى سبتة ، واستسلام سبتة للموحدين بصفة نهائية .

ولكن محمدا بن القاضي عياض – عفا الله عنه – يضرب عن هذا كله ، ويروي لنا الأحداث على شكل آخر ، وبأسلوب أقرب الى الاعتذار والتبرير منه الى التقرير التاريخي الذي يجب أن يكون ، وذلك حيث يقول (1) :

((ثم بادر بالسبقة الى الدخول في نظام الموحدين ، والاعتصام بحبلهم المتين ، فآثره أمير المؤمنين – أدام الله نصره – على ما كان عليه ، وصرف أمور بلده اليه ، ودعا اليه بالتنويه ، وحظي عنده ، وشكر بداره وسبقه ، ثم رحل اليه فاجتمع به بمدينة سلا عند توجهه دام تأييده ، الى حاضرة مراكش ، فأوسع نزله ، وأجزل صلته ، ولقي منه برا تاما ، واكراما عاما ، وانصرف على أحسن حال ، الى أن ثارت الفتنة وقام البلد ، والله يعلم أن ذلك كان عن غير رضى منه ، كراهة في الفتنة الدنيوية والأخروية ، وبقي يدبر أمره ، ويسوس أهله ، دون تمادٍ الى الاسرة في قول أو عمل ، الى أن دخل الصحراوي البلد ، وهو حينئذ بخارج الجزيرة الخضراء زائرا ومداخلا ليحيى بن غانية .

1) التعريف لابي عبد الله محمد ص : 12 / تحقيق الدكتور محمد بن شريفة كما أورد المقري في ازهاره ج 3 / ص : 11 ط القاهرة .

.. ثم انصرف وأقام على تولي الأحكام بين الناس ، وهو مع ذلك يسمع حديث رسول الله ، ويدرس الفقه ، وانقشد الحصار بالبلد ، وسعى في استعطاف الموحدين – أدام الله أمرهم – وتلطف في استنزالهم ، والاعتذار من الكافة الى أن عفوا عما كان ، وأخذوا بالصفح والغفران ...))

هذا هو الأسلوب الذي يروي به محمد بن القاضي عياض هذه الأحداث ، والأسرة التي كتب لها كتابه ، ويعلم المقاصد الواضحة التي يهدف اليها ، وأنه كان يتوخاها ، وهو يكتب الترجمة لوالده .

كل ذلك لا يجعلني أطمئن تمام الاطمئنان الى التفاصيل التي رواها ابن القاضي عياض ، فيما يتعلق بحسن معاملة الموحدين لوالده ، عندما تمكنوا منه .

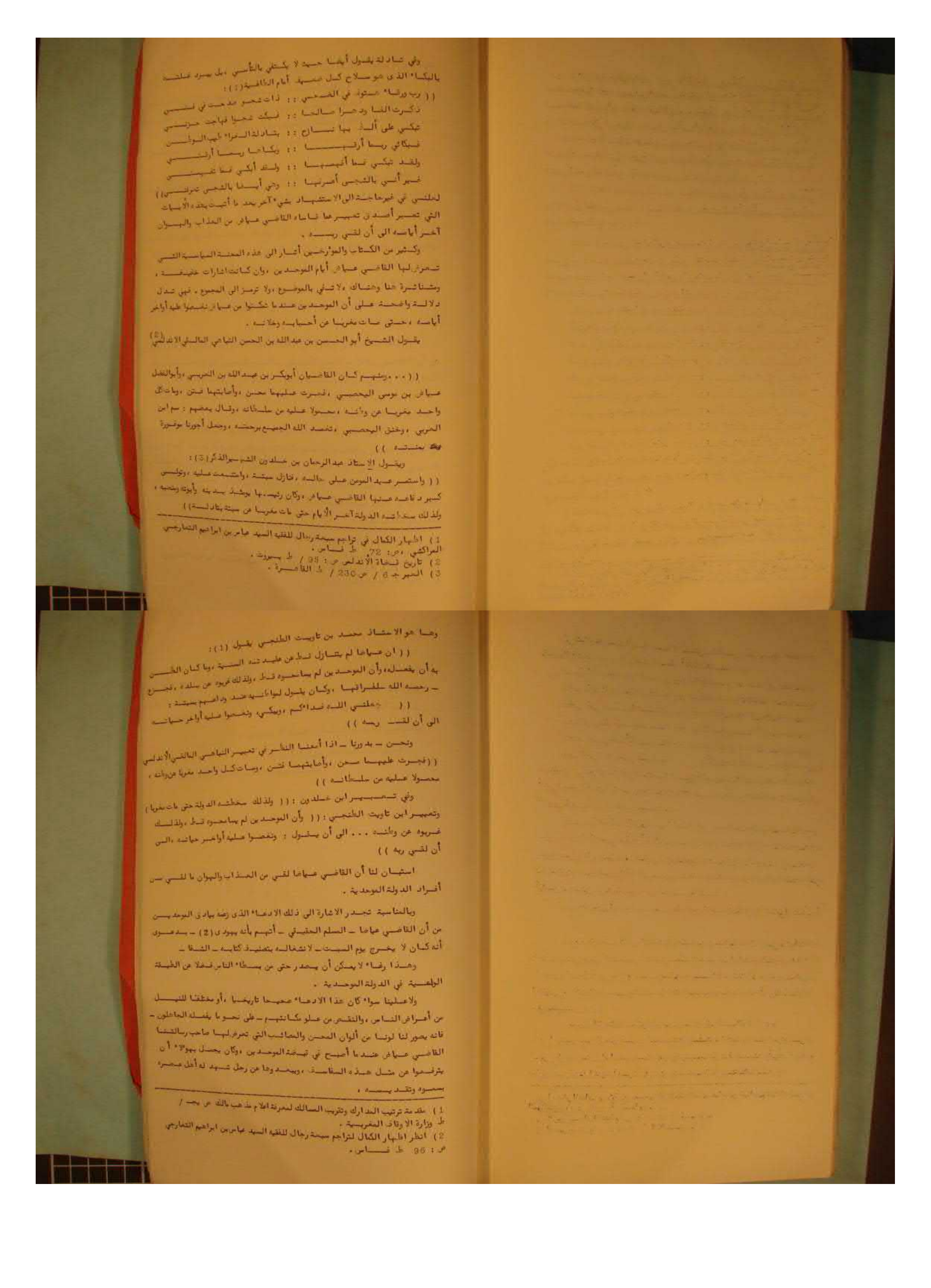
قلت لا نطمئن الى ذلك تمام الاطمئنان ، ولا يرتاح اليها بال ، ويؤيدنا شيء من شعره ، نسوقه هنا للاستشهاد به عندما غربه الموحدون بتادلة كما ورد عند بعض المؤرخين ، أو بباديتها كما جاء عند البعض الآخر ، والذي نستخلص منه ما كان يعانيه – رحمه الله – من محنة قاسية ، يقول عندما تذكر مدينة سبتة ، وما هي عليه من بساتين وأنهار وأشجار (1) :

أقمرية الأدواح بالله طارحي :: أخا شجن بالنوح أو بغناء
لقد أرقتني من هديلك رنة :: تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فانني :: غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة :: وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح :: كما صفقتني زفرة الصعداء
يذكرني سح المياه بأرضها :: دموعا أريقت يوم بنت ورائي
ويحزنني في سهلها وحزونها :: غلائل أشجار تشوف رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه :: سيجمع منا الشمل بعد تناء

هل هذه الأبيات بصفة عامة ، أو هل هذا الرجاء في البيت الأخير منها صادر من قلب رجل كريم معزز محترم ، كما ذكر ابنه ، أم من رجل مضيق عليه في جميع الأحوال ؟

لا خفاء على من مارس شيئا من الأدب ، أو عبر بأدنى بشيء من الفهم ، أن من يحلل هذه الأبيات يرى أن الرجل كان في ضيق مما يشعرون ، وأنه كان يحس بظلم عميق ، وبحزن عميق ، ووحشة شديدة : ألمت بساحته ، وأفقدته نشاطه .

1) الأبيات واردة في التعريف لأبي عبد الله محمد ص 98 ، وفي الأزهار للمقري ضمن المجموع الذي عنونه : « روضة المنثور فيما له من منظوم ومنثور » مخطوط الخزانة الملكية تحت رقم : 784 .



وفي شادلة يقول أيضا حيث لا يكتفي بالتأسي ، بل يسرد علته بالبكاء الذي هو سلاح كل مضطهد أمام الطاغية (1) :

((رب ورقاء هتوف في الضحى :: ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفا ودهرا صالحا :: فبكت حزنا فهاجت حزني
تبكي على ألف بها نازح :: بشادلة الحمراء تيه الوطن
فبكائي ربما أرقها :: وبكاها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها :: ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها :: وهي أيضا بالجوى تعرفني))

لعلني في غير حاجة الى الاستشهاد بشيء آخر بعد ما أثبت هذه الأبيات التي تعبر أصدق تعبير عما قاساه القاضي عياض من العذاب والهوان آخر أيامه الى أن لقي ربه .

وكثير من الكتاب والمؤرخين أشار الى هذه المحنة السياسية التي تعرض لها القاضي عياض أيام الموحدين ، وان كانت اشارات خفيفة ، ومتناثرة هنا وهناك ، لا تفي بالموضوع ، ولا ترمز الى المجموع . فهي تدل دلالة واضحة على أن الموحدين عندما تمكنوا من عياض نغصوا عليه أواخر أيامه ، حتى مات مغربا عن أحبابه وخلانه .

يقول الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الاندلسي (2)

((. . . ومنهم كان القاضيان أبو بكر بن عبد الله بن العربي ، وأبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي ، فجرت عليهما محن ، وأصابتهما فتن ، ومات كل واحد مغربا عن وطنه ، محمولا عليه من سلطانه ، وقال بعضهم : سم ابن العربي ، وخنق اليحصبي ، تغمد الله الجميع برحمته ، وجعل أجورنا موفورة بمنته))

ويقول الاستاذ عبد الرحمان بن خلدون الشهير الذكر (3) :

((واستمر عبد المومن على حاله ، فنازل سبتة ، وامتنعت عليه ، وتولى كبر ذلك عنها القاضي عياض ، وكان رئيسها بنشئه بدينه وأبوته ومنصبه ، ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغربا عن سبتة بتادلة))

1) اظهار الكمال في تراجم سبعة رجال للفقيه السيد عباس بن ابراهيم التعارجي المراكشي ، ص : 72 ، ط فاس .
2) تاريخ قضاة الأندلس ص : 95 / ط بيروت .
3) العبر ج 6 / ص 230 / ط القاهرة .

وها هو الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي يقول (1) :

((ان عياضا لم يتنازل قط عن عقيدته السنية ، وما كان الحسن به أن يفعله ، وأن الموحدين لم يسامحوه قط ، ولذلك غربوه عن بلده ، فجزع – رحمه الله – لفراقها ، وكان يقول لمواسيه عند وداعهم بسبتة :

((جعلني الله فداءكم ، ويبكي ، ونغصوا عليه أواخر حياته الى أن لقي ربه))

ونحن – بدورنا – اذا أمعنا النظر في تعبير النباهي المالقي الأندلسي ((فجرت عليهما محن ، وأصابتهما فتن ، ومات كل واحد مغربا عن وطنه ، محمولا عليه من سلطانه))

وفي تعبير ابن خلدون : ((ولذلك سخطته الدولة حتى مات مغربا) وتعبير ابن تاويت الطنجي : ((وأن الموحدين لم يسامحوه قط ، ولذلك غربوه عن وطنه . . . الى أن يقول : ونغصوا عليه أواخر حياته ، الى أن لقي ربه))

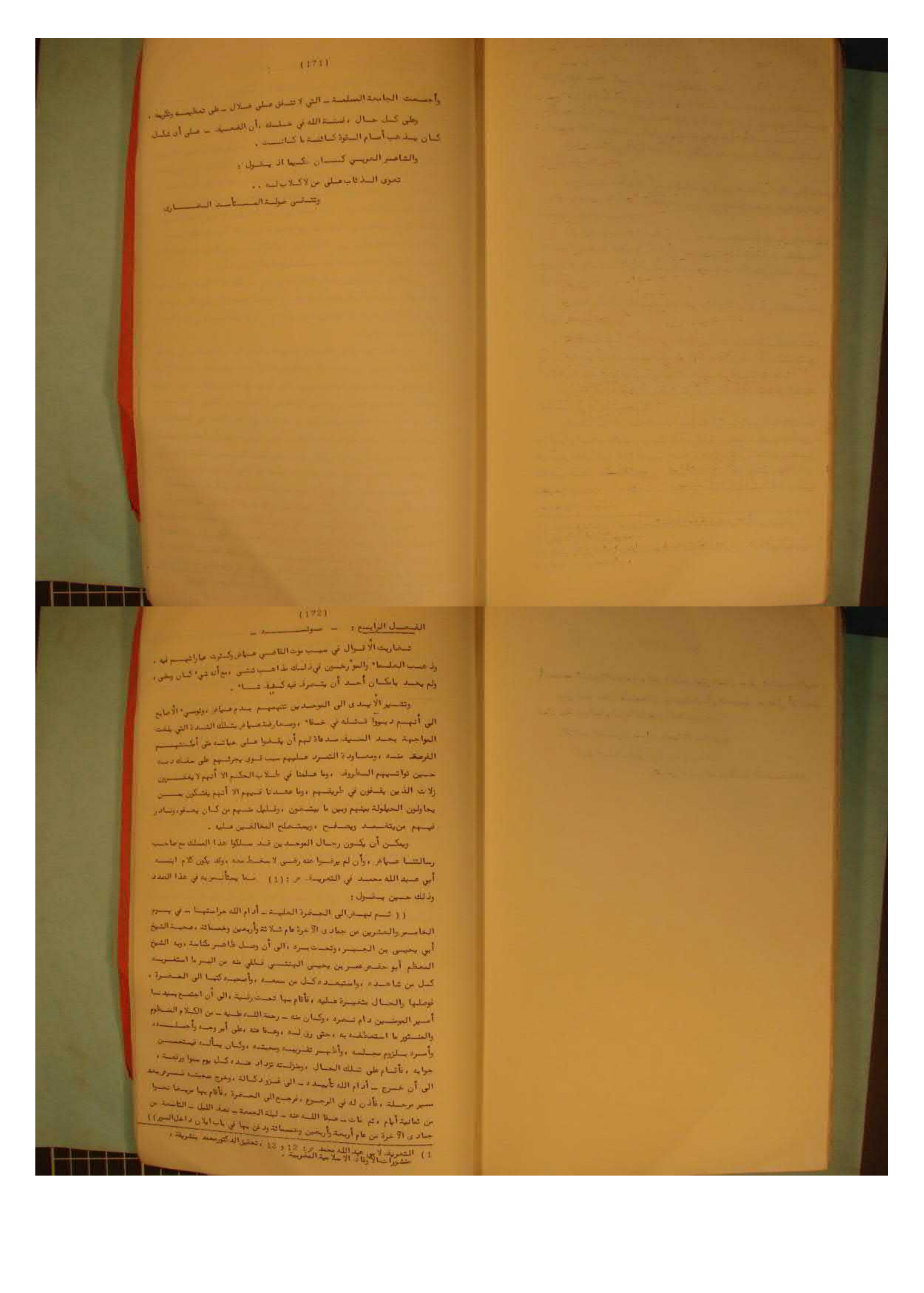
استبان لنا أن القاضي عياضا لقي من العذاب والهوان ما لقي من أفراد الدولة الموحدية .

وبالمناسبة تجدر الاشارة الى ذلك الادعاء الذي زعمه بعض الموحدين من أن القاضي عياضا – المسلم الحقيقي – أتهم بأنه يهودي (2) – بدعوى أنه كان لا يخرج يوم السبت – لانشغاله بتصنيف كتابه – الشفا –

وهذا رفاء لا يمكن أن يصدر حتى من بسطاء الناس فضلا عن الطبقة الواعية في الدولة الموحدية .

ولا علينا سواء كان هذا الادعاء صحيحا تاريخيا ، أو مختلقا للنيل من أعراض الناس ، والتقص من علو مكانتهم – على نحو ما يفعله الحاقدون – فانه يصور لنا لونا من ألوان المحن والمصائب التي تعرض لها صاحب رسالتنا القاضي عياض عندما أصبح في قبضة الموحدين ، وكان يحصل بهؤلاء أن يترفعوا عن مثل هذه السفاسف ، ويبعدوها عن رجل شهد له أهل عصره بسموه وتقدمه .

1) مقدمة ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك ص بعد / ط وزارة الاوقاف المغربية .
2) انظر اظهار الكمال لتراجم سبعة رجال للفقيه السيد عباس بن ابراهيم التعارجي ص : 96 ط فاس .



وأجمعت الجماعة المسلمة ـ التي لا تتفق على ضلال ـ على تعظيمه وتكريمه ،

وعلى كل حال ، فسنة الله في خلقه ، أن الضعيف ـ على أن تكون كان يذهب أمام القوة كائنة ما كانت .

والشاعر العربي كان حكيما اذ يقول :

تعوى الذئاب على من لا كلاب له ..

وتتقى حولة المستأسد الضاري

الفصل الرابع : ـ موته ـ

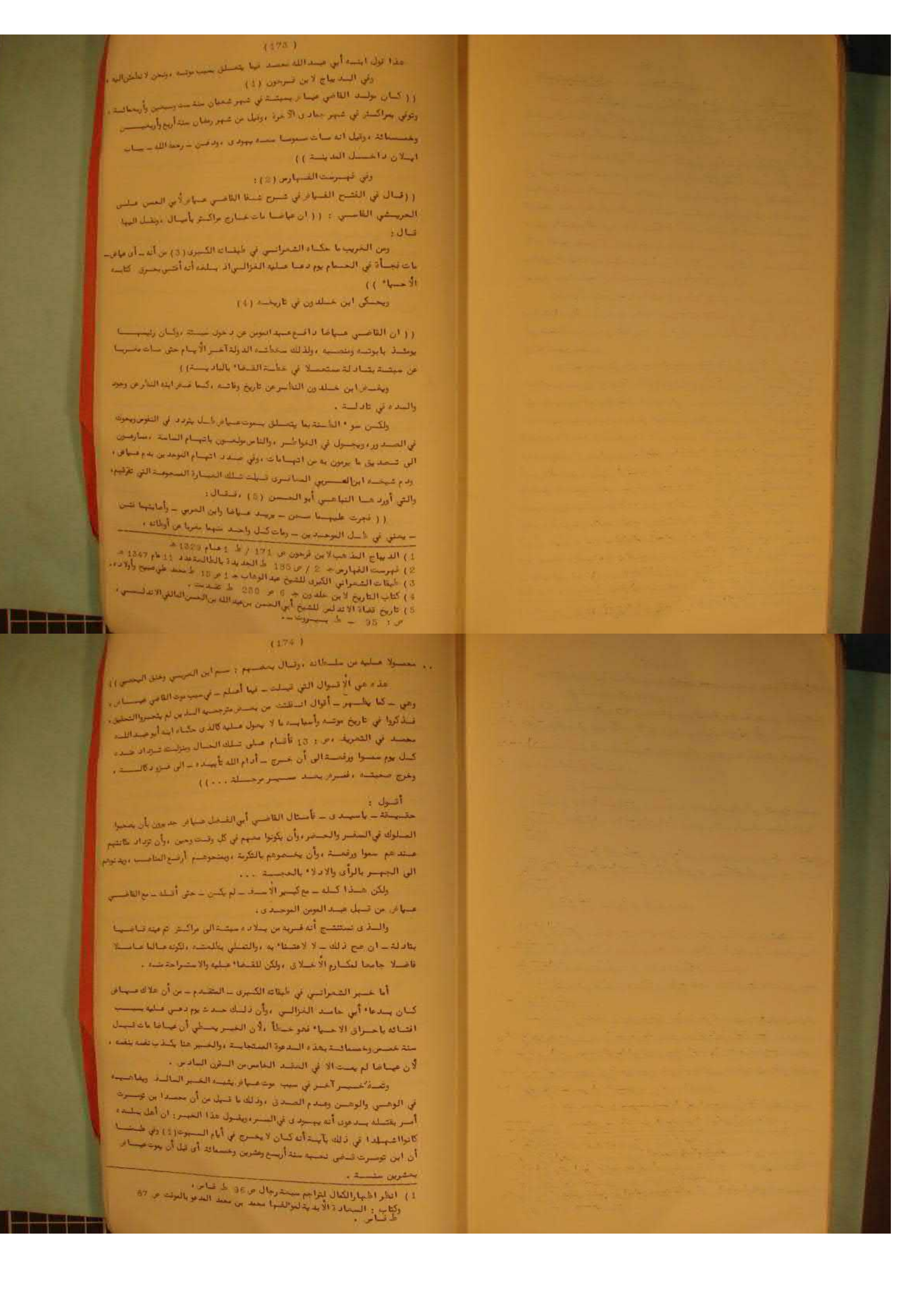
تضاربت الأقوال في سبب موت القاضي عياض وكثرت عباراتهم فيه ، وذهب العلماء والمؤرخون في ذلك مذاهب شتى ، مع أنه شيء كان وعلى ، ولم يعد بامكان أحد أن يتصرف فيه كيفما شاء .

وتشير الأيدي الى الموحدين تتهمهم بدم عياض ، وتومئ الأصابع الى أنهم دبروا قتله في خفاء ، ومعارضة عياض بتلك الشدة التي بلغت المواجهة بحد السيف ، دعاة لهم أن يحقدوا على حياته حتى أمكنتهم الفرصة منه ، ومعاودة التمرد عليهم سبب قوي يحرضهم على حتفه بعد حين تواتيهم الظروف . وما علمنا في طلاب الحكم الا أنهم لا يغفرون زلات الذين يقفون في طريقهم ، وما عهدنا فيهم الا أنهم يفتكون بمن يحاولون الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون ، وقليل منهم من كان يعفو ، ونادر فيهم من يتغمد ويصفح ، ويستصلح المخالفين عليه .

ويمكن أن يكون رجال الموحدين قد سلكوا هذا المسلك مع صاحب رسالتنا عياض ، وأن لم يرضوا عنه رضى لا سخط بعده ، وقد يكون كلام ابنه أبي عبد الله محمد في التعريف (1) مما يستأنس به في هذا الصدد وذلك حين يقول :

((ثم نهض الى الحضرة العلية ـ أدام الله حراستها ـ في يوم العاشر والعشرين من جمادى الآخرة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة ، صحبة الشيخ أبي يحيى بن الجبر ، وتحت بره ، الى أن وصل ظاهر مكناسة ، وبه الشيخ المعظم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي فلقي منه من البر ما استغربه كل من شاهده ، واستبعده كل من سمعه ، وأصحبه كتبا الى الحضرة ، فوصلها والحال متغيرة عليه ، فأقام بها تحت رقبة ، الى أن اجتمع بسيدنا أمير المؤمنين دام نصره ، وكان منه ـ رحمة الله عليه ـ من الكلام المنظوم والمنثور ما استعطفه به ، حتى رق له ، وعفا عنه ، على أبر وجه وأجمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، وأظهر تقريبه وصحبته ، وكان يسأله فيستحسن جوابه ، فأقام على تلك الحال ، ومنزلته تزداد عنده كل يوم سموا ورفعة ، الى أن خرج ـ أدام الله تأييده ـ الى غزو دكالة ، وخرج صحبته فمرض بعد مسير مرحلة ، فأذن له في الرجوع ، فرجع الى الحضرة ، فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام ، ثم مات ـ عفا الله عنه ـ ليلة الجمعة ـ نصف الليل ـ التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة ودفن بها في باب ايلان داخل السور))

1) التعريف لأبي عبد الله محمد ص: 12 و 13 ، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة ، منشورات الأوقاف الاسلامية المغربية .



هذا قول ابنه أبي عبد الله محمد فيما يتعلق بسبب موته ، ونحن لا نطمئن اليه ،

وفي الديباج لابن فرحون (1)

((كان مولد القاضي عياض بسبتة في شهر شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وتوفي بمراكش في شهر جمادى الآخرة ، وقيل من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وقيل انه مات مسموما سمه يهودي ، ودفن - رحمه الله - بباب ايلان داخل المدينة))

وفي فهرست الفهارس (2) :

((قال في الفتح القيار في شرح شفا القاضي عياض لأبي الحسن علي الحريشي الفاسي : ((ان عياضا مات خارج مراكش بأميال ، ونقل اليها قال :

ومن الغريب ما حكاه الشعراني في طبقات الكبرى (3) من أنه - أي عياض - مات فجأة في الحمام يوم دعا عليه الغزالي اذ بلغه أنه أفتى بحرق كتابه الأحياء))

ويحكي ابن خلدون في تاريخه (4)

((ان القاضي عياضا دافع عبد المومن عن دخول سبتة ، وكان رئيسها يومئذ بأبوته ومنصبه ، ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغربا عن سبتة بتادلة مستعملا في خطة القضاء بالبادية))

ويختصر ابن خلدون التأسر عن تاريخ وفاته ، كما عبر ابنه التأثر عن وجود والده في تادلة .

ولكن سوء الطالعة بما يتعلق بموت عياض ظل يتردد في النفوس ويحوك في الصدور ، ويجول في الخواطر ، والناس مولعون باتهام الساسة ، مسارعون الى تصديق ما يرمون به من اتهامات ، وفي صدد اتهام الموحدين بدم عياض ، ودم شيخه ابن العربي المعافري قيلت تلك العبارة المسجوعة التي تعزلهم ، والتي أوردها النباهي أبو الحسن (5) ، فقال :

((فجرت عليهما محن - يريد عياضا وابن العربي - وأصابتهما فتن - يعني في ظل الموحدين - ومات كل واحد منهما مغربا عن أوطانه ،

1) الديباج المذهب لابن فرحون ص 171 / ط 1 عام 1329 هـ
2) فهرست الفهارس جـ 2 / ص 185 ط الجديدة بالطالعة عدد 11 عام 1347 هـ
3) طبقات الشعراني الكبرى للشيخ عبد الوهاب جـ 1 ص 15 ط محمد علي صبيح وأولاده .
4) كتاب التاريخ لابن خلدون جـ 6 ص 250 ط عدة ت .
5) تاريخ قضاة الاندلس للشيخ أبي الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الاندلسي ، ص : 95 - ط بيروت .

.. معزولا عليه من سلطانه ، وقال بعضهم : سم ابن العربي وخنق اليحصبي))

هذه هي الأقوال التي قيلت - فيما أعلم - في سبب موت القاضي عياض ، وهي - كما يظهر - أقوال انطلقت من بعض مترجميه الذين لم يتحروا التحقيق ، فذكروا في تاريخ موته وأسبابه ما لا يعول عليه كالذي حكاه ابنه أبو عبد الله محمد في التعريف ، ص : 13 فأقام على تلك الحال ومنزلته تزداد عنده كل يوم سموا ورفعة الى أن خرج - أدام الله تأييده - الى غزو دكالة ، وخرج صحبته ، فمرض بعد مسير مرحلة ...))

أقول :

حقيقة - ياسيدي - فأمثال القاضي أبي الفضل عياض جديرون بأن يصحبوا الملوك في السفر والحضر ، وأن يكونوا معهم في كل وقت وحين ، وأن تزداد مكانتهم عندهم سموا ورفعة ، وأن يخصوهم بالتكرمة ، ويمنحوهم أرفع المناصب ، ويدعوهم الى الجهر بالرأي والادلاء بالحجة ...

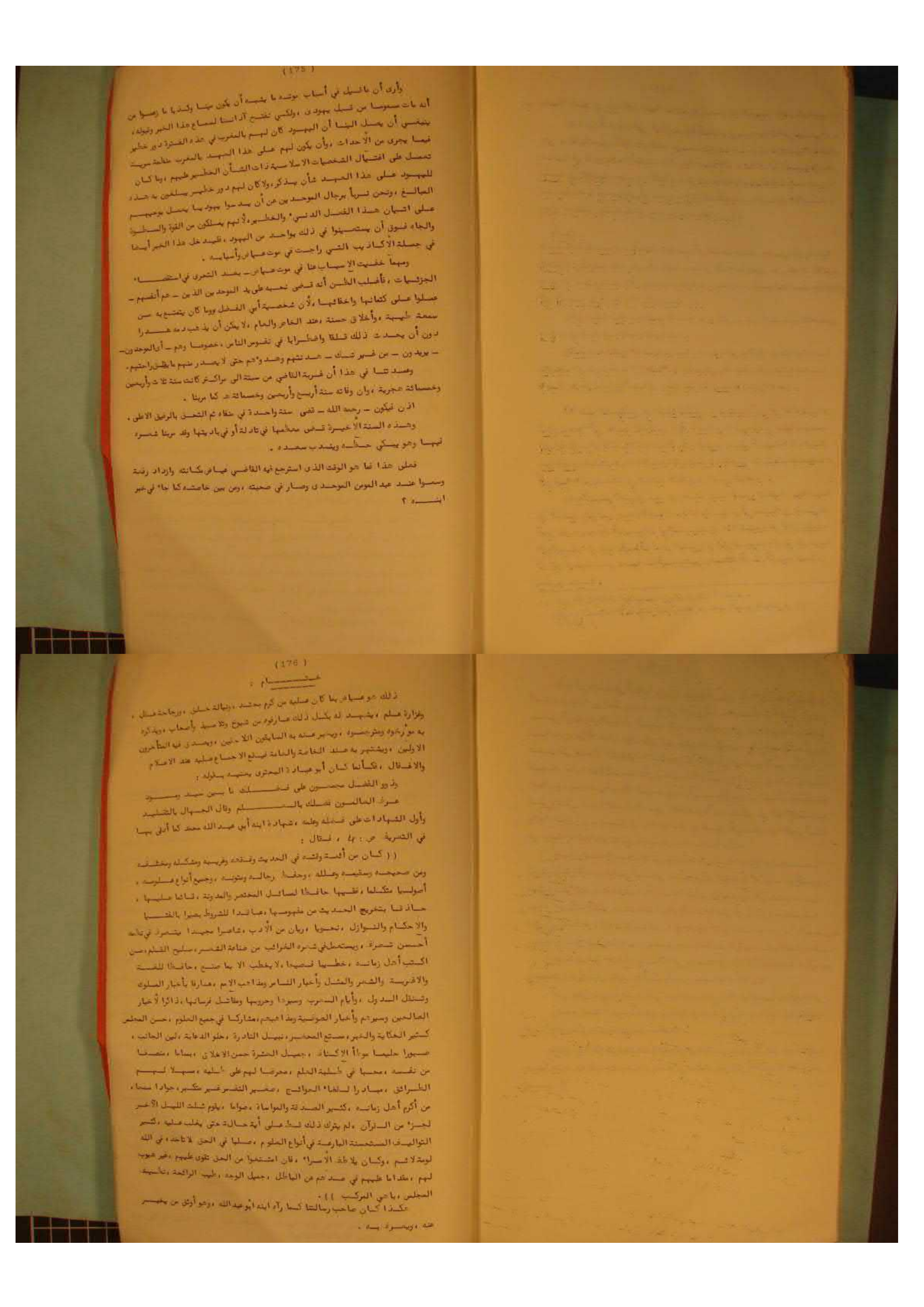
ولكن هذا كله - مع كبير الأسف - لم يكن - حتى أقله - مع القاضي عياض من قبل عبد المومن الموحدي .

والذي نستنتج أنه غربه من بلاده سبتة الى مراكش ثم عهد قضاءها بتادلة - ان صح ذلك - لا لاعتناء به ، والتملي بطلعته ، لكونه عالما عاملا فاضلا جامعا لمكارم الأخلاق ، ولكن للقضاء عليه والاستراحة منه .

أما خبر الشعراني في طبقاته الكبرى - المتقدم - من أن هلاك عياض كان بدعاء أبي حامد الغزالي ، وأن ذلك حدث يوم دعى عليه بسبب افتائه باحراق الاحياء فهو خطأ ، لأن الخبر يحكي أن عياضا مات قبل سنة خمس وخمسمائة بهذه الدعوة المستجابة ، والخبر هنا يكذب نفسه بنفسه ، لأن عياضا لم يمت الا في العقد الخامس من القرن السادس .

وثمة خبر آخر في سبب موت عياض يشبه الخبر السالف ويضاهيه في الوهي والوهن وعدم الصدق ، وذلك ما قيل من أن محمدا بن تومرت أمر بقتله بدعوى أنه يهودي في السر ، ويقول هذا الخبر : ان أهل بلده كانوا شهداء في ذلك بآية أنه كان لا يخرج في أيام السبوت (1) وفي ظننا أن ابن تومرت قضى نحبه سنة أربع وعشرين وخمسمائة أي قبل أن يموت عياض بعشرين سنة .

1) انظر اظهار الكمال لتراجم سبعة رجال ص 36 ط فاس ،
وكتاب : السعادة الأبدية لمؤلفها محمد بن محمد المدعو بالموقت ص 67 ط فاس .



وأرى أن ما قيل في أسباب موته ما يشبه أن يكون مينا وكذبا ما زعموا من أنه مات مسموما من قبل يهودي ، ولكني نفتح آذاننا لسماع هذا الخبر وقبوله، بمجنس أن يصل الينا أن اليهود كان لهم بالمغرب في هذه الفترة دور خطير فيما يجري من الأحداث ، وأن يكون لهم على هذا العهد بالمغرب خطة سرية تعمل على اغتيال الشخصيات الاسلامية ذات الشأن الخطير ، وما كان لليهود على هذا العهد شأن يذكر ، ولا كان لهم دور خطير يستطيعون به الاقدام على اتيان هذا الفعل الدنيء والخطير ، لأنهم يملكون من القوة والسطوة والجاه فوق أن يستعينوا في ذلك بواحد من اليهود ، فليدخل هذا الخبر أيضا في جملة الأكاذيب التي راجت في موت عياض وأسبابه .

ومهما خفيت الأسباب عنا في موت عياض — بعد التحري في استقصاء الجزئيات ، فأغلب الظن أنه قضى نحبه على يد الموحدين الذين — هم أنفسهم — عملوا على كتمانها واخفائها ، لأن شخصية أبي الفضل وما كان يتمتع به من سمعة طيبة ، وأخلاق حسنة ، عند الخاص والعام ، لا يمكن أن يذهب دمه هدرا دون أن يحدث ذلك قلقا واضطرابا في نفوس الناس ، خصوصا وهم — أي الموحدون — يريدون — من غير شك — عند تثبيت وجودهم حتى لا يصدر منهم ما يظن واحتيم .

وعندنا في هذا أن غربة القاضي من سبتة الى مراكش كانت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة هجرية ، وأن وفاته سنة أربع وأربعين وخمسمائة هـ كما مر بنا .

اذن فيكون — رحمه الله — قضى سنة واحدة في شقاء ثم التحق بالرفيق الاعلى .

وهذه السنة الأخيرة قضى معظمها في تادلة أو في باديتها وقد مر بنا شعره فيها وهو يشكي حظه ويندب سعده .

فعلى هذا فما هو الوقت الذي استرجع فيه القاضي عياض مكانته وازداد رفعة وسموا عند عبد المومن الموحدي وصار في صحبته ، ومن بين خاصته كما جاء في خبر ابنه ؟

ختـــام :

ذلك هو عياض بما كان عليه من كرم محتد ، ونبالة خلق ، ورجاحة عقل ، وغزارة علم ، يشهد له بكل ذلك معاصروه من شيوخ وتلاميذ وأصحاب ، ويذكره به مؤرخوه ومترجموه ، ويعبر عنه به السابقون اللاحقين ، ويصدق فيه المتأخرون الاولين ، ويشتهر به عند الخاصة والعامة فيقع الاجماع عليه عند الاعلام والاغفال ، فكأنما كان أبو عبادة البحتري يعنيه بقوله :

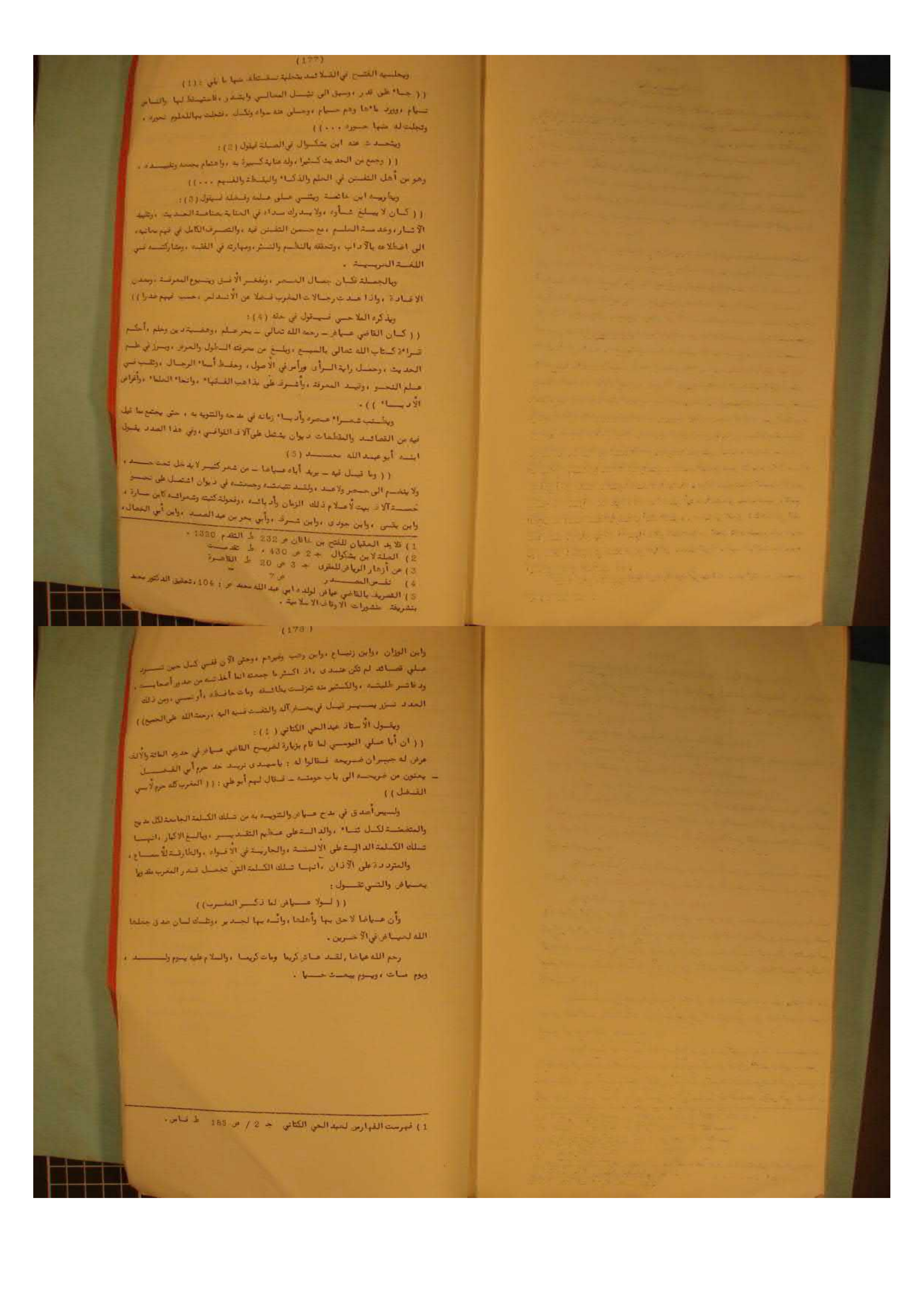
وذوو الفضل مجمعون على فضلك ما بين حامد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد

وأول الشهادات على فضله وعلمه ، شهادة ابنه أبي عبد الله محمد كما أدلى بها في التعريف ص : ٤ ، فقال :

((كان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه ومن صحيحه وسقيمه وعلله ، وحفاظ رجاله ومتونه ، وجميع أنواع علومه ، أصوليا متكلما ، فقيها حافظا لمسائل المختصر والمدونة ، قائما عليها ، حاذقا بتخريج الحديث من مفهومها ، عاقدا للشروط بصيرا بالفتيا والاحكام والنوازل ، نحويا ، ريان من الأدب ، شاعرا مجيدا مشهورا في تامة أحسن شعره ، ويستعمل في شعره الغرائب من صناعة الشعر ، مليح القلم ، من اكتب أهل زمانه ، خطيبا فصيحا ، لا يخطب الا بما صنع ، حافظا للغة والاخبار والشعر والمثل وأخبار الناس ومذاهب الامم ، عارفا بأخبار الملوك وتنقل الدول ، وأيام العرب وسيرها وحروبها وطائل فرسانها ، ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم ، مشاركا في جميع العلوم ، حسن المجلس كثير الحكاية والخبر ، ممتع المحاضرة ، نبيل النادرة ، حلو الدعابة ، لين الجانب ، صبورا حليما موطأ الاكناف ، جميل العشرة حسن الاخلاق ، بساما ، منصفا من نفسه ، محببا في طلبة العلم ، محرضا لهم على طلبه ، سهلا لهم الطرائق ، مبادرا لقضاء الحوائج ، صغير النفس غير متكبر ، جوادا سمحا ، من أكرم أهل زمانه ، كثير الصدقة والمواساة ، صواما ، يقوم ثلث الليل الآخر لجزء من القرآن ، لم يترك ذلك قط على أية حالة حتى يغلب عليه ، كثير التواليف المستحسنة البارعة في أنواع العلوم ، صلبا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان يلاطف الأمراء ، فان استمعوا من الحق تقوى عليهم ، غير هيوب لهم ، مقداما عليهم في صدهم عن الباطل ، جميل الوجه ، طيب الرائحة ، نظيف المجلس ، باهي المركب)) .

هكذا كان صاحب رسالتنا كما رآه ابنه أبو عبد الله ، وهو أوثق من يخبر عنه ، ويبصره به .



ويحليه الفتح في القلائد بحلية نقتطف منها ما يلي : (1)

((جاء على قدر ، وسبق الى نيل المعالي وابتدر ، فاستيقظ لها والناس نيام ، ووِرد ماءها وهم حيام ، وصلى عنه سواه وتكسل ، فتحلت بها العلوم نحوره ، وتجلت له منها حوره ...))

ويتحدث عنه ابن بشكوال في الصلة فيقول (2) :

((وجمع من الحديث كثيرا ، وله عناية كبيرة به ، واهتمام بجمعه وتقييده ، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم ...))

ويأتي بعده ابن خاتمة ويثني على علمه وفضله فيقول (3) :

((كان لا يبلغ شأوه ، ولا يدرك سداده في العناية بصناعة الحديث ، وتقييد الآثار ، وخدمة العلم ، مع حسن التفنن فيه ، والتصرف الكامل في فهم معانيه ، الى اطلاعه بالآداب ، وتحققه بالنظم والنثر ، ومهارته في الفقه ، ومشاركته في اللغة العربية .

وبالجملة فكان جمال العصر ، ومفخر الأفق وينبوع المعرفة ، ومعدن الافادة ، واذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس ، حسب فيهم عددا))

ويذكره الملاحي فيقول في حقه (4) :

((كان القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ بحر علم ، وهضبة دين وحلم ، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع ، وبلغ من معرفته الطول والعرض ، وبرز في علم الحديث ، وحمل راية الرأي ، وبرأس في الأصول ، وحفظ أسماء الرجال ، وتقدم في علم النحو ، وتقييد المعرفة ، وأشرف على مذاهب الفقهاء ، وانحاء العلماء ، وأغراض الأدباء)) .

ويشتبب شعراء عصره وأدباء زمانه في مدحه والتنويه به ، حتى يجتمع مما قيل فيه من القصائد والمقطعات ديوان يشتمل على آلاف القوافي ، وفي هذا الصدد يقول ابنه أبو عبد الله محمد (5)

((وما قيل فيه ـ يريد أباه عياضا ـ من شعر كثير لا يدخل تحت حصر ، ولا ينحصر الى حصر ولا عد ، ولقد تتبعته وجمعته في ديوان اشتمل على نحو خمسة آلاف بيت لأعلام ذلك الزمان وأدبائه ، وفحولة كتبته وشعرائه كابن سارة ، وابن بقي ، وابن جودي ، وابن شرف ، وأبي بحر بن عبد الصمد ، وابن أبي الخصال ،

1) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص 232 ط التقدم 1320 .
2) الصلة لابن بشكوال ج 2 ص 430 ، ط مدريد
3) عن أزهار الرياض للمقري ج 3 ص 20 ط القاهرة
4) نفس المصدر ص 7
5) التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد ص : 104 ، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة منشورات الاوقاف الاسلامية .

وابن الوزان ، وابن زنباع ، وابن وهب وغيرهم ، وحتى الآن ففي كل حين تسرد علي قصائد لم تكن عندي ، اذ اكثر ما جمعته انما أخذته من صدور أصحابه ، ود فاتر طلبته ، والكثير منه تمزقت بطائقه ومات حافظه ، أو نسي ، ومن ذلك العدد نزر يسير قيل في بحر آله والتفت فيه اليه ، رحمة الله على الجميع))

ويقول الأستاذ عبد الحي الكتاني (1) :

((ان أبا علي اليوسي لما قام بزيارة لضريح القاضي عياض في حدود المائة والألف عرض له جيران ضريحه فقالوا له : ياسيدي تريد حد حرم أبي الفضل ـ يعنون من ضريحه الى باب حومته ـ فقال لهم أبو علي : ((المغرب كله حرم لأبي الفضل))

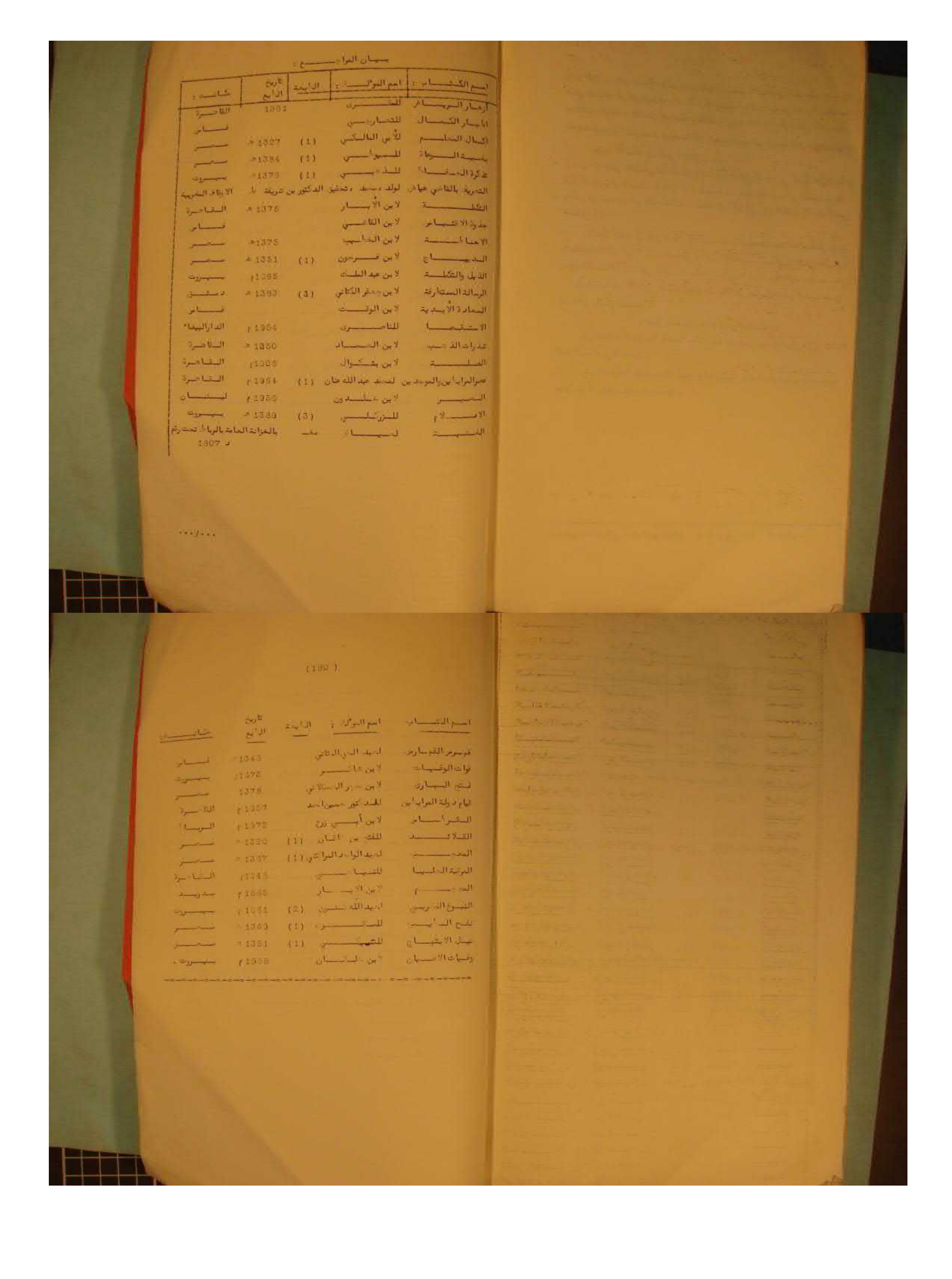
وليس أصدق في مدح عياض والتنويه به من تلك الكلمة الجامعة لكل مدح والمتضمنة لكل ثناء ، والدالة على عظيم التقدير ، وبالغ الاكبار ، انها تلك الكلمة الدالة على الألسنة ، والجارية في الأفواه ، والطارقة للأسماع ، والمترددة على الآذان ، انها تلك الكلمة التي تجعل قدر المغرب مقرونا بعياض والتي تقول :

((لولا عياض لما ذكر المغرب))

وأن عياضا لاحق بها وأهلها ، وانه بها لجدير ، وتلك لسان صدق جعلها الله لعياض في الآخرين .

رحم الله عياضا ، لقد عاش كريما ومات كريما ، والسلام عليه يوم ولد ، ويوم مات ، ويوم يبعث حيا .

1) فهرست الفهارس لعبد الحي الكتاني ج 2 / ص 183 ط فاس .

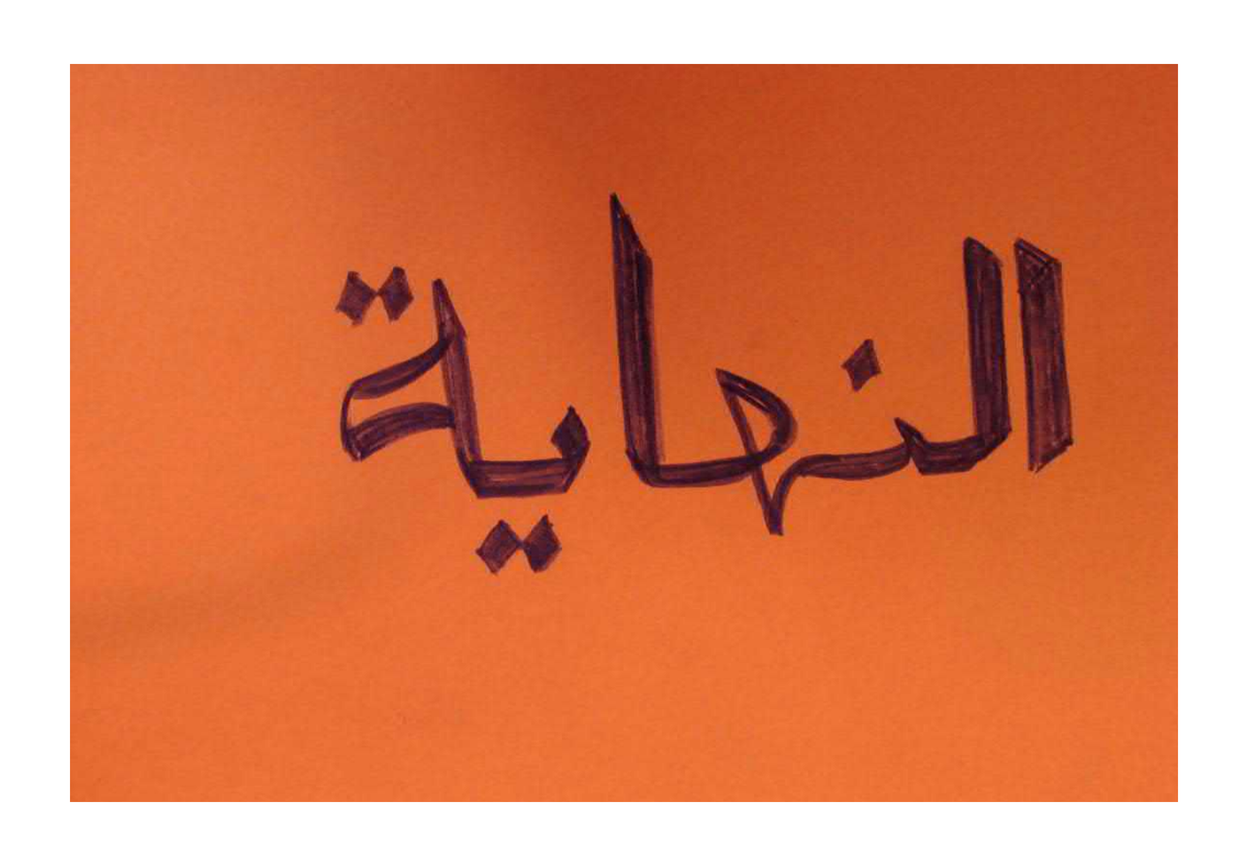


بيان المراجع :

اسم الكتاب :	اسم المؤلف :	الطبعة	تاريخ الطبع	مكانه :
أزهار الرياض	للمقري		1361	القاهرة
الأخبار الكمال	للتجاربي			فاس
إكمال المعلم	للأبي المالكي	(1)	1327 هـ	مصر
بغية الوعاة	للسيوطي	(1)	1384 هـ	مصر
تذكرة الحفاظ	للذهبي	(1)	1375 هـ	بيروت
التعريف بالقاضي عياض	لولده محمد ، تحقيق الدكتور بن شريفة		ط	الأوقاف المغربية
التكملة	لابن الأبار		1375 هـ	القاهرة
جذوة الاقتباس	لابن القاضي			فاس
الإحاطة	لابن الخطيب		1375 هـ	مصر
الديباج	لابن فرحون	(1)	1351 هـ	مصر
الذيل والتكملة	لابن عبد الملك		1965 م	بيروت
الرسالة المستطرفة	لابن جعفر الكتاني	(3)	1383 هـ	دمشق
السعادة الأبدية	لابن الموقت			فاس
الاستقصا	للناصري		1954 م	الدار البيضاء
شذرات الذهب	لابن العماد		1350 هـ	القاهرة
الصلة	لابن بشكوال		1966 م	القاهرة
عصر المرابطين والموحدين	لمحمد عبد الله عنان	(1)	1964 م	القاهرة
العبر	لابن خلدون		1959 م	لبنان
الأعلام	للزركلي	(3)	1389 هـ	بيروت
الغنية	لعياض	مخ		بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1807 د

..../....

اسم الكتاب	اسم المؤلف :	الطبعة	تاريخ الطبع	مكانه
فهرس الفهارس	لعبد الحي الكتاني		1346 هـ	فاس
فوات الوفيات	لابن شاكر		1972 م	بيروت
فتح الباري	لابن حجر العسقلاني		1378	مصر
قيام دولة المرابطين	للدكتور حسن أحمد		1957 م	القاهرة
القرطاس	لابن أبي زرع		1972 م	الرباط
القلائد	للفتح بن خاقان	(1)	1320 هـ	مصر
المعجب	لعبد الواحد المراكشي	(1)	1332 هـ	مصر
المرقبة العليا	للنباهي		1948 م	القاهرة
المعجم	لابن الأبار		1885 م	مدريد
النبوغ المغربي	لعبد الله كنون	(2)	1961 م	بيروت
نفح الطيب	للمقري	(1)	1363 هـ	مصر
نيل الابتهاج	للتنبكتي	(1)	1351 هـ	مصر
وفيات الأعيان	لابن خلكان		1968 م	بيروت .


النهاية